

المجازات النبوية

وهو الكتاب الجامع للثناء وشين خدياً نبوياً
بن أرابه وشمس كلهم غنية الرضا والسنم

يشرح الشاعر المطلق والعالم التحليل
السريع الرضى

ويعلق على الشرح بتسميم إشاراته، وتجليه مقاصده
وتحقيق رواياته ، وضبط عباراته

محمود مصطفى

مدرس الأدب بكلية اللغة العربية من الجامعة الأردنية

مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر

١٣٥٦ هـ - ١٩٣٧ م / ٧٥٢

أفرد الكتاب

إلى حضرة صاحب الفضيلة الإمام الجليل
الشيخ محمد مصطفى المراغي شيخ الإسلام والمسلمين

ليس عمل أوفق من هذا التنبه إلى مجيها،
فأنا أقدم هدى محمد رسول الله، إلى محمد ناصر دين الله
محمود طفي

تمهيد

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على محمد سيد المرسلين .

وبعد : فهذا كتاب [المجازات النبوية] يجمع كثيراً مما وقع في كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم من جوامع الكلم . شرط فيه جامعه - السيد الشريف الرضى - أن يكون كل ما يأتي به من مختار كلامه عليه الصلاة والسلام مشتملاً على مجاز طريف أو كناية دقيقة .

وقد استطاع رضى الله عنه بما وهب من واسع العلم ، وغزير الفضل وحسن التتبع لكلام رسول الله ، أن يجمع من ذلك ثلثمائة وستين حديثاً ، وقد كنا قبل ذبوع هذا الكتاب لا يكاد الأديب - مهما بلغ من سعة الاطلاع - يجمع من ذلك عشرة أودونها . ألفت تراهم في مقام الاحتجاج لفضل رسول الله في البلاغة وتصريفه لأعنة الفصاحة لا يذكره إلا قوله عليه الصلاة والسلام : « إِيَّاكُمْ وَخَضِرَاءِ الدِّمَنِ » . وقوله : « هَذُنَّةٌ عَلَى دَخَنٍ » . وقوله : « الْآنَ سَمِيَ الْوَطِيسُ » . وقوله : « إِنْ مِنْ الْبَيَانِ لَسِحْرٌ » . إلى قليل مما اقتضت عليه الكتب المتداولة بيننا .

فأما هذه الكثرة المستفيضة فإننا لم نعهدها في غير هذا الكتاب ،
ولا نغير هذا العالم الجليل ، الذي رأى من البر لحدّه أن يذيع فضله على هذا
النحو الذي تراه في كتابه .

ولم يكتب رحمه الله بإيراد هذه الآثار سرداً لا تعقيب معه ، بل إنه
جلى محاسن هذه الآيات بشرحها ، وبيان مبلغ البلاغة فيها ، ولقد جاء
هذا الشرح فائدة كبرى للمطلع على الكتاب . فهو لا يزال متنقلاً
من تحقيق لغوى ، إلى تطبيق على علم البلاغة ، إلى سياق الشاهد من كلام
العرب . وأما ما يجنيه القارئ من الخلق ، والتوسع في الفهم ، والتقليب
للأساليب على وجوهها المعتبرة في نظر البليغ ، فذلك أجلى ما يتجلى في هذا
الشرح ، وأجدى ما يجديه المؤلف على الناظر في كتابه . فإنه يخرج من
طول الممارسة للفهوم المختلفة من الأسلوب الواحد والموازنة بينها ، وتفضيل
الفاضل منها ، والحكم على راجحها ومرجوحها ، يخرج من كل ذلك بملكة
صناع هي عدة الأديب في ممارسة كلام العرب والتذوق لمحاسنه

ونحن نرى المؤلف في هذا الباب قد برز أتم تبريز ، ودلّ على قوة
نقده التي لا تبارى . ونستطيع أن نقول : إن الذي حقق له هذه الغاية ومكّنه
من زمام هذه الصعاب هو نشأته في البيت العلوى ، وتحدّره من تلك
الأصلاّب العريقة في الفصاحة ، وحسن قيام أبيه على تربيته ، ككلّ
شريف ناشئ في النعمة والغنى ، فقد ضمن له كلّ ذلك أن يكون تامّ
الملكة قوى النقد . ثم إن المؤلف قد أخذ نفسه بالمران على هذا النوع من

التأليف ، دعاه إليه حبه لإظهار محاسن القرآن الكريم ، وكلام جده رسول الله . فقد كثرت في ذلك مؤلفاته كثرة دانت على فضل اتجاهه وتمام توفره على ذلك النهج ، وأنه أواع بهذا النوع من البيان خدمة للدين ، وتدليلاً على عظيم مقام رسول الله في البلاغة ، فأما هذه الكتب التي أثرت عنه ، فهي :

١ - حقائق التنزيل ، ودقائق التأويل . وهو الكتاب الذي كشف فيه عن غرائب القرآن وعجائبه ، وخفائيه ، وغوامضه ، وأسراره ، ودقائق أخباره ، وتكلم في تحقيق حقائقه ، وتدقيق تأويله بما لم يسبقه أحد إليه ، ولا حام طائر فكر عليه . وهو كبير الحجم . قالوا : إنه يكون في حجم تفسير أبي جعفر الطبري أو أكبر . وقد قال بعضهم في وصفه : (إنه الذي يبين بالعيان لا بالبرهان أن القرآن هو الكلام المتعذر المعوز والممتنع المعجز . . .)

٢ - تلخيص البيان عن مجازات القرآن : وهو الكتاب الذي ألفه قبل كتاب المجازات النبوية فاستحسنه الناس لأنه سلك فيه محجة لم تعرف ، وطرق أبواباً لم تطرق . فرغبوا إليه أن يؤلف لهم على مثاله ما يكون لحديث رسول الله مفصلاً عن فصاحته ، مبيناً عن دقائق إشاراته

٣ - المجازات النبوية : وهو الكتاب الذي بين يديك ، ولا نرى في تعريفه خيراً من تقديمه إليك في الحلة التي أمكننا الله سبحانه

وتعالى من إظهاره فيها ، فقد كان والله المنّة قبل خدمتنا له منقوص
الفضيلة لا تجتنى فوائده على وجهها ، لكثرة ما جنى عليه التحريف
وتنازعه التخليط مما سنقفك عليه بالتفصيل حين نعرض عليك
عملنا في الكتاب .

٤ — وله غير هذه الكتب كتب أخرى ذكرها المؤلف في عرض كتابه
(المجازات النبوية) ، كقوله عند الكلام على الحديث الثاني :
(. . على ما بيناه في عدّة مواضع من كتابينا المشهورين في علوم
القرآن) . وكقوله عند الكلام على الحديث (٢٠٩) (. . وقد بسطنا
الكلام على ذلك في باب مفرد من جملة كتابنا الكبير في متشابه
القرآن) . كما ورد في كتاب (تأسيس الشيعة الكرام لقنون
الإسلام) قول مؤلفه عن السيد الرضى بعد أن ذكر كتبه الثلاثة
التي ذكرناها أولاً ، وهى : حقائق التنزيل . وتلخيص البيان .
والمجازات النبوية . قال : وله كتاب تعليق خلاف الفقهاء ، وكتاب
تعليق الإيضاح ، (والإيضاح لأبى على الفارسي) ، وكتاب
خصائص الأئمة ، وكتاب نهج البلاغة ، وكتاب الزيادات في شعر
أبى تمام ، وكتاب انتخاب شعر ابن حجاج ، وكتاب مختار شعر
أبى إسحق الصابى ، وكتاب ما دار بينه وبين أبى إسحق
من الرسائل ام

ولم نعد لك هذه الكتب إلا لنذك على أن الشريف الرضى

رحمه الله لم يكن فحسب ذلك الشاعر المفلق الذي تداول الناس شعره منذ قديم في مجلدين ضخمين ، ونوّه أصحاب التراجم بشأنه في الشعر وفضله على البيان ، حتى قال الثعالبي في اليتيمة : (هو أشعر الطالبين من مضى منهم ومن غير ، على كثرة شعرائهم المفلقين ، ولو قلت إنه أشعر قریش لم أبعد عن الصدق) . وحتى قال الخطيب في تاريخ بغداد : (سمعت جماعة من أهل العلم بالأدب يقولون : إن الرضى أشعر قریش ، فقال ابن محفوظ : هذا صحيح وقد كان في قریش من يجيد القول إلا أن شعره قليل ، فأما مجيد مكثر فليس إلا الشريف الرضى) .

هذا هو الشريف الرضى العالم الذي توفر على خدمة البلاغة العربية بجلى غوامضها ، ويذيع محاسنها المنبثة في الأثرين اللذين لا يلحقهما كلام ، وهما كتاب الله المعجز ، وكلام نبيه أفصح العرب فاطمة . ومن كان يستطيع القيام بهذا غير الشريف الرضى العربي الفصح ، والذكى الفذ ، والشاعر المفلق ؟ فرحمه الله ، وأثار طريقه إلى الجنة كما أثار لنا طريق البلاغة العربية وجلى غوامضها

وبعد : فإننا نكتفى من الحديث عن الشريف الرضى بما ذكرنا إذ لم يكن هنأ إلا بيان وجهة الرجل العلمية . فأما شاعريته ، فهي باب واسع اكتفينا فيه باللمحة الخاطفة التي مرّت بك

وأما كرم نسبه ، وشريف عنصره ، فهو واضح في كونه فرع هنأ النبعة الكريمة المباركة .

وأما كريم شمائله ، ومحاسن آدابه وأخلاقه ، فيكفي أن نقول في

الإشارة إليها إنه (وقد نشأ في عصور الملق والزلفى) لم ير في الخليفة القائم في أيامه (القادر بالله) إلا أنه ابن عم يخاطبه خطاب الأنداد ، بل يفاخره مفاخرة الأقران بقوله :

عظما أمير المؤمنين فإتنا في دَوْحَةِ الْعُلِيَاءِ لَا نَتَفَرَّقُ
مَا بَيْنَنَا يَوْمَ الْفَخَارِ تَفَاوُتٌ أَبَدًا كَلَانَا فِي الْمَعَالَى مُعْرِقُ
إِلَّا الْخِلَافَةَ مَيَّرْتِكَ فَإِنِّي أَنَا عَاطِلٌ مِنْهَا وَأَنْتَ مُطَوَّقُ
كما نذكر له في باب الخلق الرضى ، والنفس الأبية أنه لم يقبل هدية من أحد بل لقد ردّ هدايا أبيه .

مات رحمه الله وقد خلف كل هذا الفضل سنة ٤٠٦ هـ ، وعمره سبع وأربعون سنة ، إذ كان قد ولد سنة ٣٥٩ هـ

عملنا في الكتاب

الكتاب مطبوع منذ سنة ١٣٢٨ هـ بمطبعة الآداب ببغداد ، فهو متداول بمصر منذ ربع قرن تقريباً ، ولكننا لم نوفق إلى اقتنائه إلا من أشهر قليلة ، فحين وقع في يدينا ، وتصفحناه عرفنا فضيلته ظاهرة ، واستجلينا محاسنه بارزة . ولكننا لم نره مخدوما تلك الخدمة الواجبة لكتاب مثله حتى يتم النفع به لكل قارئ ، وإن لم تكن له في الأدب وفهم كلام العرب قدم ثابتة . ذلك أن به إشارات لغوية تحتاج إلى

ضبط وتثبيت ، وبه مناح علمية تحتاج إلى شرح وتوضيح : فيه كلام في
الحجاز والإسناد العقلي ، وكلام في آراء المعتزلة والشيعة ، وإشارات تاريخية
إلى غزوات رسول الله ومواقفه الخطابية ، وفيه شعر لفحول الشعراء
القدماء مرّ به المؤلف ، ولم يرع حقّ القارئ الشاذي في الأدب والعلم ،
فلم يعلق عليه بشرح ولا بيان لمعاني مفرداته وتراكيبه ، كما أن فيه أحاديث
من كلام رسول الله اقتصر فيها المؤلف على شاهده منها ، وهو العبارة
المشتملة على نكتة الحجاز أو الكناية فلم يحسن إتماماً لقائدة القارئ
إلا أن نأثي على كل ذلك شرحاً وتحقيقاً وتكميلاً على قدر عجزنا وقصورنا .

كما أننا وجدنا بعض نصوص الحديث قد اعتورها التبديل
والاضطراب الذي شمل عبارات الكتاب متناً وشرحاً ، فراعنا أن يبقى
كلام رسول الله تعلوه هذه الكلف وتستره هذه الشبهات .

وكان الذي أذهلنا واشتدت له غضبتنا أن رأينا الكتاب غير صالح
للتناول ، ولا أهل للنظر مع هذا الخطأ المطبعي الذي لم يخل منه سطر من
سطوره ، بل لقد اشتملت عليه كل كلمة من كلماته : رأينا جميع أنواع
التحريف والخطأ ، فمن حروف اطردها تغييرها بلا مبالاة ، إلى أسطر أسقطت
من أثناء الكلام ، إلى شعر أدمج إدماج النثر ، ونثر فرق تفريق الشعر ،
إلى غير ذلك مما لا يكفي في تمثيله إلا أن تمسك بالنسخة المطبوعة في
بغداد ونسختنا هذه . فتقابل بينهما سطراً بسطر وكلمة بكلمة حتى تعرف
مقدار حاجة هذا الكتاب إلى عملنا الذي تصدينا له .

ويعلم الله (وهو على ما نقول وكيل) أننا لم نقصد بعملنا إلا الخدمة
لكلام رسول الله صلى الله عليه وسلم نجعلها وسيلتنا إليه وشقيعنا عنده .
وهي غاية توافق غاية الشريف الجليل السيد محمد نجل حجة الإسلام
والمسلمين السيد سيد حسن صدر الدين ، في إذاعة فضائل رسول الله
ونشرها ، فهو الذي قام (جزاه الله الخير) بنشر الكتاب من نسخة واحدة
في خزانة كتب ببعض بيوت العلم القديمة ببغداد .



وقد آن أن نورد بعض أمثلة من التحريف الذي كان واقعاً بطبعة
بغداد حتى يتبين القارئ مقدار جهلنا في تنقية الكتاب مما كان منبثاً
فيه من تبديل وتغيير . وما نقصد بذلك الدلالة على نفاذ رأى وصواب تأمل ،
فتلك دعوى نبرأ إلى الله منها خصوصاً في هذا المقام الذي كل همتنا فيه
أن يقبل الله عملنا ، وأن يحسن عليه جزاءنا ، وإنما كان قصدنا من
إثبات هذه الأمثلة أن يطمئن القارئ إلى عملنا ، وأن يشق بأننا لم ندخر
وسعاً في تنقية هذا الطريق من شوكة . فمن هذه الأمثلة .

١ - ص ١٢ (من الأصل) : أصر الفرس أذنيه إذا نصبهما للتوحش .

والصواب : للتوجس .

٢ - ص ٢١ (من الأصل) : لأنه بقية أبقته مضارب الشوق .

والصواب : مضارب السيوف .

تحت الدروع والواحدة غلالة ، وإنما سميت غلائل لانفلالها
بين الدروع والأجساد التي تجمع بين رؤوس الحلق والواحدة غليلة .
وبلاحظ أن الكلام مضطرب بعد قوله الأجساد ، ثم إننا لم نجد
القول الثاني الذي أشار إليه في قوله : قولان فأحدهما ، فحاولنا أن
نجد في كتب الحديث من ذكر الحديث فاتهت في نرحه إلى ذكر
البيت الذي وردت فيه كلمة غلائل ، اعلنا نجد في الشرح ما يهدينا
إلى أصل هذا التحريف ، فلم نجد . ثم وجدنا صاحب القاموس المحيط
يقول في شرح الغلائل هي الدروع أو مساميرها الجامعة بين رؤوس
الحلق ، فكان من هنا إصلاحنا لعبارة المؤلف ، فصارت هكذا
والأجساد ، والثاني : أنها المسامير التي تجمع بين رؤوس الحلق

٩ — ص ٨٥ (في الأصل) في وصية وصى بها أسامة بن زيد لما
أراد بعثه إلى موة ليثأر بأذنيه زيد . والصواب : بأبيه زيد
١٠ — ص ٨٦ (من الأصل) إن الإسلال والإغلال ، وأن بيننا عيبة
مكوفة (الحديث) والصواب : لا إسلال ولا إغلال وإن بيننا
عبية مكوفة .

١١ — ص ٩٤ (من الأصل) ومن ذلك قوله عليه السلام للضحالك
ابن سفيان ، وقد نعتة مصدقا . والصواب : بعثه مصدقا .
١٢ — ص ١٠١ (في الأصل) سأله رجل عما شئبه ، فقال : هود
وأحوالها . والصواب : وأخواتها .

١٣ — ص ١٠٣ (من الأصل) كأنه دعه إلى أن ترعى أدمتها ،
والصواب : يرعى ذمتها

١٤ — ص ١٠٥ (من الأصل) كما يتشقق الحبة الشجر ، والصواب :
كما تتشقق الحية الشجر

١٥ — ص ١٠٦ (من الأصل) وما لا يحتمل القسم كالحمام في العقار
والذرة في العروض ، والصواب : والذرة في العروض (أخذنا ذلك
من العقل إذ أن الذرة قابلة للقسم ، وكذلك استأنسنا بتمثيل
بعض شراح الحديث بالجوهرية والطليسان) والجوهرية والذرة في
حكم واحد .

١٦ — ص ١٠٨ (من الأصل) لا يقطع مافيه من شجر أو كلام ،
والصواب : أو كلاً .

١٧ — ص ١١٢ (من الأصل) قال الشاعر :
أرسل عليهم شبه ماسوره تختلف الناس اختلاف النوره
وصحة البيت :

أرسل عليهم سنة قاشوره تحتاق الناس احتلاق النوره
١٨ — ص ١١٣ (من الأصل) وجعل الكتاب لها بمنزلة الاقتار
النافعة والعقل اللازمة . والصواب : بمنزلة الأقياد

١٩ — ص ١٢٤ (من الأصل) الرفق يقبل إليه بالقلوب ويطاز
عليه كوامن الصدور ، والصواب : ويطأ .

٢٠ - ص ١٢٧ (من الأصل) وأما قوله عليه السلام والعمائم تيجان العرب فإنما أراد أن نها العرب يكون بعمائمها كما يكون نها ملوك الفرس بتيجانها، والصواب: بهاء العرب وبهاء ملوك الفرس.

٢١ - ص ١٣٣ (من الأصل) قوله عليه الصلاة والسلام (إن المسجد لينزوى من النخامة كما تنزوى الجلدة في النار إذا تقبضت وتجمعت) والصواب (إن المسجد لينزوى من النخامة كما تنزوى الجلدة في النار) يقال : انزوت الجلدة إذا تقبضت وتجمعت .

٢٢ - ص ١٣٦ (من الأصل) ومن نتاج ذى الحمار ، والصواب : ذى الجمّازة .

٢٣ - ص ١٤٢ (من الأصل) جعل القرآن للقلوب الواعية بمنزلة الربيع بل الراعية ، والصواب : للإبل الراعية .

٢٤ - ص ١٤٤ (من الأصل) يعبر عن حروف المعجم ببعضها ، فيقال ألف باتا . والمراد جميعها . وكذلك يقولون هو في الجدة ويريدون سائر هذه الحروف . والصواب في أبجد .

٢٥ - ص ١٧٨ (من الأصل) والسيه اسم للسيثة ، والصواب : والسّه اسم للسّه .

٢٦ - ص ١٩٥ قال الشاعر :

عليه شربت وادع لين العصا يساجلها جهانه وتساجله

وصوابه :

عليه شريب وادع لين العصا يساجلها جماته وتساجله
٢٧ - ص ٢٤٩ (من الأصل) في الأوعية التي وقع النهى عنها كاللدا
والختم ، والصواب : كاللدا والختم

٢٨ - ص ٢٧٧ (من الأصل) قول الشاعر :

كأن محيطاً في يدى حارثية صناع علت منى به الجلد منعل
والصواب :

كأن محطاً في يدى حارثية صناع علت منى به الجلد من عل
٢٩ - ص ٢٨٠ (من الأصل) الضحى أوّل شروقها ، والضحى
وقت إشراقها وارتفاعها . والصواب . . . وغزالات الضحى أوّل
شروقها ، والضحى وقت إشراقها وارتفاعها .

٣٠ - ص ٢٨١ (من الأصل) يخشى عليه تقيصة التمام ، وعكيسة
الكال كما يخشى على السيقين بعد انحناؤه والبازل بعد انتهائه ،
والصواب : السيفن (بدل السيقين) وهو الشيخ الغافى .

٣١ - ص ٢٨٣ (من الأصل) وإذا صح ماقلناه صار القائل لعمر الله
كأنما يحلف بحياة يحيى بها الله لا حياة بحياتها . والصواب :
بحياة يحيى بها الله لا حياة يحيها .

هذا ، وإننا لنشفق على القارئ من تعداد الأمثلة بعد ما ذكرنا ،

وإن كان عندنا أضعاف ذلك لمن يحتاجنا في أننا نقلنا الكتاب من حال إلى حال أصبح بها بعيداً من طبعة بغداد قريباً جداً اقرب من أصله الذى وضعه عليه مؤلفه رحمه الله .

هذا وإننا لنعتقد أننا بإخراجنا للكتاب على هذه الصورة قد أحدثنا لحديث رسول الله قراء لم ينالوا من قبل شرف هذا الاتصال ، ولا تمكنوا من ورد هذا المنهل الذى هم فى أشد الطلب له . وذلك لأن أحاديث رسول الله ظلت طول عهدها قيد بحث المشترعين وطلاب الفقه ، فلم يكن للأديب المتتبع لمساقط الحجاز ، والكناية ، والقول الجامع للحكمة العالية ، والأوابد النادرة ، مجال فى هذه الكتب ولكن كتاب « المجازات النبوية » هو ضالة هذا الأديب وطلبته التى يتلمسها فى كل حين .

وقد مكناه والحمد لله من تناوله بعملنا فى شرحه ، والتعليق عليه والتنقية له من أخطائه ، والضبط لمشتبه عباراته .

هذا وقد كنت أطامت على هذا الكتاب ، العالم الجليل والأديب الحق حضرة صاحب الفضيلة الشيخ إبراهيم حمروش عضو جماعة كبار العلماء والجمع اللغوى المصرى الملكى ، وشيخ كلية اللغة العربية من الجامعة الأزهرية ، فشجعنى على المضى فى إعدادده وإخراجه للناس وقال

— حفظه الله في شأنه — إنه ضالة كلية اللغة العربية في دورس الحديث ،
والبلاغة ، والأدب .

ولا أنكر ما كان لتشجيع فضيلته من أثر في نفسي ، شد من عزمي
حتى مضيت في ذلك العمل المضني ، فجزى الله فضيلته عن العلم الذي
يؤزره ، والدين الذي ينصره .

اللهم إنا إليك بعملنا هذا قد توجهنا ، وشفاعة رسولك عليه الصلاة
والسلام قد أقمنا ، فاجعل النفع بكتابنا شاملا حتى يجزل عليه ثوابنا
عندك ، إنك المستعان المتنان .

٦ من ربيع الثاني سنة ١٣٥٦ هـ
١٥ من يونيو سنة ١٩٣٧ م

المدرس بكلية اللغة العربية
من الجامعة الأزهرية



مقدمة المؤلف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أما بعد حمد الله سبحانه بمحامده التي يستحقها ، واختصاص نبيه محمد وآله الطاهرين بالصلوات التي هم أهلها ، فإنني عرفت ما شافهتني به من استحسانك الخبيثة التي أطلعتها ، والدفينة التي أثمرتها من كتابي الموسوم بـ (تلخيص البيان عن مجازات القرآن) وأنى ساءت من ذلك محجة لم تسلك ، وطرقت باباً لم يطرق ، وما رغبت إلى فيه من سلوك مثل تلك الطريقة في عمل كتاب يشتمل على مجازات الآثار الواردة عن رسول الله صلى الله عليه وآله ، إذ كان فيها كثير من الاستعارات البديعة ، ولُمع البيان الغريبة ، وأسرار اللغة اللطيفة ، يعظم النفع باستنباط معادنها ، واستخراج كوامنها ، وإطلاعها من أركانها وأكنانها ، وتجريدها من خللها^(١) وأجفانها ، فيكون هذان الكتابان بإذن الله لمعتين يستضاء بهما وعرونيين لم أسبق إلى قرع بابهما ، فأجبتك إلى ذلك مستخيراً الله سبحانه فيه على كثرة الأشغال القاطعة ، والعوائق المانعة ، والأوقات الضيقة ، والهموم المُنخِقة ، وعملت بتوفيق الله

(١) خلل السيوف هي أجفانها فالعطف للتفسير .

على تتبع ما فى كلامه صلى الله عليه وعلى آله من ذلك ، والإشارة منه إلى مواضع الثُّكَّتْ ، ومواقع الغَرَضِ بالاعتبارات الوجيزة والإيماءات الخفيفة على طريقته فى كتاب : « مجازات القرآن » لئلا يطول الكتاب فيجفرو على الناظر ، ويشقُّ على الناقل ، فإن القلوب فى هذا الزمان ضعيفة عن تحمل أعباء العلوم الثقيلة والإجراء فى مسافات الفضائل الطويلة ، لأنه لم يبق من الفضل إلى الذم ، ومن الفضلاء إلا الأسماء . والله الحمد على السراء والضراء ، والبؤس والنعماء . ولست شاكا فى أن ما يفوتنى من الجنس الذى أقصده أكثر من الحاصل لى والواقع إلى ، ولكنى أقصر على ما تناله فى هذا الوقت يدي ، ويقرب من تصفحى وتأملى ، وإذا ورد بمشيئة الله من هذه الآثار ما فيه موضع مجاز قد تقدم الكلام على نظيره أو ما يقوم مقامه أقتصرت على القول الأول طلباً للاقتصاد ، ووقوفاً دون الإبعاد على مثل الأصل المقرر فى كتاب : « مجازات القرآن » . ولولا أن أبا على محمد بن عبد الوهاب قد سبق إلى تفسير متشابه الأخبار التى ظاهرها التشبيه والتجسيم وصريحها التجوير ، والتظلم^(١) ، واستقصى هذا المعنى فى كتابه الموسوم بشرح الحديث .

(١) جوره : نسبه إلى الجور . وظلمه : نسبه إلى الظلم ، والمعنى أنه تعرض للأخبار التى يدل نفعها صراحة على جور الخالق وظلمه ، تعالى عن ذلك علوا كبيرا .

وتعطى ذلك جماعة غيره من علماء أهل العدل ^(١) في مواضع من كتبهم
تثبت هذا الفن جميعاً تتبعاً يكشف الشبه ، ويوضح المشبه ، على طريقتي
في كتابي الكبير الموسوم (بختائق التأويل في متشابه التنزيل) إلا
أنى بعون الله أورد من ذلك ما كان داخلًا في باب الاستعارات الكيفية
بكيفية ، أو بسعة كثيرة من معناه ، والذي أعتد عليه في استخراج
ما يتضمن الغرض الذي أنحو نحوه ، وأقصد قصده ، كتب غريب
أحدث العروقة ، وأخبار المغازي المشهورة ، ومسانيد الحديث الصحيحة ،
مضيفاً إلى ذلك ما يليق بهذا المعنى من جملة كلامه عليه الصلاة والسلام
الموجز الذي لم يستوف إلى لفظه ولم يُفترع من قبله ، وجميع ذلك مما أتممت
بعضه رواية ، وحصلنا بعضه إجازة ، وخرّجنا بعضه تصديقاً وقراءة ،
مستمدين في ذلك ، وفي سائر الأنحاء والمراحي والمطالب والمغازي توفيق
الله سبحانه الذي يهون الشديد ، ويقرب البعيد ، ويذلل الصعب إذا
أُتِيَ ، ويقوم المعوج إذا اتوى ، وما توفيقنا إلا بالله عليه توكلنا وإليه نتيب

(١) أهل العدل هم المعتزلة . سموا أنفسهم بذلك لأنهم قالوا : إن الله تعالى عادل يستحيل
عليه أن يظلم ، فكانوا على ما لم يفعل . وقد نبع هذا أن يقولوا : إن الإنسان هو
الخالق لأفعاله فله حتى يصح أن يثاب عليها أو يعاقب .

١ — فمن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام : « هَذِهِ مَكَّةُ قَدْ رَمْتَكُمْ بِأَفْلَازِ كَبِدِهَا » ، وفي رواية أخرى : « قَدْ أَلْقَتْ إِيَّكُمْ أَفْلَازَ كَبِدِهَا » ، وهذه من أنصع العبارات وأوقع الاستعارات . وقال ذلك عليه الصلاة والسلام : عند خروجه إلى بدر للقتال ، وقد خرج قريش من مكة مُجْلِبة عليه ومُجْلِبة إليه ^(١) ، وكان المسلمون قد ظفروا ببعض فرأطهم ^(٢) ، فأتوا به النبي عليه الصلاة والسلام ، فسأله عن خرج في ذلك الجمع من عليّة قريش ، فقال فلان وفلان ، وعدّد قادتهم وذادتهم ، والوجوة والسادات منهم ، فقال عليه الصلاة والسلام : هذه مكة قد رمتكم بأفلاذ كبدها ، ولهذا الكلام معنيان [أحدهما] أن يكون المراد به أن هؤلاء العدو دين صميم قريش ومحضها ولبائها وسرّها ، كما يقول القائل منهم : فلان قلب في بني فلان لذا كان من صرحائهم ، وفي النّضار من أحسابهم ، فيجوز أن يكون المراد بالكبد هاهنا كالمراد بالقلب هناك لتقارب الشّيثين ، وشرف العضوين ، فيكنى باسم كل واحد منهما عن العاق الكريم ، واللباب الصميم ، والأفلاذ : القطع المتفرقة عن الشيء ، وقلّ ما يستعمل ذلك إلا في الكبد خاصة . قال الشاعر :

تَكْفِيهِ فَلْدَةُ كُبْدَانٍ أَلْمٌ بِهَا من الشّواء وَيَرْوِي شُرْبُهُ الْغَمْرُ ^(٣)

(١) أجلب عليه : توعده بشيء وجمع عليه الموع . وأحلبه : أغاثه على أمره . والأصل الإغانة في الحلب ثم أطلق .

(٢) الفراط : الذين يتقدمون انهم إلى الورد لإصلاح الخوض والدلاء .

(٣) الغمر (بضم ففتح) : قدح صغير أو هو أصغر الأقداح .

[والغنى الآخر] أن يكون المراد بذلك أعيان القوم ورؤسائهم ، والعرايين المتقدمة منهم ، فكانه عليه الصلاة والسلام أقام مكة مقام الحشا التي تجمع هذه الأعضاء الشريفة كالقلب والنياط ، والكبد والفؤاد ، وجعل رجال قريش كشعب الكبد التي تحنو عليها الأضالع ، وتشتمل عليها الجوانح وقايةً لها ، ورפרفةً عليها .

٢ - ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام وَقَدْ نَظَرَ إِلَى أَحَدٍ مُنْصَرَفَهُ مِنْ غَزَاةٍ خَيْبَرَ : « هَذَا جَبَلٌ يُحِبُّنَا وَنُحِبُّهُ » وهذا القول محمول على المجاز لأن الجبل على الحقيقة لا يصح أن يُحِبَّ ولا يُحَبَّ ، إذ محبة الإنسان لغيره إنما هي كناية عن إرادة النفع له ، أو التعظيم المخصص به على ما بيناه في عدة مواضع من كتابينا المشهورين في علوم القرآن ، وكلا الأمرين لا يصح على الجماد : لا التعظيم المخصص به ، ولا النفع العائد عاياه ، فستحيل أن يعظم ، أو يعظم ، أو ينفع ، أو ينفع به ، فالمراد إذاً أن أُحْدَا جَبَلٌ يُحِبُّنَا أَهْلَهُ ، ونحب أهله . وأهله هم أهل المدينة من الأنصار ، أَوْسِيَهُمْ وَخَزَرَجِيَهُمْ وغير خاف جهم النبي عليه الصلاة والسلام وحبهم لهم ، وتعظيمهم له وإعظامه لقدرهم . ألا ترى إلى قوله عليه الصلاة والسلام في كلام طويل : وَلَوْ سَلَكَ الْأَنْصَارُ شِعْبًا ، وسلك الناس شِعْبًا سَلَكَتْ شِعْبَ الْأَنْصَارِ ، ولولا الهجرة لكنت امرأ من الأنصار إلى غير ذلك من الكلام الذي يطول بذكره الكتاب ، وَيَنْقُضُ قَاعِدَتَنَا فِي الْإِخْتِصَارِ ،

ومثل هذا الحديث ما روى عنه عليه الصلاة والسلام في حديث آخر قال : « نَهْرَانِ مُؤْمِنَانِ ، وَنَهْرَانِ كَافِرَانِ . أَمَّا الْمُؤْمِنَانِ : فَالنَّيْلُ ، وَالْفُرَاتُ ، وَأَمَّا الْكَافِرَانِ : فَدِجْلَةُ ، وَنَهْرُ بَلْخِ » . والأولى أن يكون تأويل هذا الخبر إن كان صحيحاً كتأويل الخبر المتقدم ، فكأنه عليه الصلاة والسلام قال أهل هذين النهرين مؤمنون ، وأهل هذين النهرين كفرون ، وتكون هاتان الصفتان جاريتين على هذه الأنهار في وقت مخصوص ، أو على الأغلب من الأحوال في زمان معلوم ، لأن من أهل هذين النهرين المؤمنين والكافر كما أن من أهل ذينك النهرين البر والفاجر ، وقد قيل في ذلك قول آخر لست أرتضيه ، وهو أن يكون إنما جعل النيل والفرات مؤمنين على التشبيه ، والتمثيل لكثرة انتفاع الناس بسقيهما كالانتفاع بالمؤمنين ، وجعل دجلة ، ونهر بلخ كافرين لقلة الانتفاع بهما كقلة الانتفاع بالكافرين ، والقول الأول أخلق بالصواب ، وأشبهه بالمراد

٣ - ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام : « الْمُسْلِمُونَ تَتَكَافَأُ دِمَاؤُهُمْ ، وَيَسْعَى بِدَمَتِهِمْ أَذْنَاهُمْ ، وَيَرُدُّ عَلَيْهِمْ أَقْصَاهُمْ ، وَهُمْ يَدُّ عَلَى مَنْ سِوَاهُمْ ^(١) » فقله عليه الصلاة والسلام ، وهم يد على من سواهم

(١) وثمة الحديث في القائق للزمخشري : يرد مشد على مضغهم ، ومتسريهم على

قاعدم لا يقتل مسلم بكافر ، ولا ذو عهد في عهده .

قال الزمخشري : المشد الذي دوابه شديدة ، والمضغ بحلته . والمتسري الخارج في السرية ، أي لا يفضل في قسمة الانتم المشد على المضغ ، وإذا بعث الإمام سرية وهو خارج إلى بلاد العدو فغنموا شيئاً كان ذلك بينهم وبين العسكر . لا يقتل مسلم بكافر أي بكافر حربى ، وقبل بدمى وإن قتله عمداً ، وهذا مذهب أهل الحجاز ، وذو العهد الحربى يدخل بأمان لا يقتل حتى يرجع إلى مأمنه .

استعارة ومجاز . ولذلك وجهان : [أحدهما] أن يكون شبه المسلمين في التضافر ، والتوازر ، والاجتماع ، والترافد ، باليد الواحدة التي لا يخالف بعضها بعضاً في البسط ، والقبض ، والرفع والخفض ، والإبرام ، والنقض . وقد يسمى أنصار الرجل وأعوانه يداً على طريق الاتساع ، تشبيهاً لهم باليد التي ينتصر بها ويدافع بقوتها . قال الراجز :

أَعْطَى فَأَعْطَانِي يَدًا وَدَارًا وَبَاحَاةً خَوَّهَا عَقَّارًا^(١)
يقول : برأني داراً ، وأحف بي أعواناً ، وأنصاراً .

[والوجه الآخر] أن يكون اليد هاهنا بمعنى القوة فكأنه عليه الصلاة والسلام قال : وهم قوة على من سواهم ، والقوة أحد المعاني التي يعبر عنها باسم اليد ، وقد استقصيت ذلك في كتابي الكبير الموسوم « بمحقق التأويل » وذكرت أن قول القائل : لا أفعل ذلك يد الدهر ، معناه عندي لا أفعل ذلك قوة الدهر ، أي ما دام الدهر قوى الأركان قائم البنيان . فأما الحديث الآخر عنه عليه الصلاة والسلام ، وهو قوله : « عليكم بالجماعة فإن يد الله على الفسْطاط » . فليس المراد باليد فيه كالمراد باليد في الحديث الأول ، بل المراد باليد هاهنا حفظ الله ورعايته كما يقول القائل : مالى في يد فلان إذا أراد أنه حافظ له وأمينه عليه . والفسطاط هاهنا البلد ، ومنه سمي

(١) الباحة : الساحة ، وهي عرصة الدار (ما يتقدمها من فضاء واتساع) . العنار : المناسب من معانيه هنا : متاع البيت ، ونضد : الذي لا يتبذل إلا في الأعياد ونحوها ، يريد أنه أعطاه الدار مفروشة .

فسطاط مصر، فكأنه عليه الصلاة والسلام، أمرهم بلزوم الجماعة في الأمصار ونهاهم عن الانشعاب والافتراق. ولم يرد أن الخارج من المصر خارج عن قبضة الله ومملكته، لكنه خارج عن حفظه ورعايته. وإنما أمرهم بلزوم الأمصار لأنها في الأكثر مواضع الجماعة، وإلا فالأمر على الحقيقة إنما هو بلزوم الجماعة ولو كان أهلها في أكناف الغياض ومطارج البوادي.

٤ — ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام في الخيل: «ظهورها حرزٌ وبطنها كنزٌ» وهذا القول خارج على طريق المجاز لأن بطن الخيل على الحقيقة ليست بكنز. وإنما أراد عليه الصلاة والسلام، أن أصحابها ينتجونها^(١) من الأفلاء^(٢) ما تنمي به أموالهم، وتحسن معه أحوالهم، فهم باستيداع بطونها نطف الفحولة كمن كنز كنزاً إذا أرادته وجده؛ وإذا لجأ إليه دُعم ظهره كما يكون الكانز عند الرجوع إلى كنزه، والتعويل على ما تحت يده. وقوله عليه الصلاة والسلام، وظهورها حرزٌ أوضح من أن نوضحه. والمراد أنها متجدة من المعاطب وملاجة عند النهارب.

٥ — ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام: «في الجنة غرةٌ عبدٌ أو أمةٌ» وفي هذا الكلام مجاز. لأنه عليه الصلاة والسلام، إنما

(١) ينتجونها: يولدونها.

(٢) الأفلاء: جمع فلو، وهو المهر بلغ السنة.

جعل العبد ، أو الأمة غُرّة لأنهما أفضل ما يملكه المالك ، وأخفه ، وأطهره ، وأشهره . ولذلك سمي أيضاً في لسانهم الفرس غُرّة لأنه من أنف ما يملك . ونمثل هذا المعنى أيضاً ما سمّوا الخيل جبهة . وفي الحديث المشهور : ليس في الجبهة ، ولا في النخّة ، ولا في الكُفّة صدقة . والنخّة الرقيق ، ومن قال النخّة بالضم^(١) قال هي البقر العوامل والكُفّة الجمير . وهذا أشهر الأقوال في معنى هذا الحديث قال ابن أحرر :

إِنْ نَحْنُ إِلَّا أَنْاسُ أَهْلِ سَائِمَةٍ وَمَا لَهُمْ دُونَهَا حَرْثٌ وَلَا غُرُرٌ
أى ليس لهم زرع يُعْتَمَد ، ولا خيل تُقْتَد . وقال الآخر :

كُلُّ قَتِيلٍ فِي كُلِّيبٍ غُرَّةٌ حَتَّى يَنْزَالَ الْقَتْلُ آلَ مُرَّةٍ
يقول : كل قتيل تقتله بكليب من غير آل مُرّة عبد لا تقتله بواء^(٢) ، ولا تَرْضَى به كِفَاءً ، وكأن فحوى الكلام أن العبد ، والأمة ، والفرس من أظهر الأسماء المملوكة ، وأدناها على وفارة الثروة ، وفخامة النعمة . لأن غيرها من الأعراض في الأثر لا يشتهر اشتهاؤها ، ولا ينتشر انتشارها .

٦ - ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام : « إِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِعَبْدٍ خَيْرًا عَسَلَهُ . قِيلَ لَهُ يَا رَسُولَ اللَّهِ : وَمَا عَسَلَهُ ؟ قَالَ : يَفْتَحُ لَهُ »

(١) في القاموس : النخّة (مفتوحة) وبالضم : الرقيق والبقر العوامل .

(٢) من قولهم : باء فلان بفلان ، أى قتل به .

بَيْنَ يَدَيْ مَوْتِهِ عَمَلًا صَالِحًا يُرْضَى حَتَّى يَرْضَى عَنْهُ مَنْ حَوْلَهُ^(١) »
وفي هذا الكلام مجازان [أحدهما] : قوله عليه الصلاة والسلام عَسَلَهُ ، وهو
مأخوذ من العسل كما يقول القائل : عَسَلْتُ الطَّعَامَ إذا جعل فيه عسلا ،
وَسَمَّمْتُهُ إذا جعل فيه سمنا ، وَزَيَّنْتُهُ إذا جعل فيه زينا . ومعنى عسله : أى
جعل عمله حلواً يحمده الصالحون ويرضاه المتقون ، فيكون كالشيء المعسول
الذى يسوغ فى اللّهوات ، وَيَلْدُّ عَلَى المذاقات .

[والجواز الآخر] قوله عليه الصلاة والسلام : بين يدي موته ولا يد
لموت على الحقيقة . ولكنها كناية عن الشيء الواقع أمام الشيء المتوقع .
وقد تكلمنا على هذا المعنى فى كتاب مجازات القرآن عند قوله سبحانه فى
البقرة : « فَجَلَّلْنَاهَا نَكَالًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا رَمَّا خَلَفَهَا » . وعند قوله تعالى فى
سبأ : « إِنَّهُ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ » . وذلك كما
تقول : لمن يسأل عن أحد بالعشيرة ، وهو سالك بَطَرِيقًا ، وسائل عن
رفيق : هاهو ذا بين يديك ، أى قد تقدمك ، ولا يقال ذلك إلا فيما إذا كنت
وراءه . وهو أمامك ، لا فيما كنت أمامه وهو وراءك . وكل ذلك إنما
يراد به فى الأكثر تقريب الشيء من الإنسان حتى كأنه لفاف يده وقرب^(٢)

(١) ورواية الفائق للزمخشري ، قال : يفتح ال له عملا صالحا بين يدي موته حتى
يرضى عنه من حوله .

(٢) اللغاية : ما ينف على اليد أو الرجل . القرب فى الأصل مصدر قارب ، ويراد
به ما يقرب من الشيء ، يقال : لو أن لى قرب أحد ذهباً .

تناوله: كما تقول: هذا الشيء أخذ يدي أى ممكن لها، وقريب من تناولها

٧ — ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام: «وَيْلٌ لِّأَقْصَاعِ الْقَوْلِ، وَبِلِّ الْمُصْرَيْنِ». وفي هذا الكلام مجاز واستعارة؛ لأنه عليه الصلاة والسلام، عني به الذين يكثرون استماع الأقوال واختلاف الكلام.. فيكون ذلك ثلماً في دينهم وقادحاً في يقينهم فشبه عليه الصلاة والسلام، آذاهم بالأقماع التي يفرغ فيها ضروب القول إفراغ المائعات. وهذه من أحسن العبارات عن هذا المعنى؛ لأن الآذان هي الطرق التي يوصل منها إلى الصدور، والأقماغ التي يدخل منها على القلوب فهي أبواب موصلة، وطرق مبلّغة، وقد حمل بعض العلماء هذا الحديث على تأويل غير مشبه افحوى اللفظ؛ لأنه قال المراد بذلك الذين تتكرر المواعظ على أسماعهم، وهم مع ذلك مصرّون على المعاصي، وموضعون في طرق المغاوي، وهذا القول، وإن كان سائغاً، فإن الأشبّه بظاهر الكلام أن يكون على ما قدمت القول فيه من ذم من يجعل سمعه مساعاً للأقوال المختلفة، والأنباء المتضادة، ويكون قوله عليه الصلاة والسلام: المصرين تماماً لهذا المعنى المراد، ومباينة في وصف هؤلاء المذمومين بكثرة استماع الأقوال فيكون ذلك من قولهم: أصرّ الفرس أذنيه إذا نصبهما للتوجس؛ لأنه يقال: أصرّ أذنيه، وصرّ بأذنيه. وهذا التأويل لم أعلم أحداً سبقني إليه.

٨ — ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام حين أتاه الفضل

ابن العباس وابن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب يستلانه عن أبيهما
السَّقَايَةَ^(١) فتوا كلا الكلام ، فقال عليه الصلاة والسلام : « أُخْرِجَا
مَا تَصْرَّانِ » وفي هذا القول استعارة لأنه عليه السلام أراد أظهر ما تكتمان
في قلوبكما وصرّحاً بما تلجأ به أنفسكما ، فجعل القلب بمنزلة الوعاء
والكتان بمنزلة الوِكا ، والأمر المكتوم بمنزلة الشيء الموعى . وكل شيء
جمعه فقد صرّته ، ومنه قيل للأسير مصرور إذا جمعت يداه بالغُلّ
وقدماه بالحِجْل .

٩ — ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام في عُمَرَةَ
الْحَذْيِيَّةِ عِنْدَ كَلَامِ جَرَى فِي شَأْنِ قُرَيْشٍ : « فَإِنْ أَتَبَعُونَا أَتَبَعْنَا مِنْهُمْ عُنُقٌ
يَقْطَعُهَا اللَّهُ » ، وفي هذه القول استعارة لأنه عليه الصلاة والسلام شبه من
تبعه منهم في التلاحق والامتداد والجد والاجتهاد بالعنق الواحدة التي
لا تختلف أجزائها ، ولا تتباين أعضاؤها ، فهو أشد لقوتها ، وأوهن
لصدمتها ، وعلى هذا المعنى قول الشاعر ، وأنشدناه شيخنا أبو الفتح عثمان
ابن جني النحوي رحمه الله في حال القراءة عليه :

أُبْلِغُ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَخَا الْعِرَاقِ إِذَا أَتَيْتَا
أَنَّ الْعِرَاقَ وَأَهْلَهُ عُنُقٌ إِلَيْكَ فَهَيْتَ هَيْتًا^(٢)

(١) السقاية من مظاهر الرياسة والتشريف ، وكانت لهاشم بن عبد مناف فولها ،
ثم قام بها بعده بنوه حتى جاء الإسلام . ومعنى السقاية أنهم كانوا يعلثون للحاج
حياضاً من الماء يخلونها بشيء من التمر والزبيب فيشرب الناس منها إذا وردوا
مكة في الموسم .

(٢) هيت مثله الآخر وقد يكسر أوله : بمعنى هلم

وتقول الشاعر: عُنُقٌ إِلَيْكَ مَعْنِيَانِ : [أحدهما] أن يكون على الوجه الذى ذكرناه أولاً من تشبيه الطالبين له ، والقاصدين إليه بالعنق فى التلاحق إلى فِئَانِهِ ، والتسرع إلى لقائه ، [والمعنى الآخر] أن يكون أراد: أهلُ العراق على توقع لوروده وتشوق إلى طلوعه، فهم كأنعق الممتدة نحوه ، وذلك على المتعارف بيننا من قول القائل منا إذا أراد أن يعبر عن انتظاره لوارد أو توقعه لطالع أن يقول : عنقى ممتدة إلى ورود فلان . كما يقول : عيني ممدودة إلى طلوع فلان . وقول الشاعر فى البيت الثانى : « فَهَيَّتَ هَيْئَتَا » يشهد بأن مراده الوجه الأخير من الوجهين لأن فى هذا القول حثاً له على التعجل ، وإزعاجاً إلى التسرع . فأما قول الله سبحانه وتعالى : « فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ » . فقد فسر أيضاً على وجهين أوردناها فى مواضع من كلامنا فى تأويل القرآن . [فأحد الوجهين] أن يكون سبحانه ذكر الأعناق ، ثم رد الذكر على أصحاب الأعناق لأن خضوع الأعناق هو خضوع أصحابها لما لم يكن خضوعهم إلا بها . [والوجه الآخر] أن يكون أراد الجماعات لأنه قد تسمى الجماعة عنقاً على الوجه الذى قدمنا ذكره . يقول القائل : جاءنى عنق من الناس ، أى جماعة فيكون خاضعين صفة للجماعات ، والمعنى فى ذلك ظاهر غير محتاج إلى التأويل . وقد يجوز أن يكون الأعناق هاهنا كناية عن السادات والمتقدمين من القوم . يقال هؤلاء أعناق القوم : أى ساداتهم . كما يقال هؤلاء رؤسهم وعرائنهم .

ذكر ذلك صاحب العين في كتابه . وقال لى أبو حفص عمر بن إبراهيم الكِنَانِي صاحب بن مُجَاهِد ، وقد قرأت عليه القرآن بروايات كثيرة : سمعت أبا بكر بن سُفْيَانَ النُّحْوِي صاحب المَبْرَد يقول : أولى الوجوه بتأويل هذه الآية أن يكون خاضعين مردوداً على الضمير في أعناقهم فكأنه تعالى قال : فضلوا هم لها خاضعين . ويبعد أن يحمل قوله صلى الله عليه وسلم في هذا الخبر : عنق يقطعها الله ، على أنه أراد به الجماعة لأن قوله يقطعها الله بالعنق المعروفة التي هي العضو المخصوص أشبه ، وفي موضع الكلام أحسن ، وإنما جاء بالعنق هاهنا على طريق الاستعارة تشبيهاً للقوم الذين ذكر اتباعهم له بالعنق في الاحتشاد لطلبه والامتداد للعاق به .

١٠ — ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام ، في كتاب من كتبه : « هَذَا كِتَابُ مِنْ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللَّهِ لِعِمَارِ بْنِ كَأْبٍ وَأَخْلَافِهَا مِنْ ظَائِرَةِ الْإِسْلَامِ وَمِنْ غَيْرِهِمْ » وفي هذا الكلام استعارة لأن الظَّارَ في الحقيقة العَطْفُ ، ومنه ظَارُّ الناقة وهو أن يموت ولدها فتطف على البَوِّ^(١) الذي يجعل لها لتدرّ عليه لبنها ، وأصله العطف على الشيء بالأخذ والحمل لا بالاختيار والطوع ، ويبين هذا المعنى قول الكُمَيْتِ الْأَسَدِيِّ :
وَهُمْ رَمُوهَا غَيْرَ ظَارٍّ وَأَشْبَلُوا عَائِيهَا بِأَطْرَافِ انْقَدَا وَتَحَدَّبُوا
أَي عَطَفُوا عَلَيْهَا طَائِعِينَ مُخْتَارِينَ لَا مُجْبَرِينَ مَحْوِينَ ، ثم استعمل بعد

(١) البَوِّ : جلد الحوار يحشى ثماماً أو تداء فيقرَّب من أم الفصيل فتعطف عليه بتدر

ذلك فيمن عطف طائعا كما استعمل فيمن عطف كارها . فكأنه عليه الصلاة والسلام جعل الإسلام يعطف على الدخول فيه : إما طوعاً ومشية ، أو عناداً وخيفة . ومن أمثال العرب الطعنُ يظأُرُ : أى يعطف على السلم والتواهب ، ويحمل على البقيا والتقارب .

١١ — ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام لحادى مطية : « يا أنجشة رقيقاً بالقوارير » . وهذه استعارة عجيبة لأنه عليه الصلاة والسلام شبه النساء فى ضعف النحائر وهن الغرائز بالقوارير الرقيقة التى يوهنها الخفيف ، ويصدعها اللطيف . فنهى عن أن يُسمَّهن ذلك الحادى ما يحرك مواضع الصبوة ، وينقض معاهد العفة . وقد حمل بعض العلماء قوله تعالى : « قَوَارِيرَ مِنْ فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا » . عَلَى أن المراد به غير الزجاج هاهنا . والقارور : فاعول من استقرار الشيء فيه فكأنه قرار للشراب وغيره من المائعات ، فيصلح أن يكون للزجاج ويكون لغير الزجاج . وأما عامة المفسرين فيذهبون إلى أن تلك الآنية الموصوفة من فضة ولكنها تشف شفيف القوارير من الزجاج . فهو أعجز لتصويرها وأعجب لتقديرها إذا كانت جامعة للركة اللطيفة والقوة الحصيفة .

١٢ — ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام ، وقد تذاكر الناس عنده أمر الطاعون وانتشاره فى الأمصار والأرياف ، فقال صلى الله عليه وآله : « فَإِنِّي أَرْجُو أَلَّا يَطْلُعَ إِلَيْنَا نِقَابُهَا » . يعنى نقاب المدينة ، والنقاب : جمع

تَقَبُّ ، وهو الطريق في الجبل . وفي هذا الكلام استعارة حسنة لأنه عليه الصلاة والسلام أقام هذا الداء المسمى بالطاعون في تغلفه إلى البلاد المنيعه ، وذهابه بالأعلاق الكريمة مقام الجيش المغير الذي يوفى على الأنشاز ويهجم على الحدون والديار . يقال : طلع فلان الثنية إذا أوفى عليها وقرع ذروتها . ومن أحسن التمثيل وأوقع التشبيه أن تشبه أسباب الموت وطوارق الدهر بالجيش الهاجم ، والمُقْتَب (١) المصمم الذي تخاف سطوته ، وتُنْكَأُ شوكته ، ولا يُسَدُّ طريقه ، ولا يؤمن طروقه . وقوله عليه السلام : ألا يطلع إلينا نقابها (وهو يريد نقاب المدينة ولم يجر لها ذكر) من انفصاحة العجيبة لأنه أقام علم المخاطبين بها مقام تصريحه بذكرها ، ومثل ذلك قوله سبحانه وتعالى : « وَلَوْ دُخِلَتْ عَائِيهِمْ مِنْ أَقْطَارِهَا » ، والمراد المدينة ، ولم يجر لها ذكر . ولذلك في القرآن نظائر ، وكان شيخنا أبو الفتح النحوي رحمه الله يسمي هذا الجنس شجاعة الفصاحة ، لأن الفصيح لا يكاد يستعمله إلا وفصاحته جريئة الجنان ، غزيرة المواد .

١٣ — ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام : « إِنَّ الْإِسْلَامَ بَدَأُ غَرِيبًا وَسَيَعُودُ غَرِيبًا » ، وهذا الكلام من محاسن الاستعارات وبدائع المجازات ؛ لأنه عليه السلام جعل الإسلام غريباً في أول أمره تشبيهاً بالرجل الغريب الذي قلَّ أنصاره وبعدت دياره ، لأن الإسلام كان على هذه الصفة في أول

(١) المقنب : جماعة الخيل

ظهوره ، ثم استقرت قواعده ، واشتدت معاقده ، وكثرا أعوانه ، وضرب جِرَّانَه . وقوله عليه الصلاة والسلام : « وسيعود غريباً » : أى يعود إلى مثل الحال الأولى فى قلة العاملين بشرائعه والقائمين بوظائفه ، لا أنه والعياذ بالله تَمَجَّى سَمَاتُه ، وتَدْرُسُ آيَاتُه .

١٤ — ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام فى ذكر الخوارج : « يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّينِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ... » الحديث بطوله إلى قوله : قد سبق الفَرْتُ وَالْدَمُ ^(١) . وفى هذا القول مجاز لأنه عليه السلام شبه دخولهم فى الدين وخروجهم منه بسرعة من غير أن يتعلقوا بعقدته أو يعيقوا ^(٢) بطينته ، بالسهم الذى أصاب الرمية ، وهى الطريدة المرمية ، ثم خرج مسرعاً من جسمها ، ولم يعلق بشيء من فرثها ودمها . وذلك من صفات السهم الصائب لأنه لا يكون شديد السرعة إلا بعد أن يكون قوى النزعة .

(١) الحديث كما فى البخارى : حدثنا عبد الله بن محمد حدثنا هشام أخبرنا معمر عن الزهرى عن أبى سلمة عن أبى سعيد قال : « بينا النبى صلى الله عليه وسلم يقسم جاء عبد الله بن ذى الحويرة التيمى فقال أعدل يا رسول الله فقال ويلك !! من يعدل إذا لم أعدل . قال عمر بن الخطاب : دعنى أضرب عنقه قال دعه فإن له أصحاباً يحقر أحدكم صلاته مع صلاته وصيامه مع صيامه يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية ينظر فى قدذه فلا يوجد فيه شيء ثم ينظر فى نصله فلا يوجد فيه شيء ثم ينظر فى رصافه فلا يوجد فيه شيء ثم ينظر فى نضيه فلا يوجد فيه شيء ، قد سبق الفرت والدم . آيتهم رجل إحدى يديه (أو قال ثديه) مثل ثدى المرأة أو قال مثل البضعة) تدرر ، يخرجون على حين فرقة من الناس »

(٢) يقال : ما عانت المرأة ولا لاقى عند زوجها : أى لم تلتصق بقلبه .

١٥ - ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام : «مُضَرُّ صَخْرَةِ اللَّهِ الَّتِي لَا تَنْكُلُ^(١)» . وهذا القول مجاز لأنه عليه السلام جعل مضر، وهي القبيلة المعروفة بمنزلة الصخرة الراسية ، والهَضْبَةُ الثابتة التي لا تُرْجَحُ عن مقرِّها ، ولا تُؤَخَّرُ عن تَجَمُّعِهَا . وهذا معنى قوله عليه السلام : «لا تَنْكُلُ» . وذلك مأخوذ من قولهم : نكلت عن الأمر أنكُل نكولا إذا تأخرت عنه . ومنه قيل للجَمامِ نَكْلٌ لأنه يُؤَخَّرُ به المركوبُ إذا جمح ، ويُجَبَسُ به إذا أنطلق . ولهذا المعنى أيضاً قيل للقيد نِكْلٌ لأنه الخطو ويمنع العَدْرُ ، وإنما أضاف عليه السلام اسم الصخرة إلى الله تعالى ليكون الخم لها في القلوب ، وأجدر لها بالرسوخ

١٦ - ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام : «بُعِثْتُ فِي نَسَمِ السَّاعَةِ إِنْ كَادَتْ لَتَنْسِبُنِي» ، وفي هذا القول استعارة لأنه عليه السلام كنى عن ابتداء الساعة بالنسم ، والنسم والنسيم جميعاً اسم لابتداء الريح ، وهي ضعيفة قبل شدتها ، ومريضة قبل استكمال قوتها ، والنَّسَمُ أيضاً : النفوس ، جمعٌ وَاحِدُهُ نَسَمَةٌ ، وإنما سميت بذلك لأنها في الأصل ضعيفة وإنما يشتد من جسمها بروافد ترفدها ودعائم تسندها . وقد روى هذا الخبر على وجه آخر وهو قوله عليه الصلاة والسلام : «بُعِثْتُ فِي نَفْسِ السَّاعَةِ» . وله معنيان : [أحدهما] أن يكون بعثت في تنفيس الساعة . أى في

(١) نكل عنه : كضرب ونصر وعلم .

إمها لها وتأخرها، من قولهم نفّس فلان عن غريمه إذا أنظره ، وآخر الدّين بعد أن حان قضاؤه ، ووجب اقتضاؤه ، فكأنه عليه الصلاة والسلام قال : بعثت وقد حان قيام الساعة إلا أن الله تعالى نفّسها أى أخرها قليلا فبعثنى فى ذلك النفس [والوجه الآخر] أن يكون جعل للساعة نفّسا كنفس الإنسان . وقال : بعثت فى وقت أحسن فيه بنفسها وقربها كما يحسن الإنسان بنفس الإنسان إذا قرب من شخصه وسمع مجرى نفسه

١٧ — ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام : « الْيَدُ الْعُلْيَا خَيْرٌ مِنَ الْيَدِ السُّفْلَى » وهذا القول مجاز لأنه عليه الصلاة والسلام ، أراد باليد العالية يد المعطى ، وباليد السافلة يد المستعطى ، ولم يرد على الحقيقة أن هناك عالياً وسافلاً ، وصاعداً ، ونازلاً . وإنما أراد أن المعطى فى الرتبة فوق الآخذ لأنه المنيل المفضل والمحسن الجميل . وليس هذا فى معطى الحق ، وإنما هو فى معطى الإقْد ومسترفده ، وليس المراد أنه خير فى الدين ، بل المراد أنه خير فى النفع للسائلين ، وإنما كُنَى عليه الصلاة والسلام عن هاتين الحالتين باليدين ، لأن الأغلب أن يكون بهما الإعطاء والبذل ، وبهما القبض والأخذ .

١٨ — ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام : « إِنَّ هَذِهِ الْأَخْلَاقَ بِيَدِ اللَّهِ فَمَنْ شَاءَ أَنْ يَمْنَحَهُ مِنْهَا خُلُقًا حَسَنًا فَعَلَ » . وذكر اليد هاهنا مجاز ، والمراد أن الأخلاق فى قبضة الله وتحت ملكة الله تعالى

فلما كان في الأكثر ما يقبضه الإنسان ويملكه إنما يقبضه بيده وينقله إلى يده ، خاطب عليه الصلاة والسلام بلسان العرف المتقرر عند المخاطبين وفي لغة السامعين . وقد مضى الكلام على هذا المعنى في عدة مواضع من كتبنا الموضوعة في علوم القرآن ، ولا يحتمل كتابنا هذا أكثر من هذا المقدار

١٩ — ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام ، لأَبِيّ بن كعب وقد أعطاه الطَّفِيلُ بن عمرو الدَّوْشِيُّ قوساً له جزاءً على إقرائه القرآن فقال عليه الصلاة والسلام لأَبِيّ : « تَقَلِّدْهَا شِلْوَةً مِنْ جَهَنَّمَ » وفي هذا القول مجاز لأنه عليه الصلاة والسلام جعل القوس إذا كانت تُكْسِبُ آخذها على الوجه المكروه عذابَ جهنم كأنها شِلْوَةٌ من نار جهنم ، وإِذَا قَالَ : شِلْوَةٌ ، ولم يقل شِلُّوا لأنه حمل على معنى القوس وهي مؤنثة . والشَّلْوُ : العضو . ومنه حديث أمير المؤمنين عليه السلام ، في الأضحية : اتنّى بشلوها الأيمن ، وأصله في لغتهم : البقية القليلة من الشيء . ومن ذلك يقال لبقية الأَكِيلَةِ إذا فَرَسَهَا السبع : شِلِّو . ويقال لبدن القَتِيلِ شِلْوٌ على أحد ثلاثة وجوه :

إما أن يكون مفرداً من رأسه فيكون كالبقية القليلة لأن الرأس هو العضو الأَرَأْسُ ، والعلق الأنفس ، ألا ترى إلى قول الشاعر :

إِذَا قَطَعُوا رَأْسِي فِي الرَّأْسِ أَكْثَرِي وَغُودِرَ عِنْدَ الْمُلتَقَى ثَمَّ سِبَائِي

والوجه الثاني أن يكون إنما سمي بذلك لخروج نفسه وكون الجسم

بعدها وإن كان بتمامه بمنزلة البقية التي قد ذهب أكثرها ،
وقد جوهرها .

والوجه الثالث أن يكون إنما سمي بذلك لأنه بقية أبقته مضارب
السيوف تشبيهاً بالبقية التي أبقته مخالب الأسود . وإنما عظم عليه
الصلاة والسلام الوعيد في هذا الخبر زجراً لهم عن أن يأخذوا
على تعليم القرآن أجراً ، أو يتخذوه مكسباً ومطعماً .

٢٠ - ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام : « أَغْبَطُ النَّاسِ
عِنْدِي مُؤْمِنٌ خَفِيفُ الْحَازِ ذُو حُظٍّ مِنْ صَلَاةٍ ^(١) » . وفي هذا القول
استعارة لأن الحاذ على الحقيقة : أسم لما وقع عليه الذنب من مؤخر
الفخذين . هذا قول الأصمعي . وقال غيره : بل هو لحم باطن الفخذ ، وها
حاذ الفخذين . وقد جاء في كلامهم خفيف الحاذين ، وقد استعملوا ذلك
في الإنسان أيضاً قال الشاعر :

سَيَكْفِيكَ الْحِمَالَةَ مُسْتَمِيتٌ خَفِيفُ الْحَازِ مِنْ أُنْبَاءِ جَرَمٍ

وقال بعضهم : بل هو طريقة المتن من الإنسان ، والموضع الذي
يسمى الحال من الفرس . وهو ما وقع عليه الأبد من ظهره . والقولان

(١) رواية الجامع الصغير « إن أغبط الناس عندي لمؤمن خفيف الحاذ ذو حظ من
الصلاة ، أحسن عبادة ربه وأطاعه في السر وكان عامضاً في الناس لا يشار إليه
بالأصابع ، وكان رزقه كفافاً فصبر على ذلك وعجلت منيته وقات بواكيه
وقل ترائه » .

الأولان أعجب إلى ؛ لأنه عليه الصلاة والسلام ، كَفَى بِخَفَةِ الْحَاذِ هَاهُنَا
عن قلة المال ، أو قلة العيال . ومنه الحديث الآخر عن ابن مسعود :
« لَيَأْتِيَنَّ عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ يَغْبِطُونَ الرَّجُلَ بِخَفَةِ الْحَاذِ كَمَا يَغْبِطُونَهُ بِكَثْرَةِ
المال » . لأن الخفيف الحاذ إذا كان على ما ذكر أولاً في الوجهين الأولين
من قلة لحم باطنى أو ظاهرى المتخذين كان ذلك أسرع لخطوه وأخف
لعدّوه لأن الدنيا بمنزلة المضمار ، والناس فيها بمنزلة الخيل المجراة ، والغاية
هى الآخرة . فكلما كان الواحد منهم أخف نهضاً وامتراقاً كان أسرع
بلوغاً ولحاقاً . ويبيّن ذلك قولُ أمير المؤمنين على عليه السلام ،
فى كلام له : تَخَفَّقُوا تَلَحَّقُوا . وقد ذكرنا ذلك فى كتابنا الموسوم [بتهج
البلاغة] الذى أوردنا فيه مختار جميع كلامه صلى الله عليه وعلى الطاهرين
من أولاده .

وأما القول الثالث الذى ذكرناه عن بعضهم من قوله : إن الحاذ هو
المتن فقد يجوز أن يعبر به أيضاً عن قلة العيال ونزارة المال كما يقولون
فلان خفيف الظهر إذا أرادوا هذا المعنى ، ولأن قلة اللحم على الجملة فى أى
عضو كان من أعضاء الحيوان أعون على خفة نهوضه وسرعة تصرفه
فى أموره .

٢١ — ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام ، وقد ذكره عنده
شريح الحضري : « ذَاكَ رَجُلٌ لَا يَتَوَسَّدُ الْقُرْآنَ » . وهذه من

الاستعارات المعجبية ، والكنايات الغريبة ، وهي تحتل معنيين : أحدهما مدح ، والآخر ذم . فأما المدح فهو أن يكون المراد به أنه لا ينام عن قراءة القرآن بل يقطع ليله بالتهجد به وانتصرف مع تلاوته فيكون القائم بدرسه كالمشتغل به ، والنائم كالمتوسد له كأنه جعله وسادا لحدّه وفراشاً لجنبه . ومما يقوى هذا الوجه ما روى من قوله عليه الصلاة والسلام ، في حديث آخر : « يَا أَهْلَ الْقُرْآنِ لَا تَوَسَّدُوا الْقُرْآنَ وَاتْلُوهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ » .

وأما المعنى الآخر الذى يحتمل الذم فهو أن يكون المراد أنه غير حافظ للقرآن فليس بخازن من خزينته ، ولا وعاء من أوعيته ، فإذا نام لم يكن متوسداً له كما يتوسده من هو ظرف من ظروفه الحاوية له والمشتغلة عليه . ومثل ذلك ما روى عن أبي الدرداء أنه قال لرجل سأله عن طلب العلم : « لَأَنْ تَتَوَسَّدَ الْعِلْمَ خَيْرٌ مِنْ أَنْ تَتَوَسَّدَ الْجَهْلَ » . أراد لأن تنام ومعك العلم خير من أن تنام ومعك الجهل ، فجعل العلم كالفرش المتهجد ، والوساد المتوسد .

٢٢ — ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام ، في كلامه للأَنْصَارِ : « أَنْتُمْ الشُّعَارُ ، وَالنَّاسُ الدُّنَارُ » . وهذا مجاز لأنه عليه الصلاة والسلام أراد أنكم أقرب الناس منى ، وأشدّهم اشتمالاً علىّ ، فأنتم لى كالشعار ، وهو الثوب الذى يلى بدن الإنسان ، والناس الدنار ، لأنهم

أبعد منى وأتم بينهم وبينى ، ومثل ذلك قولهم : فلان من بطانة فلان كناية عن القرب منه ، والاختصاص به تشبيهاً ببطانة الثوب التى تلى الجسد ، وتكون أقرب إلى البدن

٢٣ — ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام : « يَكُونُ قَبْلَ الدَّجَالِ سِنُونُ خَدَّاعَةٍ » ، وهذه استعارة لأنه جاء فى التفسير أن المراد بذلك اتصال الحول وقلة الأمطار فى تلك السنين . يقال : خَدَعَ المَطَرُ إذا قَلَّ ، والأصل فيه قولهم : خَدَعَ الرِّيقُ إذا جَفَّ . قال سُوَيْدُ بْنُ أَبِي كَاهِلٍ :

أَبْيَضُ اللَّوْنِ لَدَيْدُ طَعْمُهُ طَيِّبُ الرِّيقِ إِذِ الرِّيقُ خَدَعَ

وجفوف الرِّيقُ وقلته من أسباب تغيّره وفساده لأنه كلما كثر ماء وكلما طاب . وقيل السنون الخداعة هى التى تَخْدَعُ زَكَاةً^(١) الزرع أى تنقصه من قولهم : دينار خادع ، وهو الذى ينقص من وزنه أو من ذهبه . وقال عليه الصلاة والسلام : « سِنُونُ خَدَّاعَةٍ » . والمطر هو الخادع إلا أن خدع المطر لما كان فيها حَسُنَ إجراء الاسم عليها ، ولهذا نظائر كثيرة فى القرآن قد استقصينا ذكرها فى كتاب المجازات ، وقال بعضهم : بل السنون الخداعة التى يكثر فيها المطر ويقلّ العشب . وذلك مأخوذ من الخديعة ، فكأن هذه السنين يطعم أهلها فى الحصب والإمراع

(١) زكاء الزرع : نموه .

بكثرة مطارها ثم تخاف الخايل^(١) باتصال جديها وإمخالها . والقول الأول أقرب إلى الصواب وأشبه بالمراد

٢٤ — ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام : « تَحَابُّوا بِذِكْرِ اللَّهِ وَرُوحِهِ » ، وهذا القول مجاز لأنه صلى الله عليه وآله أراد بالروح هاهنا القرآن تشبيها له بالروح القائمة بالحيوان المصححة لانتفاع الأبدان ، وهذا من التشبيه الواقع والتمثيل النافع ، لأن انتفاع الناس بالقرآن في رشاد السبيل . ومصالح الدنيا والدين كانتفاع الأبدان بالأرواح في تصريف حركاتها وترتيب إراداتها ، وتصحيح لذاتها وشهواتها . وقد ذكرنا ذلك مشروحا في مواضع من كتابنا في علوم القرآن .

٢٥ — ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام : « قَدْ أَنَاخَتْ بِكُمْ الشُّرُفُ الْجُونُ » . يعنى الفتن المتوقعة . وهذا القول مجاز لأنه عليه الصلاة والسلام شبه الفتن بالنوق المسنات ؛ لجلالة خطبها واستفحال أورها وجعلها جونا ، وهى السود هاهنا ، لظلام منهجها والتباس مخرجها والشُّرُف جمع شارف^(٢) ، وهى الناقة المسنة ، وهم يشبهون الحرب بها قال : الكُمَيْتُ الأَسَدَى يصف حربا :

مبسورة شارفا مضربة محلوها الصاب حين تحتبه^(٣)

(١) الخايل : جمع خيلة ، وهى الظن .

(٢) أُر شارقة ، وتجمعان أيضا على شوارف .

(٣) الصرمة (كمعظمه) الناقة يقطع طليها ليبس الإحليل فلا يخرج اللبن ليكون ذلك أقوى لها .

يقال بُسِرَتِ الناقة وابتسرت إذا حمل عليها الفحل ، ولم تُضَيَّعْ
وقد يجوز أن يكون الفائدة في تشبيه الفتن بالمسنيات من الإبل لأنها
أكره مناظر ، وأقل منافع كما شبهوا الحرب بالمرأة العجوز . فقال :
بعضهم في أبيات .

شمطاء عابسة عقيما بطنها مكروهة للشم والتقيل
وقال بعض العلماء : الشرف هاهنا الفتن التي يستشرفها الناس
لعظمها . والصحيح التأويل الأول ، وقد روى هذا الحديث بلفظ آخر .
رواه بعضهم : الشُّرُقُ الجُؤن بالقاف ، أى أمور عظام تأتى من قبل
المشرق ، وكل ما أتى من ناحية المشرق فهو شارق ، فشارق وشُرُق
كشارف وشُرُف . والقول الأول أصح في النقل وأشبه بطريقة القوم .

٢٦ — ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام ، في يوم حنين لما
رأى مُجْتَدِدَ القوم : « الْآنَ حَمِيَ الْوَطِيسُ » ، وهذه اللفظة الأغلب عليها
أنها من جملة الأمثال من كلامه عليه الصلاة والسلام ، وقد شرطنا ألا
نذكر هاهنا ما تلك حاله إلا أن لها بعض الدخول في باب الاستعارة ،
فذلك رأينا الإيماء إليها والتنبيه عليها ، فقوله عليه الصلاة والسلام :
« الْآنَ حَمِيَ الْوَطِيسُ » ، وهو يعنى حَمَسَ^(١) الحرب وعَظَّمَ الخطبُ ،
مجاز ؛ لأنَّ الوطيس في كلامهم حفيرة تحتفريو قد فيها النار للاشتواء ، وتجمع
على وُطُسٍ ، فإن احتفرت للاحتياز ، فهي إِرَّةٌ وتجمع على إرين ، ولاوطيس

(١) من قولهم : حمس الأمر (كفرح) بمعنى اشتد .

هناك على الحقيقة ، وإنما المراد ما ذكرنا من حرّ القراع وشدة المصاع^(١) والتفاف الأبطال ، واختلاط الرجال ، ومن هناك قالت العرب : أوقدت نار الحرب بين آل فلان وآل فلان ، وقال الله سبحانه مُخْرِجًا لِلْكَلامِ على مطارح لسانهم ومعارف أوضاعهم : « كَلِمًا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ » وتشبيه الحرب بالنار يكون من وجهين : أحدهما لحرّ مواقع السيوف ، وكرب ملابس الدروع ، وحمى المعترك لشدة العراك وكثرة الحركات ؛ والوجه الآخر أن يكون إنما شبهت بالنار لأنها تأكل رجالها ، وتقنى أبطالها كما تأكل النار شعلتها وتحرق حطبها

٢٧ - ومن ذلك ما روى عنه عليه الصلاة والسلام ، أنه قال - والخبر مطعون في سنده - : « تَرَوْنَ رَبَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَمَا تَرَوْنَ الْقَمَرَ نَيْلَةً الْبَدْرُ لَا تَضَامُونَ فِي رُؤْيَيْهِ » ، وفي رواية أخرى : « لَا تَضَارُونَ فِي رُؤْيَيْهِ » . بالتشديد فيهما وفتح التاء ، وعامة المحدثين يقولون : تَضَارُونَ وَتَضَامُونَ بالتخفيف وضم التاء كأنه من الضير والضم : أى لا تختلطون فى مطلقه ، ولا تَتَارُونَ فى رؤيته ، فيضير بعضكم بعضاً ، أو يضم بعضكم بعضاً فى دفعه عن ذلك ، أو الاستئثار به عليه والإدراك له دونه . فأما من روى : تَضَارُونَ وَتَضَامُونَ بفتح التاء والتشديد ، فالضرار هاهنا راجع إلى معنى الضير هناك لأنه من المضارة ، وهى المفاعلة بين الاثنين ، فكأن الضرار وقع بينهما لأجل اختلافهما وتنازعهما ، ومن قال

(١) مصعه بالسيف أو السوط : ضربه به .

لا تَصَافُونَ بالتشديد ، فعنه : إنكم ترون القمر رؤية جليلة لا تحتاجون معها إلى أن ينضمّ بعضكم إلى بعض طلباً لرؤيته واستعانة على مشاهدته ، فهو مأخوذ من الانضمام ، وهو الاجتماع للتقوى على نظر الشيء البعيد أو الخفى الضئيل . وهذا الخبر كما قلنا مطعون في سنده ، ولو صح نقله وسلم أصله لكان مجازاً كغيره من المجازات التي تحتاج إلى أن تحمل على التأويلات الموافقة للعقل . وبعد هذا فهذا الخبر من أخبار الآحاد فيما من شأنه أن يكون معلوماً ، فغير جائز قبوله ، لأن كل واحد من المخبرين يجوز عليه الغلط فيما يخبر به ، ويصح كونه كاذباً في نقله ، ولا يجوز أن يقطع في ديننا على الشيء من وجه يجوز الغلط فيه ، لأننا لا نأمن بالإقدام على اعتقاده من أن يكون جهلاً ، ولأننا من أن يكون إخبارنا عنه كذباً ، وإنما نعمل بأخبار الآحاد في فروع الدين ، وما يصح أن يتبع العمل به غالب الظن .

ومما علقتّه عن قاضى القضاة أبى الحسن عبد الجبار بن أحمد عند بلوغى فى القراءة عليه إلى الكلام فى الرؤية إلى من شرط فى قبول الخبر الواحد أن يكون راويه عدلاً ، وراوى هذا الخبر قيس بن أبى حازم عن جرير بن عبد الله البجليّ ، وكان منحرفاً عن أمير المؤمنين على عليه السلام ، ويقال : إنه كان من الخوارج ، وذلك يقدح فى عدالته ويوجب تهمة فى روايته . وأيضاً فقد كان روى فى عقله قبل موته ، وكان مع ذلك يكثر الرواية فلا يُعلم هل روى هذا الخبر فى الحال التى كان فيها سالم التمييز أو فى الحال التى كان فيها فاسد المعقول ، وكل ذلك يمنع من قبول خبره ،

ويوجب اطراح روايته وأقول أنا : ومن شرط قبول خبر الواحد أيضاً مع ما ذكره قاضي القضاة من اعتبار كون راويه عدلاً ، أن يعزى الخبر المروى من تكثير السلف ، وقد نقل تكثير جماعة من السلف على راوى هذا الخبر منهم العرياض بن سارية السلمى ، وهو من مختصى الصحابة ، روى عنه أنه قال : من قال إن محمداً رأى ربه فقد كذب . وروى أيضاً عن بعض أزواج النبي عليه الصلاة والسلام : أنه ^(١) قالت : من زعم أن محمداً رأى ربه فقد أعظم القرية على الله . وقالت ذلك عند ذهاب بعض الناس إلى أن قوله تعالى : « وَاقْهَرُوا لَهُمْ نَزْلَةً أُخْرَى » . إنما أريد بها رؤية الله سبحانه ، لا رؤية جبرائيل عليه الصلاة والسلام ، كما يقوله أهل العدل ، وأيضاً في هذا الخبر كاف التشبيه لأنه قال : ترون القمر الذى هو في جهة مخصوصة وعلى صفة معلومة ، وإذا كان الأمر كما قلنا لم يكن للخبر ظاهر ^(٢) ، واحتجنا إلى تأويله كما احتجنا إلى ذلك في غيره . وقد يجوز أن نعمله على ما حملنا عليه الآية ، وهى قوله تعالى : « وَجُودٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ إِلَى رَبِّهَا نَاضِرَةٌ » . لأننا نقول إن في الكلام إسقاط مضاف كأنه تعالى قال : إلى ثواب ربها ناظرة ، فكذلك هذا الخبر قد يجوز أن يكون المراد به إنكم ترون أنتم يوم المعاد وما وعد الله به وأوعد من الثواب والعقاب كما

(١) الضمير هنا للشأن والقصة .

(٢) أى ظاهر مقبول لأنه يلزم على ظاهره القول بالتجسيم ، وكقول الله سبحانه وتعالى

متحيزاً في جهة ، وهذا من حيل على الله .

ترون القمر ليلة البدر ، يريد في البيان والظهور والإصحار^(١) للعيون ولو كان هذا الخبر صحيح الأصل واضح النقل لكان عندنا محمولا على العلم لأن إطلاق لفظ الرؤية بمعنى العلم في الكلام مشهور ، والاستشهاد على ذلك كثير . وهذا موضع الجاز الذي يختص ذكره بكتابنا هذا وأما اعتراض المخالفين على هذا التأويل بأن النبي عليه الصلاة والسلام ، أخرج هذا الكلام مخرج البشارة لأصحابه ، ولا يجوز أن يبشرهم بمعنى كان حاصلًا لهم في الدنيا وهو العلم بالله سبحانه ، فهو اعتراض عليل واحتجاج مدخول ، وذلك لأن العلم بالله سبحانه علم استدلال تعترضه الشكوك وتعتوره الشبه والنظون ، ويحتاج العالم في حل عقود تلك الشبه إلى كُلف ومشاق تتعب الخواطر وتُعنى الناظر ، فبشرهم عليه الصلاة والسلام بأن ذلك يزول في الآخرة ، فيكون عليهم بالله سبحانه اضطرابا غير مشوب بكلفة ولا معقود بمشقة . وهذا كقول القائل منا إذا أراد أن يخبر عن شدة تحققه للشيء : أنا أعلم هذا الأمر كما أرى هذه الشمس ، وقوله من بعد لا يضامون في رؤيته أولا يضارون بالتخفيف ، والتشديد على الخلاف الذي قدمنا ذكره مقو للتأويل الذي تأولناه من معنى العلم الذي لا شبهة فيه ولا شك يعتريه ، والصحيح أن يكون الضمير في قوله : لا تضامون في رؤيته راجعا إلى القمر ، لا إلى الله سبحانه

(١) الإصحار: مرادف للبيان والظهور، وهو من قولهم: أصبح فلان إذا خرج إلى الصبحاء لا يستره شيء .

كأنه قال : تعلمون ربكم كما ترون القمر ، لا تضامون في رؤيته : أى في رؤية القمر . وقد يجوز أيضاً أن يكون الضمير راجعاً إلى الله سبحانه ، ويكون بمعنى العلم كأنه قال : تعلمون ربكم كما ترون القمر ، لا تضامون في علمه : أى في علم ربكم .

٢٨ - ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام : « أُنزِلَ الْقُرْآنُ عَلَى سَبْعَةِ أَحْرَفٍ لِكُلِّ آيَةٍ ظَهْرٌ وَبَطْنٌ » ، وهذا القول مجاز ، لأنه لا ظهر للآية ولا بطن على الحقيقة ، وإنما المراد أن لها خفياً وظاهراً وسراً وباطناً ، فالظهر هاهنا بمعنى الظاهر ، والبطن بمعنى الباطن ، وهذا القول ينصرف إلى الآى المتشابهة دون الآيات المحكمة ، لأن التشابهة هي التي لا ظهر لها ، والمحكمة هي التي لا بطن لها . والمتشابهة هي التي يستعمل فيها النظر ويعمل فيها الفكر ، ويتفاضل العلماء في استفتاح مبهمها واستنطاق مُعْجَمِهَا

٢٩ - ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام : « الْخَلِيلُ مَعْقُودٌ بِنَوَاصِيهَا الْخَيْرُ » ، وهذا القول مجاز لأن الخير في الحقيقة ليس يصح أن تعقد به نواصي الخيل ، وإنما المراد أن الخير كثيراً ما يدرك بها ويوصل إليه عليها ، فهي كالوسائل إلى بلوغه ، والأرشية إلى قلبه^(١) فكانه معقود بنواصيها لشدة ملازمته لها ، وكثرة انتهاز فرصه بها ، لأنهم عليها

(١) الأرشية : جمع رشاء ، والقلب : البئر .

يدركون الطوائل ، ويجبون المغام ، ويفوقون الأعداء ، ويبلغون العلياء ،
ومما يقوى ذلك ما روى من تمام هذا الخبر ، وهو قوله عليه الصلاة
والسلام : « الخيل معقودٌ بنواصيها الخيرُ : الأجر والغنيمة إلى يوم القيامة » ،
وفي هذا الكلام حثٌّ على ارتباط الخيل لما في ذلك من الغنم العاجل
والأجر الآجل ؛ فأما الغنم فما يدرك بها من الأسلاب والأثقال ^(١) ،
وأما الأجر فعلى ما يدفع بها من أعداء الإسلام وأشياء الضلال ، وكلا
الأمرين خير تنحوه الطلبات ، وتتعلق به الرغبات .

٣٠ — ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام : « لَا تَسْأَلِ
الْمَرْأَةُ طَلَّاقَ أُخْتِهَا لِتَكْتَفِي مَا فِي إِنْأَتِهَا » ، وفي هذا الكلام استعارة
لأنه عليه الصلاة والسلام أراد أن المرأة لا ينبغي لها أن تطلب طلاق
أختها لتتصل بالزوج الذي كان لها طلباً لأن تخرج حظها إليها ، وتستبدّ
بالنفع عليها ، فتكون كأنها اكتفت ما في إِنْأَتِهَا : أى أُمالت الإِنَاء إلى
نفسها فقلبته لتستفرغ ما فيه وتستأثر عليها به . يقال : كفأت الإِنَاء إذا
كبيته واكتفأته إذا شربت ما فيه أجمع أو أكلت ما فيه أجمع .

٣١ — ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام : « تُنْكَحُ
الْمَرْأَةُ لِمِيسَمِهَا » ، وهذا القول مجاز لأنه لا ميسم هناك . ولا يبعد أن يكون
هذا الكلام داخلاً في حيز الحقيقة ، ويكون الميسم مفعلاً من الوسامة .
يقال : وَسَمَتِ الْمَرْأَةُ وَسَامَةً ، وإنها ذات مِيسَمٍ وجمال وهذا القول

(١) الأسلاب : جمع سلب ، وهو ما يسلب . الأثقال : جمع ثقل ، وهو الغنيمة .

مجاز ، لأنه لا ميسم هناك على الحقيقة ، وإنما أراد عليه الصلاة والسلام أنها تنكح لأثر الجمال الظاهر عليها ، وجعل الجمال ميسماً لها مبالغة في وصفه بالعلوق بها والظهور على وجهها كما يشهر أثر الميسم الذي تكوى به الإبل فلا يذهب إلا بذهاب الجلد الذي أثر فيه وعلق به ويقولون في أمثالهم ، يبقى بقاء الوسم إذا وصفوا الأمر بالخلود والدوام والبقاء على الأيام .

٣٢ — ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام : « الْإِسْلَامُ يَجِبُ مَا قَبْلَهُ » ، وهذا القول مجاز ، لأن أصل الجب هو اختزال السنام من أصله ، فكأنه عليه الصلاة والسلام جعل الإسلام مستأصلاً لكل ذنب تقدم الإنسان قبله حتى لا يدع له جناية يحذر عاقبتها ، ولا معرفة يسوء الحديث عنها بل يُعَنَّى على ما تقدم من السوءات ، ويحثو على ما ظهر من العورات .

٣٣ — ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام في وصيته لأمرأء الجيش الذي بعثه إلى مؤتة : « وَتَجِدُونَ آخِرِينَ لِلشَّيْطَانِ فِي رُءُوسِهِمْ مَفَاحِصَ فَاقْلَعُوها بِالسَّيْفِ ^(١) » ، وهذه من الاستعارات العجيبة ،

(١) في الفائق للزمخشري : عن أبي بكر رضى الله عنه عن النبي أنه قال في وصيته ليزيد بن أبي سفيان حين وجهه إلى الشام : إنك ستجد قوما قد فحسوا رؤوسهم فاضرب بالسيف ما فحسوا عنه ، وستجد قوما في الصوامع قد عهم وما أعملوا له أنفسهم .

قال الزمخشري : يعنى الشامسة الذين حلقوا رؤوسهم وإنما نهى عنه قتل الرهبان لأنه يؤمن شرهم على المسلمين لمجانبتهم القتال والإغاة عليه .

والمجازات اللطيفة . وذلك أن من كلام العرب أن يقول القائل منهم إذا أراد أن يصف إنساناً بشدة الارتكاس في غيه والارتكاض في عنان بغيه قد فرّخ^(١) الشيطان في رأسه أو قد عَشَّش الشيطان في قلبه ، فذهب عليه الصلاة والسلام إلى ذلك الوضع وبنى على ذلك الأصل ، فقال للشيطان في رؤوسهم مفاحص والمفحص^(٢) في الأصل الموضع الذي تبحثه القطاة لتجثم عليه أو لتبيض فيه . وإنما قيل له مفحص لأنها لا تجثم فيه إلا بعد أن تفحص التراب عنه توطئة لجثمتها وتمهيداً لجسمها . ويقال بما بقي لفلان مفحص قطاة إذا لم يبق له ربع يؤويه ولا جرى^(٣) يكون فيه . فيحتمل قوله عليه الصلاة والسلام : للشيطان في رؤوسهم مفاحص أحد معنيين [أحدهما] أن يكون أراد أن الشيطان قد بدأ يختدعهم ، ويفرّهم ويستهوهم ويضلهم ، ولم يبلغ بعد من ذلك غايته ، ولا استوعب خديعته كالقطاة التي بدأت باتخاذ المفحص لتبيض به وترتب فراخها فيه [والمعنى الآخر] أن يكون أراد أن الشيطان قد استوطن رؤوسهم ، فجعلها له مقبلاً ، ومبركاً ، وملعباً ، ومُتَمَكِّكاً^(٤) . كما تتخذ القطاة مفحصاً لتأوى إليه وتستجنّ فيه .

(١) يقال أفرخت الطائرة وفرّخت : صار لها فرخ .

(٢) المفحص (كمفعد) مجثم (كمجلس) الطائر .

(٣) الجريئة (كالخطيئة) بيت يصطاد فيه .

(٤) متمك (متمرغ) .

٣٤ - ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام : « أَجِدُ نَفْسَ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ الْيَمَنِ » ، وهذا القول مجاز ، لأنه عليه الصلاة والسلام أراد أن غوث الله ونصره يأتيان من قبل اليمن يعنى القبيلة لا البنية ، والقبيلة هم الأنصار الذين نفّس الله بهم خناق الدين ، وكشف بأيديهم كرب المؤمنين ، ومن كلامهم : أنت فى نفسى من أمرى : أى فى متسع طويل ومضطرب عريض . ويقول القائل : اللهم نفّس عني ، أى فرج كربى ، واكشف همى . ومما يقوى هذا التأويل الحديثان المرويان عنه عليه الصلاة والسلام فى مثل هذا المعنى ، وأحدهما قوله عليه الصلاة والسلام : « لَا تَسُبُّوا الرِّيحَ فَإِنَّهَا مِنْ نَفْسِ الرَّحْمَنِ » . يريد أنه تعالى يفرج بها الكروب ويطرد بها الجدوب . والحديث الآخر قوله عليه الصلاة والسلام : « الرِّيحُ مِنْ رُوحِ اللَّهِ » . فقوله عليه الصلاة والسلام من روح الله كقوله : من نفس الرحمن ، والمعنيان متقاربان .

٣٥ - ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام : « الْحُمَّى رَائِدُ الْمَوْتِ ، وَهِيَ سِجْنُ اللَّهِ فِي الْأَرْضِ يَحْبِسُ بِهَا عَبْدَهُ إِذَا شَاءَ وَيُرْسِلُهُ إِذَا شَاءَ » ، وفى هذا الكلام استعارتان عجبتان . إحداها قوله عليه الصلاة والسلام : الحمى رائد الموت . تشبيهاً لها برائد الحى الذى يتقدمهم فيرتادهم مساقط السحاب ومنابت الأعشاب . فيكون ارتجاعهم على خبره ، واستنابتهم إلى نظره . ومنه الحديث « الرائد لا يكذب أهله » فكأنه عليه الصلاة والسلام جعل الحمى مقدمة للموت وطليلة للحتف .

والاستعارة الأخرى قوله عليه الصلاة والسلام ، وهي سجن الله في الأرض
يحبس بها عبده إذا شاء ويرسله إذا شاء . فكأنه عليه الصلاة والسلام
شبهها بالسجن من حيث منعت صاحبها من التصرف والاضطراب وغفلته
عن قضاء الآراب ، فكان أسيرها حتى تطلقه ورقيقها حتى تعتقه ، ومثلُ
ذلك الحديث الآخر وهو قوله عليه الصلاة والسلام : « الدنيا سجنُ
للمؤمن وجنةُ الكافر » لأنه عليه الصلاة والسلام شبه الدنيا بالسجن للمؤمن
من حيث قصر فيها خطوه عن اللذات ، وكبح لجامه عن الشهوات ،
وحصر نفسه عن التسرع إلى ما تدعو إليه الدواعي الخزية ، والأهواء
المردية . وكان زمام نفسه وخطامها وهاديها وإمامها ، خائفاً خوف الجاني
المرعوب ، والطريد المطلوب ، في عصبية عملوا للمعاد وفطنوا للزاد ، تحسبهم
من طول سجودهم أمواتاً ، ومن طول قيامهم نباتاً .

ومن أحسن ما سمعته في هذا المعنى أن بعض الزهاد المنقطعين طلبَ
القوت من بعض الراغبين المفتونين ، فقبل له في ذلك . فقال : أنا مسجون
وهو مطلق وهل يأكل المسجون إلا من يد المطلق ، وشبهها عليه الصلاة
والسلام بالجنة للكافر من حيث استوعب فيها شهواته واستفرغ لذاته ،
وقضى فيها الأوطار ، وتمجل المسار ، واستهواه عاجل خطامها . ورَيَّقَ
جِمامها . فتسنى العاقبة واستهان بالمغبة فكان ميت الأحياء كما كان المؤمن
حي الأموات . ولى في بعض كتبي فصل هو لائق بهذا الوضع . وذلك
قولي : فالحمد لله الذي جعل أهل طاعته أحياء في مماتهم كما جعل أهل
معصيته أمواتاً في حياتهم .

٣٦ - ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام : « كَيْفَ أَنْتُمْ إِذَا مَرَجَ الدِّينُ » في حديث طويل . وفي هذا القول مجاز لأن أصل قولهم مَرَجَ الشيء ^(١) مأخوذ من القلق ، والاضطراب ، والجحى ، والذهاب . يقال : مَرَجَ الخاتم في الإصبع إذا قلق وتحرك ، فكأنه عليه الصلاة والسلام وصف دين الناس على ذلك المهد بالتكفي ^(٢) والمرجان ، واضطراب الأركان . والمراد بذلك اضطراب أهل الدين فيه ، وقلة ثباتهم عليه قال الشاعر :

مَرَجَ الدِّينُ فَأَعْدَدْتُ لَهُ مُشْرِفَ الْخَارِكِ مَحْبُوكَ الْكَيْدِ ^(٣)
ومثل هذا الحديث الحديث الآخر وهو قوله عليه الصلاة والسلام لعبدالله ابن عمرو : « كَيْفَ أَنْتَ إِذَا بَقِيَتْ فِي حُثَالَةٍ مِنَ النَّاسِ قَدْ مَرَجَتْ عُيُودُهُمْ وَأَمَانَتُهُمْ » : أى لا يستقروا على عهد ، ولا يقيمون على عقد ، يصفهم عليه الصلاة والسلام بقلة الثبات ، وكثرة الانتقالات . والمراد أصحاب الأمانات والمهود ، وإن كان ظاهر اللفظ يتناولها وصريح الكلام يتعلق بها . وذلك أيضا من جملة المجازات المقصود بيانها في هذا الكتاب . والحالة الردىء من كل شيء . وأصله ما يتهاقت من قُشَارَةِ التمر والشعير .

(١) المَرَجَ (بالتحريك) القلق والاضطراب ، وإنما يسكن مع المَرَجَ .
(٢) التكفي : هو التكفيء ، من قولهم : تنكأ في مشيته أى يتعثر ، فسهلت الهزلة لجاء مصدرة كمصدر فعل المعتل .
(٣) الخارك : عظم مشرف من جانبي الكاهل . والمراد بمشرف الخارك القوس .

يقال : حُثَالَة وَجُفَالَة وَحُفَالَة وَجُثَالَة^(١) . فشبه عليه الصلاة والسلام بذلك الرُّذَال الباقين من الخيار الزاهبين . وهذا أيضاً داخل في باب المجاز

٣٧ — ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام وقد خرج ذات يوم مُخْتَضِعاً أحد ابنيه الحسن أو الحسين عليهما السلام : « لَتُجَبَّتُونَ وَتُبْعَلُونَ وَتُجَهَّلُونَ وَإِنَّكُمْ لِمَنْ رِيحَانِ اللَّهِ وَإِنْ آخِرَ وَطْأَةٍ وَطِئَهَا اللَّهُ بِوَجْهِ » . في كلام طويل ؛ وفي هذا الكلام مجازان [أحدهما] قوله عليه الصلاة والسلام « وإِنَّكُمْ لِمَنْ رِيحَانِ اللَّهِ » . وللريحان هاهنا وجهان : أحدهما يكون الكلام به استعارة . والآخر يكون به حقيقة . فأما الوجه الذي يكون به حقيقة ، فهو أن يكون الريحان بمعنى الرزق . وقد قيل إنه الرزق الذي يؤكل خصوصاً . ومن كلامهم : خرجنا نطلب ريحان الله : أي رزق الله ، والولد من رزق الله سبحانه ، فصار الكلام حقيقة . وأما الوجه الذي يكون به استعارة ، فهو أن يكون الريحان هاهنا يريد به النبت المخصوص الذي يستطاب للشمم ، فجعل الولد بمنزلته لأنه يستلذَّ شَمِّ رِيحِهِ وَيُسْتَرْوَحُ إِلَى اسْتِنْشَاقِ عَرَفِهِ . وعادة الناس معروفة في شَمِّ الولد وضمه . وأصل الريحان مأخوذ من الشيء الذي يستروح إليه ويتنفس من الكُرْب به . وعلى ذلك قول الشاعر :

سَلَامُ الْإِلَهِ وَرِيحَانُهُ وَرَحْمَتُهُ وَسَمَاءُ دَرَرِ

(١) الحفالة: ما أخذته من رأس الغدير بالمفرقة وماقاه السيل . الحفالة : الحثالة ومارق من عكر الدهن ورغوة اللبن . الجثالة : ما تنثر من ورق الشجر .

وأصله من الواو كأنه مأخوذ من الروح . والمجاز الآخر قوله عليه الصلاة والسلام : « وإن آخر وطأة وطئها الله بوج » ، وأصح ما قاله العلماء في تأويل هذا الخبر أن فيه مضافا محذوفا تقديره أن يكون ، وإن آخر وطأة وطئها جند الله أو رسول الله بوج ، ووجُّ جبل بالطائف . وهذا كما تقوله في قوله تعالى : « وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ » . أى يؤذون أولياء الله وأصفياء الله ، لأن حقيقة الأذى لا يصح على الله سبحانه ، والمراد بذكر الوطأة بوج أن آخر إيقاع الله سبحانه بالمشركين على أيدي المؤمنين بوج ، ولذلك قال سُفيان بن عُيينة : آخر غزاة غزاها رسول الله صلى الله عليه وآله ، الطائف . يريد أنه لم يغز بعدها غزاة فيها قتال لأن مخرجه عليه الصلاة والسلام إلى تبوك من بعد لم يلق فيه كيذا ولم يقابل أحداً . والعرب تكنى عن الوقعة أو الحال الشديدة بالوطأة يقولون : وطئ آل فلان آل فلان في يوم كذا وفي مكان كذا وطئاً شديداً . ومنه ما حكى عن أبي سُفيان بن حرب أنه خرج يوماً بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم إلى ظاهر المدينة ، فلما نظر إلى أحد قال : لقد وطئنا محمداً وأصحابه هاهنا وطئاً شديداً . ومن ذلك قول النبي عليه الصلاة والسلام : « اللَّهُمَّ أَشَدُّ وَطْأَتِكَ عَلَى مُضَرَ » . أى أصبهم بالشدائد وافرعهم بالقوارع ، ومنه قول الشاعر :

وَوَطِئْتَنَّا وَطْئًا عَلَى حَنْقٍ وَطْأَ الْمُقَيَّدُ نَابِتَ الْهَرَمِ^(١)

(١) افرم : نبت وشجير ، أو البقلة الحنقاء .

وإنما قال المقيد لأن وطأه أشدّ واعتماده أثقل . وقال الآخر :

* وَطِئْنَا تَمِيًّا وَطَآءَ الْمُتَشَاغِلِ * ، وقوله عليه الصلاة والسلام في أول الحديث : « إِنَّكُمْ لَتُجَبَّنُونَ وَتُبْخَلُونَ وَتُجْهَلُونَ » ، يريد به أنكم لتُجَبَّنُ الناسُ آباءكم وتُبْخَلُهم وتُجْهَلُهم . فأضاف ^(١) هذه الأحوال إلى الأبناء إذ كانوا شبيهاً للآباء ، وهذا أيضاً مجاز ثالث في الخبر الذي كلامنا عليه .

٣٨ - ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام : « لَوْ يَعْلَمُونَ مَا يَكُونُ فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ مِنَ الْجُوعِ الْأَغْبَرِ ، وَمِنَ الْمَوْتِ الْأَحْمَرِ » . وهاتان الاستعارتان من أحسن الاستعارات ، لأن الجوع أبداً إنما كان يلحق العرب في اللأواء والأزمات والسنين المجدبات ، وتلك السنون تسمى غبرا لا غبرار آفاقها من قلة الأمطار ، وأراضيها من عدم النبات والأعشاب ، ويقولون : هذه حَجَجٌ غُبْرٌ إذا كانت كذلك ، ألا ترى إلى قول الشاعر :

أَغْرَئُ بَارِي الرِّيحِ فِي كُلِّ شَتْوَةٍ إِذَا أَغْبَرَ أَقْدَامُ الرِّجَالِ مِنَ الْمَخْلِ

وقيل عام الرّمادة ^(٢) لهذا المعنى على أحد القولين ، والقول الآخر : أنه إنما سمي بذلك لهلاك الناس فيه مأخوذ من الرّمْد وهو الهلاك . قال الشاعر :

(١) جرى المؤلف على ضبط الأفعال الثلاثة في الحديث بالبناء للفاعل ، والذي في نهاية الأثر أنها مبنية للمفعول .

(٢) عام الرّمادة في أيام عمر بن الخطّاب رضى الله عنه هلك فيه الناس والأموال وآخر فيه عمر الصدقة فلم يأخذها من الناس تحفيفاً عنهم .

صَبَّتُ عَلَيْهِمْ حَاصِي فَتَرَ كُتْمُهُمْ كِبَاضِرَامٍ عَادٍ حِينَ جَلَّهَا الرَّمْدُ
أَيُّ الْهَلَاكِ .

والاستعارة الأخرى قوله عليه الصلاة والسلام : والموت الأحمر ،
وهذه طريقة للعرب في وصف اليوم العَمَّاس^(١) ، واشتداد البأس بالحمرة .
فكما يقولون : يوم أحمر ، كذلك يقولون : موت أحمر . قال الشاعر في
صفة الأسد :

إِذَا عَلَتْ أَظْفَارُهُ فِي فَرِيْسَةٍ رَأَى الْمَوْتَ فِي عَيْنِيهِ أَحْمَرَ أَسْوَدًا
وقد يجوز أن يكونوا إنما وصفوا يوم الحرب بالحمرة لاجتماع أَرْضِهِ وَسِلَاحِهِ
بِأَسَابِي^(٢) النَّجِيمِ ، وَالْعَلَقِ الصَّبِيبِ لَكثْرَةِ الْجِرَاحِ الَّتِي يَحْمَرُّ مِنْ نَضْحِهَا
مَعَارِفُ الْأَبْدَانِ وَسَرَابِيلُ الْأَقْرَانِ ، وَإِذَا سَاغَ هَذَا فِي صِفَةِ الْيَوْمِ سَاغَ
مِثْلُهُ فِي صِفَةِ الْمَوْتِ .

٣٩ - ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام لأزواجه :
« أَمْرُكُمْ لِحَاقًا بِي أَطْوَلُكُمْ يَدًا » ، والحديث أنهم لما سمعن
منه صلى الله عليه وعلى آله هذا القول جعلن يَتَذَارَعْنَ يَنْظُرْنَ أَيَّهِنَّ أَطْوَلُ يَدًا
إِلَى أَنْ تُوَفِّيَتْ زَيْنَبُ بِنْتُ جَحْشٍ بْنِ رَبَابٍ^(٣) الْأَسَدِيَّ أَوَّلًا مِنْ تُوَفِّيَ

(١) العَمَّاس (كسحاب) : اليوم الشديد الأسود المكفهر .

(٢) أسابى الدماء : طرائفها . الواحدة إسبابة .

(٣) رباب (كشداد) : من أسماء الرجال . أما الرباب (بالتخفيف كسحاب) فهو
السحاب الأبيض ، وبه تسمى النساء .

منهن ، وكانت كثيرة المعروف ، فعلمن حينئذٍ أنه عليه الصلاة والسلام إنما أراد بطول اليد كثرة البرّ وبذل الوفر . وكنايته عليه الصلاة والسلام عن هذا المعنى بطول اليد مجاز واتساع ، لأن الأغلب أن يكون ما يعطيه الإنسان غيره من الرشد والبرّ أن يعطيه ذلك بيده فسمى النّيل باسم اليد إذ كان في الأكثر إنما يكون مدفوعاً بها ومحتازاً عليها . وقد أشرنا إلى هذا المعنى فيما تقدم . ومثل ذلك قول أمير المؤمنين عليّ عليه السلام : من يُعْطِ باليد القصيرة يُعْطَ باليد الطويلة ، ومعنى هذا القول أن من يَبْذُل خيراً الدنيا يحجزه الله خير الآخرة ، وكفى عليه السلام عما يبذل من نفع الدنيا باليد القصيرة لقلته في جنب نفع الآخرة لأن ذلك زائل ماض وهذا مقيم باق . وقد ذكرنا ذلك في كتابنا الموسوم بنهج البلاغة ، وقد جمعوا اليد التي هي الجارحة على أيدي وأياد^(١) ، وهو شاذ فيها كما جمعوا اليد التي هي العطية على أياد وأييد وهو شاذ فيها ، وقد جاء أيضاً في جمعها يُدَيّ^(٢) أنشدنا شيخنا أبو الفتح عثمان بن جني ، وأبو الحسن علي ابن عيسى الرّبعي ، وأظنه من أبيات الكتاب^(٣) :

وَلَنْ أَذْكُرَ النُّعْمَانَ إِلَّا بِصَالِحٍ فَإِنَّ لَهُ عِنْدِي يُدَيًّا وَأَنْصَا

(١) الإشارة بالضمير إلى الجمع الثاني وهو أياد ، وكذلك الحال في الجمعين بعده

(٢) يدى : مثلثة الأول .

(٣) يريد بالكتاب كتاب سيبويه (وكان إذا أطلق اسم الكتاب انصرف إليه) والمراد أن البيت من شواهد .

٤٠ — ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام : « مَاتَ حَتَفَ أَنفَهُ ^(١) » . وذلك مجاز لأنه جعل الحنف لأنفه خاصاً وهو في الحقيقة له عاماً . لأن الميت على فراشه من غير أن يعجله القتل إنما يتنفس شيئاً فشيئاً حتى ينقضى ذمأؤه وتفتى حَوْبَاؤُهُ ، فخص عليه الصلاة والسلام الأنف بذلك لأنه جهة لخروج النَّفْس وحلول الموت . ولا يكاد يقال ذلك في سائر الميئات حتى تكون الميتة ذات مهلة . وتكون النفس غير معجلة ، فلا يستعمل ذلك في الميتة بالفرق والهدم وجميع كَفْجَاءَةِ الموت ، وإنما يستعمل في العلة المطاولة ، والمَيِّتَةُ الْمُطَاوِلَةُ . روى عن أمير المؤمنين على عليه السلام أنه قال : ما سمعت كلمة عربية من العرب إلا وقد سمعتها من رسول الله صلى الله عليه وآله ، وسمعته يقول : مات حَتَفَ أَنفَهُ وما سمعتها من عربي قبله .

٤١ — ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام : « إِيَّاكُمْ وَخَضِرَاءَ الدِّمَنِ » ، ولهذا القول تعلق بباب الجواز ، وللعلماء في تأويله قولان : أحدهما أنه عليه الصلاة والسلام نهى عن نكاح المرأة على ظاهر الحسن ، وهي

(١) الحنف : الهلاك ، وعليه تكون الكلمة في الحديث منصوبة على أنها مفعول مطلق إذ هي مصدر مرادف للموت ، وفي وجود فعل للحنف ، أو عدم وجوده كلام .

وكان للعرب وهم يرون به أن الميت على فراشه من غير قتل ولا غرق ولا نحوهما تخرج روحه من أنفه ، وكانوا يعتقدون أن الجريح تخرج روحه من جراحاته .

في الملبت السوء أو في البيت السوء . فوجه المجاز من هذا القول أنه عليه الصلاة والسلام شبه المرأة الحسنة بالروضة الخضرة لجمال ظاهرها ، وشبه منبتها السوء بالدمنة لقباحة باطنها ، والدمنة : هي الأبعاد المجتمعة تركبها السَّوَافِي ويعلوها الهَابِي^(١) . فإذا أصابها المطر أنبت نباتاً خضراً يروق منظره ويسوء مخبره ، فنهى عليه الصلاة والسلام عن نكاح المرأة إذا كانت مغموضة في نفسها ، أو مطعوناً عليها في نسبها ، لأن أعراق السوء تنزع إلى ولدها وتضرب في نسلها . قال الشاعر :

وَأَذْرَكْنَهُ خَالَاتُهُ فَنَحَلْنَاهُ أَلَا إِنَّ عِرْقَ السُّوءِ لَا بُدَّ مُدْرِكُ

والقول الآخر أن يكون عليه الصلاة والسلام ، إنما نهى في الحقيقة عن تعارض النفاق وتغاير الأخلاق ، وأن يتلقى الرجل أخاه بالظاهر الجميل ، وينطوى على الباطن الذميم ، أو يخدعه بحلاوة اللسان ، ومن خلفها مرارة الجنان . وإلى هذا المعنى ذهب الشاعر في قوله :

وَقَدْ يَنْبُتُ الْمَرْعَى عَلَى دِمَنِ الثَّرَى

وَتَبْقَى حَزَازَاتُ النُّفُوسِ كَمَا هِيَ

كأنه أراد إنا وإن لقيناكم بظاهر الطلاقة والبشر ، فإننا نضمر لكم على باطن الغش والغمر^(٢) ، ومثل هذا قول الآخر :

(١) السوافي : الرياح . الهابي : تراب القبر ، والمراد به هنا مطلق التراب ، مغموضة : معيبة .

(٢) المر (بالتحريك ويكسر) : الحقد

وَفِينَا وَإِنْ قِيلَ اصْطَلَحْنَا تَصَاغُنْ

كما طَرَّ أُوْبَارُ الْجِرَابِ عَلَى النَّشْرِ^(١)

وقال أهل العربية : النشر أن ينبت وبر البعير وتحتسه داء العر ، وهو الجرب ، فيرى كأن ظاهره سليم وباطنه سقيم

٤٢ — ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام : « الأنصار كَرِشِي وَعَيْبَتِي » ، وفي هذا القول مجازان : [أحدهما] قوله عليه الصلاة والسلام : كَرِشِي . ويحتمل ذلك معنيين : [أحدهما] أن يكون أراد عليه الصلاة والسلام أنهم مادتني التي أقوى بها ، وأفرع إليها كما تفرع ذوات الاجترار إلى أكراشها في اقتزاع الجرة منها والاعتماد عند فقد المرعى عليها . فأراد عليه الصلاة والسلام أن الأنصار رحمة الله عليهم يمدونه بأنفسهم ، ويكون معولاً في السراء والضراء عليهم . و [المعنى الآخر] أن يكون المراد أن الأنصار أهل وعيالي وحامتي^(٢) وجماعتي ، والكشر اسم للجماعة . قال الشاعر :

وَسَيِّئَا بَنَاتٍ قَيْصَرَ قَسْرًا وَاسْتَبَحْنَا كَرًا كِرًا وَكُرُوشًا

أي جماعات . وقال أبو زيد : الكشر أسم من أسماء الأصل كالسنخ ، والجذم وما في معناها ، ويقول القائل لفلان : كرش منشورة إذا أراد أنه ذو كثرة من العيال وعدد من الأولاد ، ومعنى منشورة أنهم متفرقون متشعبون لأن الكرش مجتمعة ، وهؤلاء مع شبههم بها كالشعب المتفرقة

(١) النشر : الجرب .

(٢) الحامة : الخاصة ، ومن معانيها أيضاً العامة ، ولكنه لا يناسب المقام .

وإنما شبه العيال والأولاد بالكركش لأنها في الأنعام مستقرٌ لأعلافها
ومَغِيض لما يصل إلى أجوافها ، وكذلك عيال الرجل وولده إليهم تنصرف
مكاسبه وعليهم تُنفق خزائنه .

والجواز الآخر قوله عليه الصلاة والسلام : وعييتي ، وأراد أنهم موضع
ثقتي ومستودع ثقتي ومكان سري ولجأ^(١) ظهري ، كالعيبة التي يودعها
الإنسان نقائس ذخره ، وكرائم وفره ، ويكون ما استودعها قوةً يظهره ،
وعُدّة لدهره . وقد ذكر الواقدي في كتاب المغازي هذا الكلام في جملة
خطبة النبي التي خطب بها قبل وفاته بزيادة في ألفاظه . فقال : قال
صلى الله عليه وآله : « أَلَا إِنَّ الْأَنْصَارَ عَيْبَتِي الَّتِي آوَى إِلَيْهَا وَنَعَلِي الَّتِي
أَطَا بِهَا وَكَرِشِي الَّتِي آكَل فِيهَا » . وهاهنا زيادة مجاز لم تكن هناك .
وهو قوله عليه الصلاة والسلام : ونعلي التي أطا بها . ولهذا القول وجهان :
[أحدهما] أن يكون شبههم بالنعل التي تقي القدم نَكَتَ الظَّرَاب ، وَوَحَرَ
الشُّبَاك^(٢) ، وما في معنى ذلك . فأراد أنهم تقوية ضدّ الأعداء واشتداد
اللأواء . والوجه الآخر أن يكون أراد أنهم جنوده التي يطا بها البلاد ،
ويغلب الأضداد . وتقول العرب : داس آل فلان آل فلان ، ووَطِىْ

(١) اللجأ : المقل ، والملاذ كاللجأ .

(٢) النكت : الطعن ، ورجل نكات : طعان . الظراب : جمع ظرب (ككتف)

وهو ما تأ من الحجارة وحدة طرفه .

الشباك : نبت ولعل له شوكا يؤذى .

بنو فلان بنى فلان إذا كانوا الغالبين لهم والعالين عليهم . ومن ذلك ما حكى عن أبي سفيان بن حرب أنه قال وقد مر بأحد : لقد دُسنا هاهنا محمداً وأصحابه دوسة منكراً ، ويروى وطئنا .

٤٣ - ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام « لحكيم بن حزام بن خويلد بعد إسلامه وقد ألحف في سؤاله صلى الله عليه وآله لما قسم غنائم هوازن : يا حكيمُ إن هذا المال خضرةٌ حُلوةٌ فمن أخذه بسَخَاوَةٍ نفسٍ بُورِكَ لَهُ فِيهِ ومن أخذه بإِشْرَافٍ ^(١) نفسٍ لم يُبَارَكْ لَهُ فِيهِ ^(٢) » .

في كلام أكثر من هذا ، فقوله عليه الصلاة والسلام : « إن هذا المال خضرة حلوة » مجاز لأنه شبه حلاوة المال في القلوب بحلاوة الثمرة الطيبة في الأفواه ، فكما أن هذه الثمرة الحلوة تشرف النفس إليها ويكثر التمتع لها ، فكذلك الأموال الدائرة تلهج النفس لها ويكثر النزوع إليها . وفي قوله عليه الصلاة والسلام : « خضرة حلوة » سرٌّ لطيف . وهو أنه شبه المال بالثمر التي حسن منظرها وطاب مخبرها ، وليس كل ثمرة ما كولة كذلك صفتها لأن في النابتات والثمار ما يحسن ظاهره ويقبح باطنه ، ومنها ما تقبح ظواهره وتحسن مخبره . فجعل عليه الصلاة والسلام المال من قسم النابتات التي تروق في العيون وتحلو في الأفواه والقلوب ، والمال

(١) الإشراف : التطلع والتشوف .

(٢) بقية الحديث في البخارى ، وكان كالذى يأكل ولا يشبع واليد العليا خير من اليد السفلى .

على الحقيقة بهذه الصفة لأن العميون تعلّقه ، والتلوب تتمّه . ومما يشبه ذلك قوله عليه الصلاة والسلام « مَنْ خُضِرَ لَهُ فِي شَيْءٍ لَزِمَهُ » ^(١) والمراد من اعتاد الانتفاع بشيء علق به وتوكل عليه . فكانه شبه تلويح الأمر بنفسه ، وإبداءه بالخير المرجو من جهته بالخضرة الطالعة إذا أذنت بالثمرة اليانعة .

﴿ — ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام : « الصَّدَقَةُ عَنْ ظَهْرِ غِنًى » ، وهذا القول مجاز . لأن المراد بذلك أن المتصدق إنما يجب عليه الصدقة إذا كانت له قوّة من غنى . والظهر هاهنا عبارة عن القوة فكان المال للغنى بمنزلة الظهر الذي عليه اعتماده وإليه سنده ومن ذلك قولهم : فلان ظهر فلان إذا كان يتقوى به ويلجأ في الحوادث إليه ، وقد جاء في السير أن المسلمين كانوا عند حفر الخندق بالمدينة يرتجزون بجُعِيل ابن سُراقَة الضُّمَرِيُّ ويقولون :

سَمَاءُ مِنْ بَعْدِ جُعِيلٍ عَمْرًا . وَكَانَ لِلْبَائِسِ يَوْمًا ظَهْرًا

وكان النبي عليه الصلاة والسلام يقول معهم : عَمْرًا وَظَهْرًا ولا يقول باقي الشعر . وكان جُعِيل بن سُراقَة يعمل معهم ويقول مثل قولهم ويضحك إليهم ، فعلموا أنه لا يسوءه ارتجائهم به وكان النبي عليه الصلاة والسلام قد سماه

(١) روى في النهاية هذا الحديث هكذا « من خضر له في شيء فليزمه » وقد فسرته هناك بما يخالف تفسير المؤلف هنا . قال : خضر له أي بورك له فيه ورزق منه ، وحقيقته أن تجعل حاله خضراء .

عمرًا ، واسمه الأظهر جُعِيل . ويقال جُعال . وكان رجلاً صالحاً من قدماء المهاجرين ومن البَدْرِين والذين شهدوا المشاهد كلها مع النبي صلى الله عليه وآله . وكان له مع ذلك اختصاص بخدمته وملازمة لمُعْزِلِه . وكان من فقراء الصحابة لما قسم النبي صلى الله عليه وآله ، غنائم حُنين ، لم يعط الأنصار منها شيئاً ولا كثيراً من المهاجرين وفرقها في قريش والمؤتفة قلوبهم ليثبتوا على الإسلام ويؤمن منهم الفساد ، وكان جُعِيل بن سُرَاقَة ممن حُرِمَ العطية فكلم سعد بن أبي وقاص النبي عليه الصلاة والسلام في شأنه وقال : يا رسول الله تحرم جُعَيْلا مع ما تعلمه من خَلْتِه ، ومع ماله من حرمة وتعطى عُيَيْنَة بن حِصْنٍ والأقرع بن حابس وفلانا وفلانا . فقال عليه الصلاة والسلام : « أَمَا وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ كَجُعَيْلِ بْنِ سُرَاقَة خَيْرٌ مِنْ طِلَاعٍ ^(١) الْأَرْضِ مِثْلَ عُيَيْنَة وَالْأقرع وَلَكِنِّي تَأْلَفْتُهُمَا لِبُسْلَاهُمَا وَوَكَلْتُ جُعَيْلَ بْنَ سُرَاقَة إِلَى إِسْلَامِهِ » . ومما في هذا المعنى أيضاً قول القائل : أعطيت فلانا كذا عن ظَهْرٍ يَدِ أَيْ عَنْ امْتِنَاعٍ ^(٢) وَقُوَّةٍ وَلَمْ أُعْطِهِ عَنْ خِيفَةٍ وَذَلَّةٍ . وهذا المعنى ضدّ قوله سبحانه حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ . فَكَأَنَّ خَلَعَ لَفْظَ الظَّهْرِ مِنَ الْكَلَامِ غَيْرُ الْمَعْنَى . والمراد بذلك هاهنا على الأظهر من التأويلات التي ذكرناها في كتاب مجازات القرآن أن يكون حتى يعطوا الجزية عن قهر وذلة وخيفة ورقبة . فهو تقيض قول

(١) طلاع المعنى (ككتاب) : ملوّه .

(٢) امتناع : من قولهم امتنع فلان على عدوه إذا قوى عليه فلم يستطع النيل منه

القائل : أعطيته عن ظهر يد أى عن اختيار ومشئته واستظهار قوة .

٤٥ — ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام : « اللَّهُمَّ إِذَا

أَحْمَدُكَ عَلَى الْعِرْقِ السَّاكِنِ ^(١) وَاللَّيْلِ النَّائِمِ » ، ووصف الليل بالنوم مجاز لأن النوم إنما يكون فيه لأمته ، ولكنه لما كان مطية للنوم

وظرفاله حسن أن يوصف به ويضاف إليه ، وعلى هذا قول جرير :

لَقَدْ لُمْتَنَا يَا أُمَّ غَيْلَانَ فِي الشَّرَى وَنِمْتِ وَمَا لَيْلُ الْمَطَى بِنَائِمِ

٤٦ — ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام : « مَنْ أَكَلَ مِنْ

هَاتَيْنِ الْبَقْلَتَيْنِ ^(٢) فَلَا يَقْرُبَنَّ مَسْجِدَنَا مَنْ كَانَ آكِلَهُمَا لَا يَدْفُلِيْمَتُهُمَا طَبَخًا »

وهذا القول مجاز لأن الإمامة على الحقيقة لا تلحق إلا ذا حياة ، وإنما المراد

فليستخرج ما فيهما من القوة التي عنها تكون شدة الرائحة المكروهة ،

بالطبخ تشبيهاً بالميت الذي لا يبلغ إلى مفارقة الحياة إلا بعد بلوغ قوته

منقطعها وتفرق الموت مجتمعها . وفي رواية أخرى فليُمِثُّهُمَا ^(٣) طَبَخًا بِالنَّاءِ

أى فليطبخهما حتى تنفتتا فتمثا .

٤٧ — ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام : « الْمُؤْمِنُ مِرَآةُ

أَخِيهِ » ، وفي رواية أخرى : « مِرَآةُ أَخِيهِ الْمُؤْمِنِ يَرَى فِيهِ حُسْنَهُ وَقُبْحَهُ »

وهذا القول مجاز واستعارة . والمراد أن المؤمن الناصح لأخيه المؤمن يبصره

مواقع رشده ، ويطلعه على خفايا عيبه . فيكون كالمرآة له ينظر فيها

(١) المراد بالعرق الساكن : الخلو من الجراحات وسائر الأمراض لأن العرق لا يسكن

نفضه عن الاضطراب الشديد ، ولا يرقأ دمه إلا في حالة السلامة .

(٢) يعنى النوم والكراث .

(٣) مات الشيء : لينه .

محاسنه : فيستحسنها ويزداد منها ، ويرى مساويه فيستقبحها وينصرف عنها .

٤٨ - ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام : « الْيَمِينُ الْفَاجِرَةُ تُدْعِي الدِّيَارَ بِلَاقِعٍ » ، وهذا القول مجاز لأن اليمين الفاجرة على الحقيقة لا تخرب الديار ولا تعق الآثار ، وإنما المراد أن الله سبحانه إذا أقدم الخالف على اليمين الفاجرة استهانة بها واستغفراً بالعقوبة المرصدة عليها قطع تعالى دابره وأخرب منازلها ورداه رداء خزيه وقنعه قناع بفيه .

٤٩ - ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام في حديث يختص بصلاة الجمعة : « تُصَلَّى فِي خَلَائِمِ الْبِلَادِ » ، وهذا الكلام مجاز ، وخلائم البلاد عبارة عن نواحيها وأطرافها والمداخل إليها فكأنه عليه الصلاة والسلام شبه تلك الأطراف المفضية إلى الأوساط بالخلائم التي هي الطرق إلى الأحشاء والأجواف .

بسم الله الرحمن الرحيم^(١)

٥٠ - ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام : « إِنِّي نُمِسْتُ بِحُجَزِكُمْ^(٢) هَلُمُّوا عَنِ النَّارِ وَتَغْلِبُونَنِي تَقَاحُمُونَ^(٣) فِيهَا تَقَاحُمُ الْفَرَاشِ وَالْجَنَادِبِ^(٤) وَأَوْشَكُ أَنْ أُرْسَلَ حُجَزَكُمْ » ، وفي هذا الكلام مجاز

(١) اعتاد المؤلف في كتابه هذا أن يبسط بعد كل مرحلة ، ولم يكن ينظر في ذلك إلى عدد الأحاديث ، ولكن لما كان يراعى في ذلك بدء التكراريس .

(٢) الهجزة : مقعد الازار .

(٣) غم في الأمر (كنصر) : رمى بنفسه فيه ، وتقاحون محذوف التاء أصله تقاحون : أي تترامون .

(٤) الجنادب : جمع جندب وكدرهم : الجراد .

وتوسع . ذلك أن المراد به أنه عليه الصلاة والسلام يبائع في زجر أمته عن
التفحم في المعاصي والارتكاس^(١) في المضال والمغاوى بشكائهم المنع وخزائهم
الزُدْع . فشبه ذلك عليه الصلاة والسلام بإمساك الرجل بحُجْزَة صاحبه
إذا كاد أن يسقط في مهواة أو يرتكس في مغواة : لِيَتَمَسَّكَ بِإِمْسَاكِهِ
وَيُنْجُو بَعْدَ إِشْفَاقِهِ . فلما شبه إحدى الحالتين بالأخرى أجرى عليها
الاسم على سبيل المجاز وطريق الاتساع . وحسن أن يقول عليه الصلاة
والسلام : إِنِّي أَخَذْتُ بِحُجْرَتِكُمْ مِنَ النَّارِ ، ومراده عن الأعمال المؤدية إلى دخول
النار : لأن السبب للشيء جار مجرى نفس الشيء . ومما يبين أن المراد
ذلك أنهم لم يكونوا في حال سماعهم لهذا الخطاب متهافتين في النار وإنما
كانوا في الأعمال التي يستحقون بها عذاب النار . ومما يشبه هذا الخبر ما روى
من قوله عليه الصلاة والسلام : « يَخْرُجُ مِنَ النَّارِ قَوْمٌ بَعْدَ مَا امْتَحَشُوا^(٢)
وصاروا نُحْمًا^(٣) وَنَحْمًا^(٤) » ، فمعنى هذا الكلام عندنا^(٥) أنه يخرج من
استحقاق النار بالتوبة قوم هذه صفتهم ، وهذا على طريق المجاز أي أنهم
بأعمالهم المؤدية إلى دخول النار كمن أحرق بضررها وصار من نُحْمِهَا ومعنى

(١) الارتكاس : الوقوع .

(٢) امتحش : احترق ، والمحش : احتراق الجلد وظهور العظم . وبرى
امتحشوا (بالبناء للمفعول) من قولهم : محشته النار (كمنع) : أي حرقه .

(٣) النحم (كصرد) : الفحم ، والواحدة حممة

(٤) قوله عندنا : أي الشيعة لأن المؤلف منهم .

امتحنوا: أحرقوا ، والمرجئة^(١) يحملون هذا الخبر على ظاهره ولا يفزعون إلى تأويله .

ومعنى هلموا عن النار: أى ارجعوا إلى طاعة الله سبحانه التى هى الأمان من العذاب وجانبوا معاصيه التى هى الطريق إلى العقاب ومعنى تغلبونى تقاؤون فيها أى أننى مع كثرة الزجر لكم والإعذار إليكم تنفلتون وتنازعون إلى المقتبحات كما يتهاوت الفراش فى الشهاب والذباب فى الشراب . ومعنى وأوشك أن أرسل حجركم: أى أوشك أن يطرقنى طارق الموت فتفقدون نهى لكم عن المماصى ، وأخذى بكم عن طرق المغاوى ، فجعل ذلك عليه الصلاة والسلام بمنزلة إرسال حجركم ، وإلقاء أزمته . وهذا مجاز ثان .

٥١ — ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام للحم بن جثامة اللبثى فى قتله عامر بن الأضبط الأشجعى وهو مسلم: « أَقْتَلْتَهُ فى غُرَّةِ الإسلامِ » ، وهذه استعارة . وأراد عليه الصلاة والسلام بغُرَّةِ الإسلام أوله ، تشبيهاً بغرة الفرس التى هى أول ما يستقبلها منه المستقبل ويراها المتأمل . ولها أيضاً يشتهر^(٢) شينه وتيمن^(٣) صورته، ويقولون هذا غرة

(١) المرجئة: فرقة من الفرق الإسلامية تخرجت من إبداء رأى فى الأمور التى حدثت بعد رسول الله من رأى فى الدين والسياسة . فهم يرجئون هذه الأمور إلى يوم الدين ليكون الحكم فيها لله .

(٢) يقول إن الفرس إذا كان أغر اشتهر من بين الخيل بهذه النقرة ، فإذا كان بينها عرف فكان ذلك أظهر لميوبة إن كانت فيه عيوب . كما أن الغرة فى الفرس جمال يزين صورته عامة فى نظر رائيه .

(٣) يمين (كظم وجعل وكرم وعنى) (بالبناء للمجهول) صار ذا يمين أى بركة .

الشهر : أى أوله لأنه أول عَدَّه ومبدأ مدخله . ويقولون : فلان غُرَّة قومه إذا كان المنظور إليه منهم ، والمَعُول عليه من بينهم .

٥٢ — ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام في مثل ضربه لقريش يطول الكتاب بذكره : « وَيَقْطَعُ النَّاسُ فِي آثَارِهِمْ حَتَّى بَقِيَتْ عَجْزُ مِنَ النَّاسِ عَظِيمَةٌ » ، وهذه استعارة لأن المراد بالعَجْز هاهنا مآخير الناس وعقائيلهم ^(١) تشبيها بعجز الناقة أو غيرها من الدواب ، لأن أول ما يتحرك للسير هاديها وعنقها ثم يتبعه رِدْفُها وعَجْزُها . فسمى القوم الذين يتأخرون في السير أعجازاً كما سمي المتقدمون أعناقاً يقال قد طلعت أعناق القوم : أى أوائلهم ومتقدموهم ، وجاءت أعجازهم : أى أواخرهم ومتشبطوهم . وعلى هذا سُموا مقدّمى القوم في الوجاهة والمنزلة أعناقاً ورء وسأ . وقد أشرنا إلى ذلك فيما تقدم . وقد يجوز أن يكون الحديث المروى : « يَجِيءُ الْمُؤَدَّيُونَ أَطُولُ النَّاسِ أَعْنَاقاً يَوْمَ الْقِيَامَةِ » : من هذا أيضاً . يريد أنهم يوافون يوم القيامة أوجه الناس وجوها ، ورؤساء . فيكون قولنا أطول هاهنا من الطُول ^(٢) لا الطُول ، ولا بد أن يكون المراد بالناس هاهنا الخصوص دون العموم كأنهم يكونون في القيامة أوجه من الناس الذين هم كالنظراء لهم في الطبقة معهم لأنهم لا يجوز أن يكونوا يومئذٍ أعظم وجاهة من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين .

(١) العقائيل : بقايا العلة والمداوة والعشق ، والمراد هنا مطلق البقية ، والفرد عبقولة أو عقبول .

(٢) الطول (بالفتح) : الفضل .

٥٣ — ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام لعثمان بن مظعون رحمه الله لما أراد الاختصاص والسياسة : « خِصَّاءُ أُمَّتِي الصَّيَّامُ » ، وهذا القول مجاز لأنه عليه الصلاة والسلام أراد أن الصيام يُميت الشهوات ويشغل عن اللذات ، كما أن الخِصَّاء في الأكثر يكسر النَّزْوَة ويقطع الشهوة . ومما يؤكد ذلك ، الخبرُ الآخرُ المروى عنه عليه الصلاة والسلام قال : « من استطاع منكم الباه فليتزوج ومن لم يستطع فليَصُمْ فإن الصوم وجاء » وَالْوَجَاءُ الْخِصَّاءُ . وسمعت شيخنا أبا بكر محمد بن موسى الخوارزمي عفا الله عنه يقول في أثناء قراءتي عليه وقد اعترض ذكرُ الخلاف في وجوب النكاح : يمكن الاستدلال بهذا الخبر على أن النكاح غير واجب خلافاً لداود فإنه يقول إنه واجب على الرجل مرة في عمره ، قال وموضع الاستدلال منه أنه عليه الصلاة والسلام نقل النكاح إلى الصوم وجعل الصوم بدلاً منه والأبدال حكمها حكم المبدلات ، فلو كان الأصل واجباً كان بدله كذلك كالتيمم والماء ، وأبدال الكفارات مثلها ، فلما كان الصوم الذي هو بدل من النكاح غير واجب دل على أن المبدل أيضاً وهو النكاح غير واجب .

٥٤ — ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام لأُمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام : « إِنَّ لَكَ بَيْتًا وَإِنَّكَ لَذُو قَرَنِيهَا » ، وهذه استعارة لأن المراد إنك ذو قرني الأمة ، فكأنه عليه السلام قال وإنك رأس هذه الأمة ، لأن الرأس هو ذو القرنين ، لأن القرنين إنما يكونان

فيه ويظهران عليه ، وهذا الخبر على هذا التأويل من الأخبار الدالة على أن أمير المؤمنين عليه السلام أفضل الناس بعد رسول الله صلى الله عليه وآله ، إذ كان رأس أمته ورئيس أسرته . ومثل قوله عليه الصلاة والسلام لذو قرنيها في أن المراد به الأمة وإن لم يجز لها ذكر قوله تعالى : « حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ » ، وقوله سبحانه : « وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمْ مِنْ أَقْطَارِهَا » ، في أن المراد الشمس والمدينة وإن لم يجز لهما ذكر . وقد قال بعضهم المراد بهذا الخبر أنك في هذه الأمة كذى القرنين في أمته ، وعلى هذا التأويل أيضاً لابد من تسليم الرئاسة له على كافهم ، لأن ذا القرنين كان مستتبعا ذمة الملوك كلهم والعالي بالقدرة والبسط على جماعتهم . هذا إن كان ذو القرنين هو الإسكندر الرومي على ما يقوله بعضهم ، وإن كان اسم نبي من الأنبياء على ما يقوله الآخرون فموضع الاحتجاج بالفضل أيضاً موجود لأن ذلك النبي في دهره كان أفضل أمته وخيار أهل دعوته . وقد روى عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال وقد ذكر ذو القرنين فقال : دعا قومه إلى عبادة الله فضربوه على قرنيه ضربتين وإن فيكم مثله فترى أنه عليه السلام أراد بهذا القول نفسه : أى أنا أدعو إلى اتباع الحق وسأضرب على رأسى ضربتين تكون فيهما منيتى فأكون كذى القرنين . وقد يجوز أن يكون النبي عليه الصلاة والسلام أراد بقوله : وإنك لذو قرنيها هذا المعنى والله أعلم . وقال بعضهم : إنه عليه الصلاة والسلام لما ذكر في أول الكلام الجنة قال : وإنك لذو قرنيها ، يريد

قرني الجنة : أى طرفيها ، فكأنه وصفه ببلوغ غايات المتأين فيها ، وفي هذا القول بُعد .

وحكى عن ثعلب أنه سئل عن هذا الحديث ، فقال أراد عليه الصلاة والسلام إنك لذوجليها يعنى الحسن والحسين عليهما السلام . قال : ويجوز أن يكون قوله ذو قرنيها يريد به طرفي الأمة : أى أنت في أولها ، والمهدي من ولدك في آخرها . قال ويجوز أن يكون ذلك من قوله : عَصْرَتُ الْفَرَسَ قرناً أو قرنين : أى استخرجت عرقه بالجري مرة أو مرتين ، فكأنه عليه الصلاة والسلام ذواقباس العلم الظاهر واستخراج العلم الباطن . والاعتماد على ما قدمنا ذكره من التأويل الأول وهو من استنباطي .

٥٥ — ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام : « أَخَافُ عَلَيْكُمْ إِذَا صُبَّتِ الدُّنْيَا عَلَيْكُمْ صَبًّا » ، وهذه استعارة لأنه عليه الصلاة والسلام أراد إذا غمرتكم الدنيا بمنافعها وعمتكم بفوائدها وعوائدها ، فشبّه كثرة ذلك بالويل الغزير المنصب على الإنسان في أنه يبله بدفعاته ويغمره من جميع جهاته . ومثل ذلك قولهم : انغمس فلان في الدنيا انغماساً : إذا كثرت التباسه لها وعظم أخذها منها تشبيهاً لها بغمرة الماء إذا خاضها الخائض أو غمس فيها الغامس .

٥٦ — ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام : « كُلُّ عَيْنٍ زَارِيَةٌ » ، وهذه استعارة لأنه عليه الصلاة والسلام لم يرد حقيقة الزنا ،^(١)

(١) الزنا : متصور ومعمد .

المذموم وإنما أراد أن كل عين لا يد أن تكون لها طمحة إلى حسن طرحة إلى أرب . وإن كان ذو التقوى يكتب نفسه بالشكيم ويعرك شهوته عرك الأديم ، ولا يكون نظره إلا قلة ، ولا تتبع النظرة النظرة كما قال عليه الصلاة والسلام : وقد قال الشاعر :

نظرت إليها بالمحصب من متى ولي نظرت لولا التخرج عارم^(١)

فوصف النظر بالعرام في هذا الشعر كوصف العين بالزنا في هذا الخبر فأما الحديث الآخر ، وهو قوله عليه الصلاة والسلام : « القسطنطينيا الزانية » ، فالمراد به الزاني أهلها ، وذلك كما جاء في التنزيل من ذكر القرى مثل قوله تعالى : « وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً ، ... وَقَرْيَةٍ كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً » ، أى أهلها ظالمون وأهلها آمنتون . وذلك في القرآن كثير .

٥٧ — ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام « لا يلقى الله عبد لم يشرك بالله شيئاً ولم يقتل بدم حرام إلا دخل من أى أبواب الجنة شاء » فتقوله عليه الصلاة والسلام : « ولم يقتل بدم حرام » مجاز لأنه أراد لم يصب دماً حراماً ؛ ومن قولهم : ما نديت من فلان بشيء : أى لم أصب منه شيئاً ، فجعل عليه الصلاة والسلام الذى يسفك الدم متدياً به ، وإن كان لم يباشر سفكه بنفسه لأن الأغلب فيمن يتولى سفك الدم مباشرة أن يصيبه منه بلل ، ويشهد عليه أثر . وعلى هذا قول الشاعر :

(١) عرك الأديم : دلكه . (٢) المحصب . موضع رمى الجمار منى

تَبَرَّأَ مِنْ دَمِ الْقَتِيلِ وَبَرَّهَ وَقَدْ عَلِقَتْ دَمَ الْقَتِيلِ إِزَارُهَا^(١)

ولم يكن هناك على الحقيقة أثر دم علق الإزار ، وإنما أخرجه الشاعر على الوجه الذي ذكرناه . فكأنه جل القاتل وإن لم يظهر عليه شاهد الدم كمن ظهرت عليه شواهد الناطقة ودلائله القاطعة لقوة الأمارات التي تشهد بفعله وتعصب الأمر به ، وهذا المعنى أيضاً أراد جرير بقوله :

وَقَلْتُ نَصَاحَةً لِبْنِي عَدِيٍّ ثِيَابَكُمْ وَنَضَحَ دَمَ الْقَتِيلِ

فكأنه خاطب قومه ونهأهم عن أن ينفوا موقف الغنة وينزلوا منزل التهمة ليتبرءوا من دم قتيل اتهموا بنفسه وقرءوا بقتله .

٥٨ - ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام : « مَنْ فَعَلَ كَذَا

وكذا فقد أختَطَرَ من النار بِحِطَّارٍ » . وهذا القول مجاز ، والمراد أن من فعل ذلك فقد احتجز من النار بحاجز ، والحِطَّار : الحائط المستدير على الشيء ، فجعل عليه الصلاة والسلام التباعد عن الفعلة التي توجب دخول النار كمن ضرب بينه وبينها سياجاً وأغلق عليه رِثَاجاً ، والحِطَّار والحظيرة بمعنى واحد . وهو حِطَّار بفتح الحاء^(٢) والجمع أحظرة كما يقال دِوَار والجمع أدورة^(٣)

(١) هذا الشعر لأبي ذؤيب . يقول : تبرأ من دم القتل وتخرج ودم القتل في ثوبها . وكانوا إذا قتل رجل رجلاً قالوا : دم فلان في ثوب فلان أي هو قتله والإزار في البيت الملحفة ، يذكر ويؤث . والبيت في الأصل هكذا .

تبرء من دم القتل وبره فد علق دم القتل إزارها فهو محرف مكسور الوزن كما ترى .

(٢) في القاموس المحيط : والحِطَّار (ككتاب) : الحائط ويفتح .

(٣) دِوَار (بكسر الدال) أحد جموع دار كما في لسان العرب .

٥٩ - ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام : « اغْتَرَبُوا
لَا تُضَوُّوا »^(١) ، وهذه استعارة ، والمراد انكحوا في الغرائب ولا تنكحوا
في القرائب لأنهم يقولون الغرائب أنجب ، والضَّوَى : ضئولة الجسم ودقته ،
ويقال : أضوت المرأة إذا أتت بولد ضاوٍ^(٢) كما يقال أذكرت إذا أتت
بولد ذكر ، وكانوا يعتقدون أن القرية تضوى كأن القرية تُدعى : أى
تأتى بالولد داهية ، وقال الشاعر :

فَتَى لَمْ تَلِدْهُ بِنْتُ عَمِّ قَرِيبَةٍ فَتَضَوَّى وَقَدْ يَضَوَّى رَدِيدُ الْقَرَائِبِ
وقال الآخر :

وَأَتْرَكَ بِنْتُ الْعَمِّ وَهِيَ قَرِيبَةٌ مَخَافَةً أَنْ تُضَوَّى عَلَى سَلِيلِي
وقوله عليه الصلاة والسلام : اغتربوا - عبارة عن هذا المعنى من أحسن
العبارات لأنه جعل التباعد عن المنكح في العشيرة والبيت والذهب به
إلى غير السُّنْخِ^(٣) والأصل بمنزلة الرجل المِغْتَرِبِ الَّذِي يُوطِنُ^(٤) غَيْرَ

(١) في النهاية ولا تضووا بواو العطف .

(٢) تدل عبارة القاموس المحيط والأساس والمصباح والمختار ، على أنه يقال ولد
ضاوٍ على وزن فاعول . فأما ما ذكره هنا من قوله : أضوت المرأة إذا
أتت بولد ضاوٍ فهو يوافق عبارة النهاية في قوله : لا تضووا لأناتوا بأولاد
ضاوين أى ضعفاء جمع ضاو . كما يوافق عبارة لسان العرب الذي أجاز أن يقال
ضاو على وزن فاعٍ وضاوٍ على وزن فاعول ، وإن كان الذى يشم من
عبارة أن الضاو (بالتخفيف) الهزيل مطلقا ، وأن الضاو (بالشد)
المولود هكذا .

(٣) السنخ : الأصل .

(٤) يقال وطن المكان يطنه وأوطنه يوطنه بمعنى اتخذ وطنا

وطنه ويسكن غير سكنه .

٦٠ - ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام : « خَيْرُ الْمَالِ عَيْنٌ سَاهِرَةٌ لِعَيْنِ نَائِمَةٍ » ، وهذه استعارة لأن المراد بذلك عين الماء الجارية التي لا ينقطع جريانها ليلاً كما لا ينقطع نهراً ، فسمّاها ساهرة لهذا المعنى لأنها في ليالها دائبة وعين صاحبها نائمة ، ونقّط السهر في هذا الكلام أحسن ما جعل بهذا المعنى متلبساً وصُـبَّ عليها ملبساً .

٦١ - ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام : « كُلُّ هَوًى شَاطِنٌ فِي النَّارِ » ، وهذا مجاز لأنه وصف الهوى بالشاطون وهو البعد ، وأراد به تباعد صاحبه عن الرشد ، وتراميه إلى الغي . وقال أبو عبيدة : الشاطنُ ههنا المعوجُّ عن الحق ، والهوى على الحقيقة ليس بجسم فيوصف بالقرب والبعد والزوال واللبث . وسمى الشيطان شيطانا لأنه شَطَنَ عن أمر ربه أو أبعد في مذاهب غيه . ومنه قيل نَوَى شَطُونٌ و بَرَّ شَطُونٌ . ومن ذلك سمي الحبل شَطَنًا لأنه يبلغ القعر العميق والماء البعيد . وفي هذا الخبر أيضاً مجاز آخر ، وهو أنه عليه الصلاة والسلام جعل الهوى الشاطن في النار ، ومراده صاحب الهوى الشاطن ، وهو الذي يمتدّ به هواه فيقذفه في المضال ويحمله على الزال . ونظير هذا : الخبرُ الآخرُ ، وهو قوله عليه الصلاة والسلام : « عَلَيْكُمْ بِالصَّدَقِ فَإِنَّهُ مَعَ الْبِرِّ وَهُمَا فِي الْجَنَّةِ ، وَإِيَّاكُمْ وَالْكَذِبَ فَإِنَّهُ مَعَ الْفُجُورِ وَهُمَا فِي النَّارِ » . وأراد عليه الصلاة والسلام صاحب الصدق والبر ، وصاحب الكذب والفجور .

٦٢ — ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام : « كَيْفَ بِكُمْ
وَبِزْمَانٍ يُغْرَبِلُ النَّاسُ فِيهِ وَيَبْقَى حُثَالَةٌ مِنَ النَّاسِ قَدْ مَرَجَتْ عُهُودُهُمْ
وَأَمَانَاتُهُمْ » ، وهذه استعارة والمراد أنهم يُتَنَقَّى خيارهم فيهلكون بالقتل
السريع ، والموت الذريع كما يُغْرَبِلُ الْحَبُّ بِالْغَرِبَالِ فيسقط قشبه وصغاره
ويبقى جلاله وخياره . وقد قيل : إن الغربة اسم للقتل خصوصاً ، ومنه
قول الشاعر :

تَرَى الْمُلُوكَ حَوْلَهُ مُغْرَبَلَةً يَقْتُلُ ذَا الذَّنْبِ وَمَنْ لَا ذَنْبَ لَهُ

أى مقتلة ، والقول الأول أشبه بالمراد وأليق بالصواب ، وقد تكلمنا^(١) فيما
تقدم على قوله عليه الصلاة والسلام : ويبقى حُثَالَةٌ مِنَ النَّاسِ قَدْ
مَرَجَتْ عُهُودُهُمْ .

٦٣ — ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام وقد سئل : « أَيْ
الْأَعْمَالِ أَفْضَلُ ؟ فَقَالَ : الْحَالُّ الْمُرْتَحِلُ . قِيلَ : وَمَا الْحَالُّ الْمُرْتَحِلُ ؟ قَالَ :
الْحَاتِمُ الْمُفْتَتِحُ) . وفى هذا الكلام مجاز لأنه عليه الصلاة والسلام إنما
أراد ائتمام التلاوة القرآن ، فهو يفتح ويغتم ويغتم ويغتم ويستأنف ، فشبهه
عليه الصلاة والسلام بالمسافر المجد بينا ينزل حتى يرتحل وبينما يسير حتى ينزل ،
فشبهه عليه الصلاة والسلام بختم التلاوة بنزول المنزل . وشبه استئنافها بسير
المرتحل ، وجعله مستمراً على هذه الطريقة أبدا لا يرمى إلى غاية ولا يقف

(١) ذكر ذلك عند الكلام على حديث : كيف أنتم إذا مرج الدين .

عند نهاية . وقد قيل إن المراد بذلك المجاهد في سبيل الله الذي يفزرو
ويُثَقَّب ويَقْفَل ويعاود ، والقول الأول أظهر عند العلماء ، وأوغل في
مذاهب الفصحاء .

٦٤ - ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام : « إِنَّ قَوْمًا
يُضْفَرُونَ الْإِسْلَامَ ثُمَّ يَلْفِظُونَهُ » ، وهذا القول مجاز لأن المراد أنهم
يُلْقِنُونَ الْإِسْلَامَ وَيَعْلَمُونَهُ ، فَيَتَنَاسَوْنَهُ وَيَفَارِقُونَهُ كَالَّذِي يَلْقَمُ الشَّيْءَ ،
فَيَدَسُّعُ^(١) بِهِ وَلَا يَسِيغُهُ إِلَى جَوْفِهِ . وذلك مأخوذ من قولهم : ضَفَرْتُ الْبَعِيرَ
أَضْفَرُهُ ضَفْرًا : إِذَا لَقَمْتَهُ لُقْمًا عَظِيمًا : وَقَدْ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مَأْخُوذًا مِنْ قَوْلِهِمْ :
ضَفَرَ الرَّجُلُ الدَّابَّةَ يَضْفِرُهَا ضَفْرًا إِذَا أَلْقَى الْأَجَامَ فِي فِيهَا ، وَالْعَيْنَانِ مَتَقَارِبَانِ .

٦٥ - ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام : « يَمِينُ اللَّهِ^(٢) مَالَى
سَحًّا ، لَا يُغِيضُهَا اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ » ، وهذه أَسْتِعَارَةٌ لِأَنَّ الْمَرَادَ بِالْيَمِينِ هَاهُنَا
نِعْمَةُ اللَّهِ ، وَوَصَفَهَا بِالْإِمْتِلَاءِ لِكَثْرَةِ مَنَافِعِهَا وَعُمُومِ مُرَافِدِهَا ، فَجَعَلَهَا كَالْيَمِينِ
أَثَرَةُ النَّارِ لَا يُغِيضُهَا^(٣) الْمَوَاتِحُ ، وَلَا تَنْقُصُهَا النَّوَازِحُ . وَالسَّحُّ : شِدَّةُ الْمَطَرِ ،
يُقَالُ : سَحَّتِ السَّمَاءُ سَحًّا إِذَا جَادَتْ جَوْدًا ، وَخَصَّ الْيَمِينُ لِأَنَّهَا فِي الْأَكْثَرِ

(١) الدسع : التواء ، وبابه قطع .

(٢) روى هذا الحديث في النهاية : يمين الله سماء لا يغيبها شيء الليل والنهار .

(٣) غامر الماتح الماء كأغاضه : نقصه .

مظنة المطاء وموصلة الحياء ، على طريق المجاز والاتساع . وقد شرحنا هذا المعنى في عدة مواضع من كتبنا المشتملة على علوم القرآن

٦٦ - ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام : « ابْنُوا الْمَسَاجِدَ وَاتَّخِذُوا حُجَّامًا ^(١) » ، وهذه استعارة لأن المراد ابنوها ولا تتخذوها لها شُرُفًا فشيها عليه الصلاة والسلام بالكباش الجُم ، وهي التي قرونها صفار خافية . ومنه الخبر المشهور في ذكر القيامة « إِنَّهُ يُؤْخَذُ لِلْجَمَّاءِ مِنَ الْقَرْنَاءِ » وذلك من أحسن التشبيه وأوقع التمثيل . وقال ابن الأعرابي : الأجم الذي لارمح معه ، ومن ذلك قول الشاعر :

وَيْلُ أُمِّهِمْ مَعْشَرًا حُجَّامِيَّوْتُهُمْ مِنْ الرِّمَاحِ وَفِي الْمَعْرُوفِ تَنْكِيرُ
أراد أن بيوتهم خالية من الرماح المركوزة بأبوابها ، فهي كالكباش الجُم التي لا قرون تظهر لها ، وقال الأعشى :

مَتَى تَدْعُهُمْ لِلِقَاءِ الْحُرُوبِ أَتَتَكَ خِيُولُهُمْ غَيْرُ جُمِ
أى قد أشرع فوارسها الرماح ، فهي كالكباش إذا نهدت للكفاح ، وسدَّتْ قرونها للنطاح . وقد جاء في كلامهم : الرماحُ قُرُونُ الخيل . ومثل ذلك الحديثُ المروى : « سَتَكُونُ فِتْنَةٌ كَأَنَّهَا صِيَاصِي بَقَرٍ »

(١) جم : جمع أجم ، وهو فى الأصل الكباش بلا قرون ، ولا تنافس بين هذا وبين قول المؤلف : الجُم هي التي قرونها صفار خافية . لأن قصد علماء اللغة من قولهم : بلا قرن أى ظاهر .

والصياصى هاهنا : القرون . قيل إنما شبهها عليه الصلاة والسلام بقرون البقر لكثرة ما يُشرع فيها من الرماح .

٦٧ — ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام : « لَا يَزَالُ الْعَبْدُ خَفِيفًا مُعْتِقًا بِذَنْبِهِ مَا لَمْ يُصِْبْ دَمًا ، فَإِذَا أَصَابَ دَمًا بَلَخَ » ، وهذا مجاز لأنه عليه الصلاة والسلام شبه المذنب غير القاتل بحامل الحمل إلا أن فيه بعض الخفة فهو يُعْنَق به : أى يسرع من تحته ، فإذا أصاب دَمًا ثَقَلَ ذلك العبء حتى يَبْلَخَ^(١) منه ، والتبليح الإعياء ، مأخوذ من بلوح الشيء ، وهو انقطاعه فكان مُنْتَه قد تَقَدَّتْ ، وقوته قد انقطعت . وإنما قال عليه الصلاة والسلام ذلك تغليظاً لأمر الدم ليقُلَّ الإقدام على سفكه ويكثر التزاجر عن التعرض له ، ومع ذلك فالتوبة تسقط العقاب المستحق عليه كما تسقط العقاب المستحق على غيره من المعاصى ، خلافاً لما ظنّه بعض الناس من أن القاتل لا توبة له لأن الأمر لو كان على ما قاله لم يكن للقاتل سبيل إلى الانتفاع بطاعته في المستقبل لأنها تقع مُحْبَظَةً ، ولا يجوز ألا يكون للمعاصى طريق إلى الانفكاك من عقاب المعاصى لأن في ذلك^(٢) إغراء له بها وحملها عليها . وفي بعض الأحاديث : أن أعرابياً قتل تسعة وتسعين إنساناً ، ثم أتى راهباً بالشام يستغفنيه في توبته ، فقال له : ما أرى

(١) يقال بلح الرجل (كنع) وبلح (كندم) إذا أعيا .

(٢) لأن في ذلك . . . يريد أن في القول بعدم قبول توبة القاتل حملاً له على

التمادى في المعاصى بعد وقوع القتل منه لأنه يئأس من مغفرة الله له .

لك توبة ، فقال : لاجرم والله لأكلنهم بك مائة ، فقتل الراهب وما حكوه
عن عبد الله بن عباس رحمه الله من اختلاف فتواه في هذا المعنى لأنه أفتى
مستفتيا سألته عن توبة القاتل بأنه لا توبة له ، وأفتى آخر بأن له توبة ،
فله عندنا وجه صحيح قد نقل عن ثقات الناقلين ، وذلك أنه سئل عن
اختلاف قوليه في هذا الباب ، فقال : أتاني مستفت فأفتيته بأن للقاتل توبة
لأنى رأيت عليه أمارات من قتل وهو نادى على قتله خائف من جرائر فعله ،
واستفتاني آخر ، فأفتيته بأنه لا توبة للقاتل لأنى رأيت أمارات من قد
عزم على القتل في المستقبل ، وأرد أن يلجأ إلى التوبة بعد الإقدام على
سفك الدم المحرم ، فأفتيته بذلك ليقف عن عزمه ويخاف عواقب إثمه .

٦٨ — ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام : « بُلُّوا أَرْحَامَكُمْ
وَلَوْ بِالسَّلَامِ » ، وفي رواية أخرى : « أَنْضَحُوا أَرْحَامَكُمْ » ، والمعنى
واحد ، وهذه استعارة لأن المراد : صلوا أرحامكم ولو بالسلاام ، أى جدّدوا
المودة بينكم وبين أقربائكم ولو بالتسليم عليهم تشبيهاً ببذل السقاء اليابس
لأنه لا يتبلل إلا بملء الماء ، فينتدى قاحله ، ويمتدّد قانصه ، فشبهوا بلل
الأرحام بذلك ، لأن في حسن الخالقة تجديدًا لمخلّقها ، وإحكامًا لما وهى
من علائقها ، ومثل ذلك قول الكميّة الأسديّ :

نَضَحْتُ أَدِيمَ الْوُدِّ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ بِأَصِرَةِ الْأَرْحَامِ لَوْ يَتَبَلَّلُ

٦٩ — ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام لرجل قيل له : إنه

نام عن الصلاة حتى أصبح : « ذَاكَ رَجُلٌ بَالٌ فِي أَذُنِهِ الشَّيْطَانُ » ،

وهذا مجاز لأنه عليه الصلاة والسلام أراد أن الشيطان تهكم به وسخر منه ، لأنهم يقولون ذلك فيمن ظهر اختلاله ، وبأن انحلاله . وأصله مأخوذ من الإفساد فكأنه عليه الصلاة والسلام أراد أن الشيطان قد أفسده وفسخ عقده ، وعلى ذلك قول الشاعر :

إِذَا رَأَيْتَ أَنْجُمًا مِنَ الْأَسَدِ جَبْهَتَهُ أَوِ الْخَرَاتِ وَالْكَتَدِ^(١)
بَالَ سُهَيْلٍ فِي الْقَضِيخِ فَفَسَدَ وَطَابَ أَلْبَانُ الْقَفَّاحِ وَبَرَدَ^(٢)
أَيُّ أَفْسَدَ سُهَيْلُ اللَّيْلِ^(٣) فَفَسَدَ ، فمبر عن إفساده له بيوله فيه تشبيها بالبائل في الماء لأنه يفسد عذبه ، ويمنع شربه .

٧٠ — ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام : « تُعْرَضُ لِلنَّاسِ جَهَنَّمُ كَأَنَّهَا مَرَّابٌ يَحْطُمُ بَعْضُهَا بَعْضًا » ، وهذا مجاز لأنه عليه الصلاة والسلام : أراد شدة احتدامها والتفاف ضرامها ، فكأن بعضها يحطم بعضها : أي يهده ويهيمضه ، والحطم الكسر ، وقد يجوز أن يكون المراد أنها تحطم أبدان المعاقبين بها ، وجعلهم بعضها لأنهم خالدون فيها غير خارجين منها .

- (١) الأسد : من أبراج السماء . الجبهة : منزله للفر أو هي القمر . الخرات : أحد نجمين نيرين بكاهلي الأسد ينزلهما القمر . الكتد (بالتحريك) : نجم .
(٢) القضيخ : عصير العنب وشراب يتخذ من بسر مفضوخ (مكسر) يريد أن ظهور سهيل (نجم) يفسد هذا الشراب .
(٣) جعل المؤلف القضيخ اسماً لليل وهو حقاله إذا غلبه الماء ولكن ينبغي أن يراد به ما قدمنا حتى لا يتنافى مع قوله وطاب ألبان الخ .

٧١ — ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام لرجل من وفد تَجِيبُ^(١) : « إني لأرجو أن تموت جميعاً ، فقال : أوليس الرجل يموت جميعاً يا رسول الله ؟ فقال عليه الصلاة والسلام تتشعب أهواؤه وهمومه في أودية الدنيا فلعل أجله يدركه في بعض ذلك فلا يبالي الله في أيها هلك » ، وفي هذا الكلام مجازان [أحدهما] قوله عليه الصلاة والسلام : إني لأرجو أن تموت جميعاً لأن الإنسان لا يموت إلا جميعاً ، وإنما أراد إني لأرجو ألا يدركك الموت ، وهمومك متقسمة ، وأهواؤك متشعبة ، فكان يكون متفرقا بتفرق أهوائه . ومتشعباً بتشعب آرائه . والمجاز الآخر : قوله عليه الصلاة والسلام في أودية الدنيا ، وهذه استعارة عجيبة لأنه شبه اختلاف طرائق الدنيا ومذاهبها ، وتباين أحوالها ونوائبها بالأودية المختلفة . فمنها البعيد والقريب ، والمخصب والجديب ، والواسع والضيق ، والنجى والمعطب

٧٢ — ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام ، وهو يعني للمدينة : « أُسْكِنْتُ بِأَقْلٍ الْأَرْضِ مَطَرًا ، وهي بين عَيْنِي السَّمَاءِ : عينٍ بالشام ، وعَيْنٍ باليمن » ، وهذه استعارة لأنه عليه الصلاة والسلام أراد كثرة انهلال السماء بالمطر في هذين الموضعين : الشام ، واليمن ، يكتفى عن ذلك بعيني السماء كأثره عليه الصلاة والسلام شبه أفق السماء المظلمين على هذين البلدين بالعينين الدامعتين ، فأراد أن اليمينين^(٢) لا تنقطع مياههما عن هذين الموضعين كما

(١) تجيب : بطن من كندة .

(٢) يريد الأقين فقد شبههما بالعينين .

لا ترقأ دموع هاتين العينين ، وقد يجوز أن يكون إنما أراد عليه الصلاة والسلام أن يشبهها بالعينين من العيون التي تنبع الماء في الأرض . فكما أن ماء العين موصول لا ينقطع ، فكذلك قطر السماء في هذين البلدين متصل غير منقطع ، وكلا القولين مجاز وتوسع . وقد سموا السحاب الناشئ من جهة القبلة عينا على أحد المعنيين اللذين ذكرناهما ، فقد يجوز أيضا أن يكون قوله عليه الصلاة والسلام : بين عيني السماء ، يريد بين السحابين الناشئين لهذين البلدين .

٧٣ — ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام : « الحياء نظام الإيمان » ، وهذه استعارة ، والمراد أن الحياء يجمع خلال الإيمان كما يجمع السلك فرائد النظام^(١) لأن الإنسان الكثير الحياء يُنجّم عن مواجهة المعاصي ، ومطاوعة المغاوي ، فإذا قلّ حياؤه تفرّق جُماع إيمانه ، فأشبهه السلك في أنه إذا انقطع تهافتت خرز نظامه ، وهذا المعنى أراد به الشاعر بقوله :

يَعِيشُ المرء ما اسْتَحْيَا بخيرٍ وَيَبْقَى العودُ ما بَقِيَ اللّحاء

وليس ينافي هذا الحديث الحديث الآخر ، وهو قوله عليه الصلاة والسلام « الحياء شعبة من الإيمان » فإنه لا يمتنع أن يكون شعبة منه ويكون مع ذلك نظاما له .

(١) السلك : الخيط مطلقا . والنظام : الخيط ينظم فيه اللؤلؤ أو نحوه ، والمراد به هنا المقد بما فيه من خيط ولؤلؤ .

٧٤ — ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام : « مِنْبَرِي هَذَا عَلَى تَرْعَةٍ مِنْ تَرْعِ الْجَنَّةِ » ، وقد قيل في تفسير الترع ثلاثة أقوال : أحدها أن يكون اسماً للدرجة . والثاني : أن يكون اسماً للروضة على المكان العالى خاصة . والثالث : أن يكون اسماً للباب ، وفي هذا الكلام مجاز على الأقوال الثلاثة ، وجميعها يثول إلى معنى واحد ، فإن كانت التربة بمعنى الدرجة ، فالمراد أن منبره عليه الصلاة والسلام على طريق الوصول إلى درج الجنة ؛ لأنه عليه الصلاة والسلام يدعو عليه إلى الإيمان ، ويتلو قوارع القرآن ويخوف ويرجو ويعد ويُدشّر ، وإن كانت بمعنى الباب ، فالقول فيهما واحد ، وإن كانت بمعنى الروضة على المكان العالى ، فالمراد بذلك أيضاً كالمراد بالقولين الأولين ، لأن منبره عليه الصلاة والسلام على الطريق إلى رياض الجنة لمن طلبها وسلك السبيل إليها ، وفيه زيادة معنى ، وهو أن يكون إنمّا شبهه بالروضة لما يمرّ عليه من محاسن الكلام وبدائع الحكم التى تشبه أزاهير الرياض ودياربيع^(١) النبات وهم يقولون فى الكلام الحسن : كأنه قطعُ الروض ، وكأنه ديباج الرقيم^(٢) ، وأضاف عليه الصلاة والسلام الروضة إلى الجنة لأن الكلام المونق الذى يتكلم به عليه الصلاة والسلام يهّدى إلى الجنة ويكون دالاً عليها وقائداً إليها ،

(١) جمع ديباج ، وهو الموشى المطرز من كل شىء ، فالمراد هنا زهر النبات واختلاف ألوانه .

(٢) الرقيم : الثوب المخطط .

وعندهم أن الروضة إذا كانت على الأيفاع والأنشاز^(١) كانت أحسن منظرًا وآتق زهرًا ، وعلى ذلك قول الأعشى :

مَا رَوْضَةٌ مِنْ رِيَاضِ الْحَزَنِ مُعْشِبَةٌ

خَضْرَاءُ حَجَادَ عَلَيْهَا وَكَيْفَ خَضِلُ

وقد قال بعضهم : التُّرْعَةُ الكُؤُة . وهو غريب ، فإن كان المراد ذلك ، فكأنه عليه الصلاة والسلام : « قال منبري على مطلع من مطالع الجنة » ، والمعنى قريب من معنى الباب لأن السامع لما يتلى عليه كأنه يَطْلُعُ إلى الجنة ، فينظر إلى بهجتها وإلى ما أعد الله للمؤمنين فيها .

٧٥ — ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام : « إن الإسلام لَيَسَارِرُ إِلَى الْمَدِينَةِ كَمَا تَأَرَّزُ الْحَيَّةُ إِلَى جُحْرِهَا^(٢) » ، وهذه استعارة والمراد أن الإسلام ليأوى إلى المدينة كما تأوى الحية إلى جحرها ، وأصل ذلك مأخوذ من التقبض والاجتماع ، يقال : أَرَزَ أُرُوزًا إذا كان منه ذلك ، فجعل عليه الصلاة والسلام المدينة كالوِجَارِ للإسلام يتقلص إليها وينضم إلى حماها لأنها قطب مداره ونقطة ارتكازه .

٧٦ — ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام : « لَا يَدْخُلُ

(١) الأيفاع : جمع يفع (بالتحريك) وهو التل . والأنشاز جمع نشر (بالتحريك)

وهو المكان المرتفع ، وكانت بالأصل الأشجار وقد قلبناها على جميع الوجوه فلم يصلح منها إلا الأنشاز فبدلتها بها .

(٢) أَرَزَ يَأَرُزُ (مثلثة الراء) : انقبض وتجمع وثبت .

الجنة لَمْ تَبْتَ مِنْ سُخْتٍ» ، وهذا القول مجاز لأنه عليه الصلاة والسلام شبه نماء أعضاء البدن بنبات أغصان الشجر لما بينهما من التشاكك لأن العروق كالعروق والأحذية^(١) كالجلود والإبراق كالحياة والإيباس كالوفاة

٧٧ - ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام نعبد الله بن عمرو ابن العاص وذكر قيام الليل وصيام النهار ، فقال : « إِنَّكَ إِذَا قَعَلْتَ ذَلِكَ هَجَمْتَ عَيْنَكَ وَتَهَمَّتْ نَفْسُكَ » ، فقوله عليه الصلاة والسلام : « هَجَمْتَ عَيْنَكَ » استعارة لأن المراد به غور العينين لطول القيام ، وابتعد العهد للطعام . وذلك مأخوذ من قولهم : هَجَمَ فلان على فلان إذا دخل عليه دخولا فيه سرعة وله روعة . ويقال : هَجَمَ عليهم البيت إذا سقط عليهم ، فشبه عليه الصلاة والسلام إفراط دخول العينين في حجاج^(٢) الرأس بهجوم الرجل المهاجم أو وجوب^(٣) البيت الواقع ، فالتشبيه بالأول لإيغاله في مدخله ، والتشبيه بالثاني لزواله عن موضعه . ومعنى تَهَمَّتْ^(٤) نَفْسُكَ : أُنِي أَصْنَبُهَا لِلْأَلَلِ وَجَدَّهَا^(٥) الإعياء والكلال

٧٨ - ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام : « لَأَنْ يَمْتَنِي جَوْشُنُ أَحَدِكُمْ قَمِيحًا حَتَّى يَرِيَهُ خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَمْتَلَى شِعْرًا » ، وفي هذا

(١) الأحذية : جمع لواء (كتاب) وهو قشر الشجرة .

(٢) الحجاج : انطمح المنرف على العين .

(٣) وجوب البيت : سقوطه .

(٤) يقال تهم فلان : إذا ظهر غمزه وتغير .

(٥) جدتها : قطعها .

القول مجاز لأن المراد به النهي عن أن يكون حفظ الشعر أغلب على قلب الإنسان ، فيشغله عن حفظ القرآن وعلوم الدين حتى يكون أحضر حواضره وأكثر خواطره ، فشبه عليه الصلاة والسلام بالإنا الذي يمتلي بنوع من أنواع المائعات ، فلا يكون لغيره فيه مسرب ولا معة مذهب ، وقال بعضهم : إنما هذا في الشعر الذي هجى به النبي عليه الصلاة والسلام خصوصاً ، والصحيح أنه في كل شعر استولى على القلب كل استيلاء عموماً . لأن النهي يتعلق بحفظ القليل مما هجى به النبي عليه الصلاة والسلام^(١) ، وكثيره يراعى فيه أن يكون غالباً على القلب وطافاً على اللب ، وقوله عليه الصلاة والسلام حتى يرى معناه حتى يفسده ويهينه ، ويقولون وراه الداء إذا فعل ذلك به ، قال الشاعر :

وَرَاهُنْ رَبِّي مِثْلَ مَا قَدْ وَرَيْتَنِي وَأُحْمَى عَلَى كِبَادِهِنَّ الْمَكَاوِيَا^(٢)

٧٩ - ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام : « كُلُّ صَلَاةٍ لَا يَقْرَأُ فِيهَا بِأَمِّ الْكِتَابِ فَهِيَ خِدَاجٌ » ، وروى هذا الخبر بلفظ آخر ، وهو قوله : « كُلُّ صَلَاةٍ لَا قِرَاءَةَ فِيهَا فَهِيَ خِدَاجٌ » . وهذه استعارة تخبية لأنه عليه الصلاة والسلام جعل الصلاة التي لا يقرأ فيها ناقصة بمنزلة الناقة إذا ولدت ولداً ناقص الحلقة أو ناقص المدة ، ويقال : أخدج الرجل

(١) يريد أن حفظ القليل من شعر الهجاء لرسول الله منهي عنه من طريق آخر فنصار حفظ هذا الشعر غير مراد من هذا الحديث لأن التمثيل فيه خاص بالكثير فلو حملنا الحديث على شعر الهجاء لفهم أن القليل منه مباح وهو غير المقرر .

(٢) وراه يريه : أصاب رثته .

صلاته إذا لم يقرأ فيها فهو مُخَدِّجٌ وهي مُخَدِّجَةٌ . وقال بعض أهل اللغة يقال خَدَجَتْ^(١) الناقة إذا أُنْقَت ولدها قبل أوان النَّتَاج ، وإن كان تام الحلقة ، وأُخْدِجَتْ إذا أُنْقَت ناقص الخلق وإن كان تام الحمل^(٢) فكأنه عليه الصلاة والسلام قال : « كل صلاة لا يقرأ فيها فهي نقصان إلا أنها مع نقصانها مُجَزَّئَةٌ » . وذلك كما تقول في قوله عليه الصلاة والسلام : « لا صلاة لجار المسجد إلا في المسجد » إنما أراد به نفى الفضل لا نفى الأصل ، فكأنه قال لا صلاة كاملة أو فاضلة إلا في المسجد ، وإن كانت مجزئة في غير المسجد . فنفي عليه الصلاة والسلام كمالها ولم ينف أصلها . ومما يؤكد ذلك الخبر الخبر الآخر ، وهو قوله عليه الصلاة والسلام : « لا غِرَارَ في صلاةٍ ولا تَسْلِيمٍ » : أى لا نقصان فيهما من قولهم : ناقة مُغَارَّةٌ^(٣) إذا نقص لبنها ؛ ومنه الحديث الآخر : لا تُغَارُوا التحية : أى لا تنقصوا السلام ورُدُّوا على البادى به مثل ما قال .

٨٠ - ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام : « عائدُ المريض على مخَارِفِ الجَنَّةِ » ، وفي هذا الكلام مجاز على التأويلين جميعاً ، فإن كان المراد المخارف جمع مخرف وهو جنى النخل ، فكأنه عليه الصلاة والسلام شهد لعائد المريض بدخول الجنة وحقق له ذلك حتى عبر عنه وهو بعد في دار

(١) والفعل كنصر وضرب .

(٢) عبارة الغاموس المحيط في هذا : الخداج إلقاء الناقة ولدها قبل تمام الأيام

والفعل كنصر وضرب ، وأُخْدِجَتْ الناقة : جاءت بولد ناقص وإن كانت أيامه تامة

(٣) يقال غَارَتْ الناقة : إذا قل لبنها فهي مغارّة بضم الميم والجمع مغار بفتحها .

التكليف بعبارة من صار إلى دار الخلود ثقة له بالوصول إلى الجنة والنزول في دار الأمانة . وهذا موضع المجاز ، وإن كان المراد بالخارف جمع مخرفة ، وهي الطريق كما روى عن بعض الصحابة أنه قال في كلام له : وَتَرَكَتُكُمْ عَلَى مِثْلِ مَخْرَفَةِ النَّعَمِ : أى طريق النعم الواضح الذى أعلمته بأخفافها وأَعْتَدْتَهُ بِكَثْرَةِ غَدُوِّهَا وَرَوَاحِهَا ، فموضع المجاز أنه عليه الصلاة والسلام جعل عائد المريض كالمشي في طريق يفضى به إلى الجنة ويوصله إلى دار المقامة ^(١)

٨١ - ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام للمغيرة بن شعبة وقد خطب امرأة ليتزوجها : «لَوْ نَظَرْتُ إِلَيْهَا فَإِنَّهُ أُخْرَى أَنْ يُؤَدَّمَ بَيْنَكُمَا» وفي هذا اللفظ مجاز على التأويلين جميعاً ، فأحدهما أن يكون قوله عليه الصلاة والسلام أُخْرَى أَنْ يُؤَدَّمَ بَيْنَكُمَا مأخوذاً من الطعام المأدوم لأن طيبه وصلاحه إنما يكون بالإدام كالزيت والإِهَالَة ^(٢) وما يكون في معناها ، فكأنه عليه الصلاة والسلام أراد أن ذلك أُخْرَى أَنْ يَتَوَافَقَا كما يوافق الطعام أَدَمَهُ أَوْ كما يوافق الإدام ^(٣) خبزه . قال الكسائي : أَدَمَ اللَّهُ بَيْنَهُمَا عَلَى مِثَالِ فَعَلَ : إِذَا أَلْقَى بَيْنَهُمَا الْحُبَّةَ وَالْإِتْفَاقَ ، وَأَقُولُ : إِنَّ هَذَا يَشْبَهُ دَعَاءَهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لِلْبَانِي عَلَى أَهْلِهِ ، وَهُوَ قَوْلُهُ : بِالرِّفَاءِ وَالْبَنِينَ . كَأَنَّهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ دَعَا بِأَنْ يَلَاثِمَ اللَّهُ بَيْنَهُمَا كَمَا يَلَاثِمُ الرَّافِي بَيْنَ شُقَقِ الثَّوْبِ

(١) المقامة : الإقامة .

(٢) الإِهَالَة : الودك (دسم اللحم) .

(٣) الأدم والإدام : دسم الطعام .

المرفوء . وأما التأويل الآخر في أصل الخبر ، فهو أن يكون بمعنى : ذلك أخرى أن يصلح الله بينكما من قولهم : عِنانُ مؤدَم إذا كان مصلحاً مُحْكَمًا . قال الراجز * في صَلَبٍ مِثْرِ الْعِنانِ المؤدَم ^(١) * ويقال : أديم مؤدَم إذا ظهرت أدمته وهو مأوى اللحم منه ، أديم مُبَشَّر إذا ظهرت بشرته ، وهو مأوى الشعر منه . ويقال رجل مؤدَم إذا كان محبوباً قال الراجز :
* والبيضُ لا يؤدَمَنَّ إِلَّا مؤدَمًا * أي لا يحبين إلا محبوباً .

٨٢ — ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام : « إِنَّ مِنَ الْبَيَانِ لَسِحْرًا » ، وهذا القول مجاز والمراد به إن البيان قد يَخْدَع بتزويقه وزخارفه وحسن معارضه ومطالعه حتى يستزل الإنسان من حال الغضب ، والمحاشنة إلى حال الرضا والملاينة ، وينزع حُمَات ^(٢) السخائم ، ويفسِّخ عقود العزائم ، ويكُفِّح الجامح حتى يرجع ، ويُسِفِّ بالخلق حتى يقع ، ويعود بالخصم الضالع ^(٣) موافقاً ، وبالخذل الأبعد مقارباً . والسحر في الأصل : هو التزويه والخديعة والتلبيس والتغطية وقال بعضهم : السحر ما تقلك من حال إلى حال . وكانت العرب تعتقد أن السحر يصرف الوجوه

(١) الصلب (لتحريك) لغة في الصلب (بانضم) وهو من لدن الكاهن إلى عجب الذنب والراجز (وهو المعجاج) يصف امرأة . قال :

رِيا العظام حمة المخدم في صلب مثل العنان المؤدَم

* إلى سواء قطن مؤكم *

(٢) الحُمَات : جمع حمة وهي شوكة العقرب في طرف ذنبها .

(٣) الضالع : الجائر .

ويقلب القلوب ، ويُخْرِضُ الأجسام ، ويسفِّهُ الأحلام ، ويفرق بين المتحايين ، ويجمع بين المتباغضين ، وهذا في الحقيقة تقل من حال إلى حال ، وهو عندنا باطل إلا أن يراد به ما قدمنا القول فيه من خديعة الإنسان بلين القول وحسن اللفظ حتى يرضى بعد اشتطاطه ، وينثنى بعد جماعه . وهذا الوجه هو الذي ذهب إليه النبي عليه الصلاة والسلام دون ما يقوله أهل الجهالة وطغام الجاهلية .

٨٣ — ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام : «إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي مِنْهُ بِرَحْمَةٍ^(١)» ، وأصل هذا الكلام مستعار لأن المراد به إِلَّا أَنْ يَغْطِيَنِي اللَّهُ أَوْ يُجَلِّلَنِي مِنْهُ بِرَحْمَةٍ ، مأخوذ من غمد السيف الذي يكون كِنَانًا^(٢) له وسبأغا عليه ، وقال الشاعر :

نَصَبْنَا رِمَاحًا فَوْقَهَا جَدُّ عَامِرٍ كَطَلَّ السَّمَاءُ كُلَّ أَرْضٍ تَغَمَّدًا
أَيَّ امْتَدَّ جَدُّهُمْ عَلَى أَقْطَارِ الْأَرْضِ ، ففطأها كامتداد السماء عليها من جميع جهاتها يصفهم باستطالة الجدِّ وانبساط اليد وبراء المال والعدد .

٨٤ — ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام : «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ رَحْمَةً تَلُمُّ بِهَا شَعْنِي» ، وهذه استعارة والمراد تجمع بها أعمري ، فكُنِّيَ عليه الصلاة والسلام عن ذلك بالشعث تشبيها بالعود الذي تشعث

(١) والحديث بتمامه كما رواه الزمخشري في القائن . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «ليس أحد يدخل الجنة بعمله . قيل ولا أنت يا رسول الله قال ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمته» .

(٢) الكنان (ككتاب) : وفاء الشيء .

رأسه وتَشَطَّتْ^(١) أطرافه ، فهو محتاج إلى جامع يجمعه وشاعت يَشَعْتُهُ ،
ومن ذلك قول الشاعر يصف النار :
وَعَبْرَاءُ شَعْنَاءِ الْفُرُوعِ مُنِيفَةً بها تُوصَفُ الْحَسَنَاءُ وَهِيَ جَمِيلُ
أراد تفرق أطرافها وتشعث شواظها^(٢) .

٨٥ — ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام : « أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ
شَرِّ عِرْقٍ نَعَّارٍ » ، وهذه استعارة والأصل في ذلك رفع الصوت يقال :
فلان نَعَّارٌ فِي الْفِتَنِ : أى صَيَّاحٌ فِيهَا وَدَعَاءٌ إِلَيْهَا ؛ وقال بعض التابعين
وقد صلى خلف مصعب بن الزبير وهو رافع صوته بالتكبير والتهليل : قاتله
الله نَعَّارًا بِالْبَدْعِ : أى صيَّاحًا بِهَا ، فشبّه عليه الصلاة والسلام شُغُورَ دَمِ
العرق وتواتره بصوت الصائح المنوّه من وجهين لارتفاع ندائه ، ولتكرير
دعائه فجعل العرق نعاراً للعلة المذكورة على طريق المجاز والاتساع . وقال
بعض أهل اللغة : يقال نَعَرَ العرق نَعْرًا وَنَعْرَانًا إِذَا اهْتَزَّ بِالْدَمِ وَلَمْ يَرَقًا ،
فإن كان الأمر على ما قال ، فقد خرج الكلام عن باب المجاز إلى حيز
الحقيقة .

٨٦ — ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام : « مَنْ كَانَتْ
الدُّنْيَا هَمَّهُ وَسَدَمَهُ^(٣) جَعَلَ اللَّهُ فَقْرًا بَيْنَ عَيْنَيْهِ » ، وهذا الكلام مجاز
والمراد به أن من جعل الدنيا همّه ، وَقَرَّ عَلَيْهَا بِالْهَمِّ ، وأعرض عن الآخرة
بوجهه ، وأخرج ذكرها من قلبه ، وأقبل على تثير الأموال ، واستتضخام

(١) تشظى العود : تطاير شظايا . والشظية . كل فلفة من شيء .

(٢) الشواظ (كغراب وكتاب) : لهب النار الذى ليس معه دخان .

(٣) السدم : الهم .

الأحوال عاقبه الله على ذلك بأن يزيد فقر نفس وضرع خد ، فلا تسد مفارقة كثرة ما جمع وعدد ، وعظيم ما أثل وتمر ، فكأنه يرى الفقر بين عينيه فهو أبداً خائف من الوقوع فيه والانهاء إليه ، فلا يزال آكلاً لا يشبع وشارباً لا ينقنع . فمه حرص الفقراء ، وله مال الأغنياء . وقال عليه الصلاة والسلام : جعل فقراً بين عينيه مبالغة في وصفه بتصور الفقر فكأنه قريب منه ، وغيره غائب عنه . كما يقول القائل لغيره إذا أراد هذا المعنى : حاجتك بين عيني ، أي هي متصورة لي وغير غائبة عن قلبي

٨٧ — ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام في صفة شأ ذكرها : « فجاءت به كله قالب لوّن غير واحد أو اثنين ^(١) » ، وهذه استعارة ، وأن ألوانها جاءت متساوية ^(٢) ، فكأنما أفرغت في قالب واحد وهذه من

(١) الحديث كما ورد في القائل للزمخشري : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أجز موسى عليه السلام نفسه من شعيب عليه السلام بشيع بطنه وعمه فرجه فقال به ختنه لك منها ما جاءت به قالب لوّن فلما كان السقي وضع موسى قضيباً على احوض فجاءت به كله قالب لوّن غير واحد أو اثنين ... قال الزمخشري (قالب لوّن) معناه في الحديث أنها جاءت على غير ألوان أمهاتها . وفي النهاية : كأن لوّنوها قد انقلب .

(٢) الشرح الذي سيأتى به المؤلف مبني على روايته للحديث فإنها وردت في الأصل هكذا : (فجاءت على قالب لون واحد) ولكننا لم نجد حديثاً بهذه الرواية فاعتقدنا أنه محرف عن النص الذي أوردناه في تعليقتنا رقم ١ السابقة ، وعلى ذلك يكون شرح المؤلف غير متمشٍ إلا مع فرضه الذي فرضه في رواية الحديث . فتنبه لذلك . هذا إلى أن كلمة « فجاءت » وردت في الأصل محرفة هكذا (فتعجب) وهي بهذا التحريف لا معنى لها .

أحسن العبارات عن هذا المعنى ، وذلك كما يقول القائل منا إذا أراد أن يصف قوماً متشابهين في الخلق والمناظر أوفى الطبائع والفرائز : كأنما طبعوا على سكة واحدة ، أو خلقوا من طينة واحدة .

٨٨ - ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام : « خَيْرُ الْخَيْلِ الْأَذْهَمُ الْأَفْرَحُ الْمُحَجَّلُ ثَلَاثًا ، طَلَقُ الْيَدِ الْيُمْنَى » ، وهذه من محاسن الاستعارات لأنه عليه الصلاة والسلام شبه الثلاث من قوائمه لانقاف التحجيل عليها بالثلاث المعقولة من قوائم البعير والمشكولة من قوائم الفرس وشبه اليمنى منها خلوصها من التحجيل بالمطلقة من العقل أو العاطلة من الشكال . ويقال ناقة عُلُطٌ ^(١) إذا لم تكن موسومة ، ويقال طَلَقٌ إذا لم تكن معقولة ، وناقة عُلُطٌ إذا لم تكن مزومة ^(٢) .

٨٩ - ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام اسْرَاقَةُ بْنُ مَالِكٍ الْمَذَلِجِيُّ لما خرج رسول الله صلى الله عليه وآله من مكة مهاجراً إلى المدينة وقد لحق به وهو بعد على شِرْكِهِ : « قَفْ هَاهُنَا قَعَمٌ عَلَيْنَا بَتَهَوُّرُ التُّجُومِ » ، وهذه استعارة فكأنه عليه الصلاة والسلام شبه السماء وما فيها من مواقع الكواكب ومراقب الثواقب بالأبنية الموطودة والدعائم

(١) العلاط (ككتاب) سمة في عرض عنق البعير وعلطه (كضرب ونصر) :

وسمه به . والقياس أن يقال الموسومة معلوطة أو معلطة من علطها بالضعيف .

(٢) أى ليس في عنقها زمام تقاد به ، واسمه العلاط (ككتاب) .

المرفوعة وجعل ترحزحها عن مطالعها وانصبابها بعد ترفعها كالبناء المتهور
والسقف المتقوّض

٩٠ - ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام في حديث طويل
وقد خط في الأرض خطوطاً يمثل بها أحوال ابن آدم فقال صلى الله عليه
 وآله : « وهذه الخطوطُ إلى جنبه الأعراضُ تنهشه من كل مكان فإن
 أخطأه هذا أصابه هذا » ، وفي هذا الكلام مجاز ، وقوله عليه الصلاة
 والسلام: وهذه الخطوطُ إلى جنبه الأعراضُ تنهشه، ويروى تنغشه بالغين^(١)
 والمراد بذلك أعراض الدنيا ، وهي ما تعرض فيها من المصائب وتطرق من
 النوائب، وشبهها عليه الصلاة والسلام بالحيات الناهشة والدّؤبان الناهسة^(٢)
 لأخذها من لحم الإنسان ودمه وتأثيرها في نفسه وجسمه .

٩١ - ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام : « لا يُصَلِّ
 الرَّجُلُ وَهُوَ زَنَاءٌ »^(٣) ، وهذا القول مجاز لأن أصل الزّناء الضيق
 والاجتماع ، وقال الأخطل يذكر حفرة القبر :

(١) النفس الاضطراب وكل طائر أو هامة تحرك في مكانه فقد انتفش . والمعنى أن

الأعراض التي تعتوره في الحياة تجعله يضطرب .

(٢) الدؤبان : جمع ذئب . والنهس : أخذ اللحم بمقدم الأسنان .

(٣) رواية النهاية لا يصلين أحدكم وهو زناء . والزناء (كسحاب) : مصدر

وصف به على سبيل المبالغة .

وإذا قُذِفَتْ إلى الزَّنا تَعَرُّها غَبْرَاءُ مُظْلَمَةً مِنَ الْأَحْفَارِ^(١)
ويقال : قد زَنَا بَوْلُهُ يَزْنُو زُنُوءًا إذا احتقن ، وأزْنَا الرجلُ بَوْلَهُ إزْنَاءً إذا
حقنه ، فسمى الحاقن زَنَاءً لاجتماع البول فيه وضيق وعائه عليه ، وموضع
المجاز من هذا الكلام أنه عليه الصلاة والسلام وصف الرجل بالضيق
وإنما الضيق وعاء البول إلا أن ذلك الموضع لما كان شيئاً من جملته
ونوطاً معاً به جاز أن يجري اسمه عليه ، وقوله عليه الصلاة والسلام :
لا يُصَلِّ الرجل وهو زَنَاءٌ فيه من الفائدة ما ليس في قوله وهو حاقن لأن
الحاقن قد يحقن القليل كما يحقن الكثير ، والزَّنا هو الضيق ، ولا يكاد
يضيق وعاء البول إلا من الكثير دون القليل .

٩٣ — ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام : « الْحِجَازُ
قَطِيفَةُ الْإِيمَانِ » ، وهذه استعارة ، والمراد بها أنه يحيط بالإيمان ويجمع
شملة ويضم أهله كما تضم القطيفة ، وهي الكساء الغليظ جملة بدن الإنسان
إذا اشتمل بها ودخل فيها ، وإنما قال عليه الصلاة والسلام ذلك لثبات
عرب الحجاز من قريش وغيرها على الإسلام بعد دخولهم فيه فلم يرتد
منهم أحد كغيرهم ممن خَلَّى حبل الدين عن بدنه ورجع على عقبه . وقال

(١) عره : ساءه أو أصابه بضر . الأحفار : جمع حفر (بالفتح أو التحريك) وهو
المكان المحفور .

أصحاب الآثار : ما من قبيلة من قبائل العرب بعد وفاة النبي عليه الصلاة والسلام إلا وقد فشا فيها الارتداد عامة أو خاصة إلا قريشاً وثقيفاً فإنه لم يرتد منهم أحد ، هذا على أن هاتين القبيلتين كانتا في أول الإسلام أشد نكاية ، ولرسول الله صلى الله عليه وآله أحضر عداوة .

٩٣ - ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام : **إِنْ هُذِهِ الْمَسَائِلُ كَذَّ يَكْذُ بِهَا الرَّجُلُ وَجْهَهُ** ، وفي هذا الكلام استعارة على تأويل الكذب في العربية وأحد التأويلين أن يكون الكذب بمعنى الإغتاب والإنصاف كما يقول القائل كدت فرسى إذا أراد أنه أتعبه واستنفد طاقته فعلى هذا التأويل يكون معنى كذب الرجل وجهه بالمسائل أنه لكثرة بذله في السؤال وطلب ما في أيدي الرجال قد أجراه مجرى المطية التي يُحْضِرُهَا بكثرة الحَلِّ والتَّرَّحُّلِ وقطع المسافات الطوال . والتأويل الآخر أن يكون الكذب مأخوذاً من استقصاء النَّزْحِ ماء الرِّكِيَّةِ حتى يبلغ حَمَاتِهَا ويستنفد غَمَرَتِهَا : يقال ، كد الرِّكِيَّةِ واكتدها إذا فعل ذلك بها ، قال الشاعر :

أَمْصُ ثِمَارِي وَالْمِيَاهُ كَثِيرَةٌ أَعَالِجُ مِنْهَا حَقَرَهَا وَاكْتِدَادَهَا

ويكون قول القائل على هذا التأويل كدت فرسى أى اعتصرت مادته واستقصيت ما عنده ، فيكون كذب الوجه على هذا القول يراد به اعتصار مائه واستقطار حياته . ومن المتعارف بيننا أن يقول القائل إذا

أراد هذا المعنى : قد هَرَقْتُ ماءً وجهي بكثرة الطلب إلى فلان ، والرغبة فيما عند فلان .

٩٤ - ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام للرجل الذي قال لبعض الصحابة : « إِنْ فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكَ الطَّائِفَ فَسَلِّ النَّبِيَّ عَلَيْهِ الصَّلَاةَ وَالسَّلَامَ أَنْ يَهَبَ لَكَ نَادِيَةً بِنْتُ غِيْلَانَ بْنِ سَلَمَةَ فَإِنَّهَا إِذَا قَامَتْ تَشَنَّتْ وَإِذَا تَكَلَّمَتْ تَغَنَّتْ فِي كَلَامٍ طَوِيلٍ بَلَّغَهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةَ وَالسَّلَامُ عَنْهُ وَكَانَ هَذَا الرَّجُلُ مِنْ مُحَنِّئِي الْمَدِينَةِ فَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةَ وَالسَّلَامُ : لَقَدْ غَلَغَلْتُ النَّظَرَ يَاعَدُوَ اللَّهَ » ، وفي هذا الكلام استعارة لأن غلغلة الشيء هو إدخاله في شيء حتى يلتبس به ويصير من جملة ، وذلك لا يصح في نظر الإنسان إلا على طريق الاتساع والجزاز . فكأنه عليه الصلاة والسلام أراد أن هذا الإنسان بلغ بنظره من محاسن هذه المرأة إلى حيث لا يبلغ ناظر ولا يصل واصل فكان كالشيء المتغافل الذي يدق مدخله ويلطف مسلكه ويبعد متوَلِّجه . وروى لنا أبو علي الحسن بن أحمد بن عبد الغفار النحوي الفارسي في كتابه الموسوم بالإيضاح إجازة وأنشدناه الشيخان أبو الفتح وأبو الحسن النحويان ملافة قول الشاعر :

طَلِينٌ بِكَذْيُونٍ وَأَشْعِرُنْ كُرَّةً فَمِنْ إِضَاءِ صَافِيَاتِ الْغُلَاثِلِ^(١)

وَالكَذْيُونُ : عَكَرَ الزَّيْتَ تَطْلَى بِهِ الدَّرْعُ وَتَحْمَى بِهِ فِي النَّارِ لِتُذْهِبَ

(١) إِضَاءُ : أَصْلُهَا إِضَاءُ جَمْعُ وَضْءٍ بِمَعْنَى الْحَسَنِ .

أصدائها وتصنو ألوانها . وقيل أيضاً إن الكديون أسم من أسماء التراب
والسكرة البعر الذى يوقد به النار عليها^(١) ، وقيل فى الغلائل التى ذكرها
الشاعر فى هذا البيت قولان : فأحدهما إنها اسم لبطائن وشعارات تلبس
تحت الدروع والواحدة غلالة ، وإنما سميت غلائل لانغلاها بين الدروع
والأجساد، والثانى أنها المسامير التى تجمع بين رءوس الحلق والواحدة غليظة
وإنما سميت بذلك لأنها تُغَلّ فى الدروع : أى يستقصى إدخالها فيها
فقصير كالأجزاء منها .

٩٥ - ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام فى كلام طويل :
« وَلَيْسَ مِنْ مَلِكٍ إِلَّا وَلَهُ حِمَى الْأَ وَإِنَّ حِمَى اللَّهِ مَحَارِمُهُ فَمَنْ أُرْتَعَ حَوْلَ
الْحِمَى كَانَ قَتْلًا أَنْ يُرْتَعَ فِيهِ » ، وهذا الكلام مجاز لأنه عليه الصلاة
والسلام شبه ما حَظَرَهُ الله سبحانه من محارمه بالحِمَى الذى يحميه ذو
السلطان والمملكة من مواقع السحاب ومنابت الأعشاب فلا ترعى فيه إلا
إبله ولا ينزل به إلا حَيْثُهُ ، وما كان يفعل ذلك من العرب إلا الأعز فالأعز
والأبر فالأبر ، حتى ضربت العرب المثل بحمى كُليب بن ربيعة ، وهو
كُليب وائل فى أنه رَجُلٌ حَرَامٌ وممنوع لا يرام ، فقالوا : أعز من حِمَى
كُليب ، فجعل عليه الصلاة والسلام ما حَظَرَهُ الله سبحانه على العباد من
المحارم كالحمى الذى يجب عليهم ألا يطوفوا به ولا يمرّوا بجوانبه ، ومن

(١) فى القاموس المحيط : السكرة (بالضم) : البعر العفن تجلى به الدروع .

خالف الله منهم أرصد له العقاب وانتظر له التكال. فما حرم سبحانه من الأشياء حَمَى لا يرعى ، وما أحل منها مرعى لا يحصى ، وقوله عليه الصلاة والسلام: فمن أرتع حول الحمى كان قنأ أن يُرتع فيه، يريد به التحذير من الإلزام بشيء من صفائر الذنوب لئلا يكون ذلك مُجَرَّئاً على الوقوع في كبائرهما والتهوُّك^(١) في معازمها ، وهذه من أحسن العبارات عن هذا المعنى . وهذا الغرض نحاه عمر بن عبد العزيز بقوله : دَعُ بَيْنَكَ وَبَيْنَ الْحَرَامِ جُزْءاً مِنَ الْحَلَالِ ؛ فَإِنَّكَ إِنْ اسْتَوْفَيْتَ الْحَلَالَ كُلَّهُ تَأَقَّتْ نَفْسُكَ إِلَى الْحَرَامِ

٩٦ — ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام : لزيد بن أرقم وقد كان رَقِيَ إِلَيْهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ فِي غَزْوَةِ الْمُرَيْسِمِ^(٢) كَلَاماً سَمِعَهُ مِنْ عَبْدِ اللَّهِ ابْنِ أَبِي بِن سَلُولٍ فِيهِ طَعْنٌ عَلَى الْمُهَاجِرِينَ وَغَمَضٌ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَهُوَ مَشْهُورٌ فِي كُتُبِ الْمَغَازِي^(٣) فَاتَّهَمَتْ

(١) التهوك : التهور والوقوع في الشيء بلا مبالاة .

(٢) المريسيم : بئر أو ماء لخزاعة وإليه تضاف غزوة بني المصطلق وفيها سقط عقد عائشة وجرى حديث الافك .

(٣) راجع غزوة بني المصطلق في كتب السيرة . وفيها ان الناس وردوا الماء وفيهم أجير لعمر اسمه جهجاه فاشتجر مع رجل يسمى سنان بن وبر الجهني حليف بني عوف بن الخزرج فصرخ الجهني يامعشر الأنصار، وصرخ جهجاه يامعشر المهاجرين ففضض عبد الله بن أبي بن سلول ، فقال أوقد فعلوها قد نافرونا وكاثرونا في بلادنا أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأدل .

الأَنْصَرُ زَيْدًا فِي حِكَايَتِهِ ، وَكَانَ إِذْ ذَاكَ صَغِيرَ السِّنِّ حَتَّى نَزَلَ الْقُرْآنُ بِتَصْدِيقِهِ فِي السُّورَةِ الَّتِي يَذْكُرُ فِيهَا الْمُنَافِقُونَ وَذَلِكَ قَوْلُهُ سُبْحَانَهُ : « يَقُولُونَ لَنْ نَرْجِعَنَّ إِلَى الْمَدِينَةِ لِيُخْرِجَنَا الْأَعْرُ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ » ، فَدَعَا النَّبِيَّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ زَيْدَ بْنِ أَرْقَمٍ ، وَهُوَ مُتَأَثِّرٌ عَلَى مَا فِيهِ فَأَخَذَ بِأُذُنِهِ فَرَفَعَهُ ، ثُمَّ قَالَ لَهُ : « وَفَتْ أُذُنُكَ يَا غُلَامُ وَصَدَّقَ اللَّهُ حَدِيثَكَ » ، فَقَوْلُهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ : وَفَتْ أُذُنُكَ مَجَازٌ كَأَنَّهُ جَلَسَ أُذُنُهُ فِي سَمَاعِهَا مَا سَمِعَتْ كَالضَامِنَةِ لِتَصْدِيقِ مَا حَكَتْ لِأَنَّهُ صَدَّقَ فِي نَفْسِهِ فَلَمَّا نَزَلَ مَا نَزَلَ فِي الْقُرْآنِ فِي تَحْقِيقِ ذَلِكَ الْخَبَرِ صَارَتِ الْأُذُنُ كَأَنَّهَا وَافِيَةٌ بِضَمَانِهَا وَخَارِجَةٌ مِنَ الظَّنِّ فَمَا أَدَّتْهُ إِلَى لِسَانِهَا ، وَهَذَا مِنْ غَرِيبِ الْمَجَازَاتِ .

٩٧ - وَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ : « حَسَّانُ حِجَازٌ بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُنَافِقِينَ ، لَا يُحِبُّهُ مُنَافِقٌ ، وَلَا يُبْغِضُهُ مُؤْمِنٌ » وَفِي هَذَا الْكَلَامِ مَجَازٌ لِأَنَّهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ جَمَلَ حَسَانَ كَالسِّيَاجِ الْمَضْرُوبِ بَيْنَ حَيْزِ الْإِيمَانِ وَالنِّفَاقِ فَمَنْ كَانَ فِي حَيْزِ الْإِيمَانِ أَحَبَّهُ ، وَمَنْ كَانَ فِي حَيْزِ النِّفَاقِ أَبْغَضَهُ . وَذَلِكَ لِمَا كَانَ يَظْهَرُ عَنْهُ مِنَ الْمَنَافِقَةِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَالْإِسْلَامِ ، بِسَيْفِ لِسَانِهِ وَنَوَافِذِ أَقْوَالِهِ ، فَكَانَ قَوْلُهُ يَسُرُّ الْمُؤْمِنِينَ وَيَغْضَبُهُمْ ، وَيَسُوءُ الْمُنَافِقِينَ وَيُرْجِعُهُمْ ، وَهَذَا الْكَلَامُ عِنْدَنَا فِي حَسَنِ مَتَلَقٍ بِوَقْتٍ مُخْصِصٍ ، وَهُوَ زَمَنُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ . فَأَمَّا

حين ظاهر أمير المؤمنين^(١) عليه السلام بعداوته ورماء بتعريض القول في أشعاره فقد خرج من أن يكون حِجَازاً بين الإيمان والنفاق وتيحيز إلى جانب النعمة والضلال

٩٨ - ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام في كلام تكلم به عند مصرفه من تبوك : « قَدْ يَبْقَى مِنْهُمْ تَحْتَ أَدِيمِ السَّمَاءِ إِلَّا رَجُلٌ فِي الْحَرَمِ مَنَعَهُ الْحَرَمُ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ » وفي هذا الكلام مجازان: أحدهما قوله عليه الصلاة والسلام : تحت أديم السماء ، فجعل للسماء أديماً ، يريد ما ظهر منها للأبصار تشبيهاً بأديم الحيوان ، وهي الجلود التي تلبس الأجساد وتغطي اللحوم والعظام ، ويقال أيضاً أديم الأرض ، ويراد به ما ظهر من صفحاتها التي تباشرها التواظر ، وتطوُّها الأقدام والخوافر . والجاز الآخر قوله عليه الصلاة والسلام : فمنعه الحرم من عذاب الله ، والحرم على الحقيقة غير مانع من العذاب الذي يريد الله سبحانه أن ينزله بالمستحقين ، وإنما المراد أن الله تعالى جعل الحرم معاذة لعباده تعظيماً لأقداره ، وتقديراً لأمره ، فمن استجار به من عذابه عند مواجهة معصيته جاز أن يؤخر عنه العذاب ما كان متعلقاً به . وفي إقامة الحدود على اللاجئ إلى الحرم خلاف بين العلماء ، ليس هذا موضع ذكره ، ولا بد أن يوفيه تعالى ما يستحقه من العقاب في دار الجزاء إلا أن يكون منه توبة تسقط بها عقابه أو طاعة

(١) يريد علياً كرم الله وجهه .

عظيمة تصغر معها معصيته فالحرم لا يمنع من العذاب وإنما يتنعم الله سبحانه من فعله باللاجئ إليه والعائد به للعلة التي ذكرناها ، فلما كان الله تعالى إنما يفعل ذلك لأجل الحرمة جاز أن ينسبه إليه على طريق المجاز وعادة الاتساع .

٩٩ - ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام : « أَوْثَقُ الْعُرَى كَلِمَةُ التَّقْوَى » وهذه استعارة لأنه عليه الصلاة والسلام جعل اتقوى كأمرورة التي يتعلق بها فتمهض من المعائر وتنجى من المزال والمزالق ، لأن المتقي لله سبحانه يأمن من تقماته وينجو من سطواته فيكون كالملك بعروة الحبل المتين والمستند إلى النصّد الأمين .

١٠٠ - ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام : وهو يتجهز لغزوة تبوك : « إِنِّي عَلَى جَنَاحِ سَفَرٍ » وهذه استعارة واقعة مرقعها ومقوطة^(١) غرضها لأنه عليه الصلاة والسلام شبه السفر بالطائر الذي قد هم بالطار وجعل الأخذ أهبة المسافر كالكاثر على جناح ذلك الطائر ينتهض نهوضه ويرقب تحليقه . ومما يؤكد ذلك قولهم للإنسان الذي تكثر أسفاره ويطول حله وترحاله ما هو إلا طائر طيار عبارة عن التردد في السفر وكثرة الانزعاج عن الوطن .

١٠١ - ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام : « النَّاسُ مَعَادِنٌ » وهذه استعارة لأنه عليه الصلاة والسلام شبه الناس بالمعادن

(١) يقال رمى فقرطس : أى أصاب النرض . والفقرطاس : هر الأديم ينصب للنضال .

التي تكون في قرارات الأرض فلا يحكم على ظواهرها حتى
دقائقها ويستنبط كوامنها فيكون منها اللجين والنصار ويكون
والقار فكذلك الناس لا يجب^(١) أن يحكم على مجاليهم ولا بقه
بواديهم حتى يخبروا ويعرفوا ويشاروا ويُبَحِّثُوا فيُخْرِجَ البعثُ
ويعحص الامتحان مخارمهم فيتبين حينئذٍ كرم النحائر وطيب
وتكشف منهم الطرائق واشيم الخلائق .

١٠٢ - ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام في آخر
خطبها بطن عرقة وذلك في حجة^(٢) الوداع : « أَلَا إِنَّ كُلَّ
مِنْ أَمْرِ الْجَاهِلِيَّةِ تَحْتَ قَدَمِي مَوْضُوعٌ » ، وهذا القول مجاز والم
إذلال أمر الجاهلية وخط أعلامها وتقض أحكامها كما يستدل
الموطوء الذي تدوسه الأخامص^(٣) الساعية والأقدام الواصة فلا
مرفوع إلا وضع ولا قائم إلا صرع

١٠٣ - ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام في
وصى بها أسامة بن زيد لما أراد بعثه إلى مؤتة ليثأر بأبيه زيد في
طويل : « وَأَعْلَمُوا أَنَّ الْجَنَّةَ تَحْتَ الْبَارِقَةِ » وهذا القول مجاز، والبارقة

(١) نعل الصواب لا يجوز لأن عدم الوجوب لا يمنع الجواز

(٢) الحجة (بال كسر) المرة من الحج شاذ والقياس الفتح .

(٣) الأخامص : جمع أخمص (كأفضل) وهو ما لا يقع على الأرض من باطن

السيوف ، وليس الجنة تحتها على الحقيقة وإنما المراد أن الصبر تحتها^(١) للجهاد الكافرين ودفع أعداء الدين يفضى بالصابر إلى دخول الجنة ونزول دار الأمان ، فلما كان ذلك سبب دخولها والوصول إلى نعيمها جاز أن يسميه باسمها . وتظاهر ذلك كثيرة وقد أشرنا في كتابنا هذا إلى بعضها .

١٠٤ - ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام في الكتاب المكتوب بينه وبين قريش في صلح الحديبية^(٢) : « لا إِسْلَاحَ وَلَا إِغْلَالَ وَإِنَّا بَيْنَنَا عِيَّةٌ مَكْشُوفَةٌ »^(٣) ، وهذه استعارة . والمراد بالعيبة المكشوفة السلم الذي يضم الشر ويجمع الأمر ، كأنه عليه الصلاة والسلام شبه حل السلم من أنها تحجز بين الفريقين عن شن الغارات ، وتكف أيديهم عن

(١) أي تحت السيوف .

(٢) الحديبية : موضع قرب مكة نزل به رسول الله حين خرج من مكة في ذي النعدة سنة ست مئتين يسوق إحدى لا يريد حرباً فواسلته قريش ثم كان بينهم صلح هذه قواعده .

ولاً : أن يرجع الرسول من عامه هذا فلا يدخل مكة ، وفي العام التالي يدخلها ويقيم بها ثلاثة أيام على حين تكون قريش قد فرقتها في تلك الأيام .

ثانياً : وضع الحرب بين الطرفين عشر سنين .

ثالثاً : من أتى محمداً من غير إذن ولبسه رده إليهم ، ومن جاء قريشاً ممن مع محمد لا يردونه إليه .

رابعاً : من أحب أن يخالف محمداً خافه ، ومن حالف قريشاً فله ذلك .

(٣) في رواية النهاية : لا إِغْلَالَ وَلَا إِسْلَالَ بفتح إِغْلَالَ عن إِسْلَالَ . وفيها أيضاً وإن بيننا وبينكم عية مكشوفة بزيادة بينكم .

المجاذبات ، بالعيبة المشرجة التي لا تُنشر مطاويها ولا يُنْهَب
وقد يجوز أن يكون معنى ذلك على قول من قال إن الإسلال
والإغلال الحيانة أنه عليه الصلاة والسلام شبه الصلح الواقع بينهم
أموالهم تكون به محروسة وخزائهم محفوظة بالعيبة التي قد استؤ
أشراجها فلا يصل إليها خائن ولا يقدر عليها سارق والمغنيان متنا
ويقال رجل مُسِلَّ مُغَلٍّ: أى صاحب سَلَّة وهى السرقة ومَغَلَّة وهى
وقوله تعالى : «وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ» قرأنا على شيوخنا القراء لأ
وابن كثير وعاصم يَغُلُّ بفتح الياء وضم الغين: أى ما كان له أن يخوز
بقية القراء السبعة يَغُلُّ بضم الياء وفتح الغين : أى ما كان له أن
ويجوز أن يراد بذلك أيضاً ما كان له أن يخون^(١) أى ينسب إلى
وقد قال بعضهم المراد بالإسلال هاهنا سل السيوف وبالإغلال
الدروع ، وهذا القول غير معروف والقول الأول هو القول السَّ
والصحيح المعتمد

١٠٥ — ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام فى الرحم :
شُجْنَةٌ مِنَ اللَّهِ « وفيها لغتان^(٢) شُجْنَةٌ وشِجْنَةٌ ، وهذا القول مجا

(١) أى فيكون الفعل الماضى أغلّه : بمعنى نسبه إلى الغل وهو الحيانة .

(٢) المدد (بالتجريك) كالمداد : الصواب .

(٣) أصحاب الحديث يضبطون الكلمة بالضم والكسر كما فعل صاحب
ولا بد أن يكون هذا مراد المؤلف وإن لم يضبط بالعبارة ، وصاحب
يقول إنها مثلثة .

أصل الشجنة اسم لشعبة من شعب الفصن المتصل بالشجرة ويقال شجر متشجن إذا التف بعضه ببعض . ومنه قولهم الحديث شُجُونٌ وذو شُجُونٍ أى ذو شعب تشعب فيذكر بعضها بعضاً ويجر أول آخرًا . وقيل أيضاً إن الشجون هى الشعاب المتصلة بالأودية فيجوز أن يكون الحديث شبه بها لكثرة طرقه ومداخله ، وتعلق أواخره بأوائله . والمراد بالشجنة هاهنا تشبيه الرحم بالشعبة المتصلة بالشجرة فهى بعض منها ومنتسبة إليها فكذلك الرحم يجب صلتها على من وجب عليه حقها وضرب إليه عرقها . ويجوز أيضاً أن يكون إنما شبت بشجون الوادى لتعلقها به وإضاقتها إليه كما قلنا فى شجون الحديث . وقوله من الله المراد أن الله سبحانه جعل حقها واجباً وذمامها لازماً . وقد يجوز أن يكون المراد بذلك أن الله سبحانه يثبت واصلها ويرعى راعيها فكأنها متعلقة به تعالى على طريق التمثيل لا على طريق التحقيق ليعظم تعالى حقها بترهيب قاطعها وترغيب واصلها .

١٠٦ — ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام : « الْوَلَدُ لِلْفَرَّاشِ وَلِلْعَاهِرِ الْحَجَرُ » ، وهذا مجاز على أحد التأويلين . وهو أن يكون المراد أن العاهر لا شىء له فى الولد فمبصر عن ذلك بالحجر : أى له من ذلك ما لاحظ فيه ولا انتفاع به كما لا ينتفع بالحجر فى أكثر الأحوال كأنه يريد أن له من دعواه الخيبة والحرمان ، كما يقول القائل لغيره إذا أراد هذا

المعنى ليس لك من هذا الأمر إلا الحجر والجلد والتراب والكِثْكُ^(١) أى ليس لك منه إلا ما لا يحصل له ولا متفعة فيه . ومما يؤكد هذا التأويل ما رواه عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده عن النبي عليه الصلاة والسلام قال : الولد للفراش وللعاهر الأثلب ، والأثلب : التراب المختلط بالحجارة . وهذا الخبر يحقق أن المراد بالحجر هاهنا ما لا ينتفع به كما قلنا أولاً ، ومما يصدق ذلك قول الشاعر :

كلّاما يا مُعَاذُ يُحِبُّ لِيلى بِنَى وفيك من ليلي التراب
شَرِّكَتِكَ فى هَوَى مَنْ كَانَ حَظّى وحَظُّكَ من تَذَكُّرِها العذابُ

أراد ليس لنا منها إلا ما لا نفع به ولا حظ فيه كالتراب الذى هذه صفته . وأما التأويل الآخر الذى يخرج الكلام عن حيز المجاز إلى حيز الحقيقة فهو أن يكون المراد أنه ليس للعاهر^(٢) إلا إقامة الحد عليه وهو الرّجْم بالأحجار فيكون الحجر هاهنا اسماً للجنس لا المعهود وهذا إذا كان العاهر محصناً ، فإن كان غير محصن فالمراد بالحجر هاهنا على قول بعضهم الإعناف به والغلظة عليه بتوفية الحد الذى يستحقه من الجلد له . وفى هذا القول تعسف واستكراه وإن كان داخلًا فى باب المجاز لأن الغلظة على من يقام الحد عليه إذا كان الحد جلدا لا رجما لا يعبر عنها بالحجر ، لأن ذلك بُعدٌ عن سنن الفصاحة ودخول فى باب الفهاهة

(١) الكِثْكُ . (بكسر وزجر) : التراب وفتات الحجارة

(٢) العاهر : الزانى ، وأصله الذى يأتى المرأة ليلا ليفجر بها ثم أريد به مطلق الزانى

فالأولى إذاً الاعتماد على التأويل الأول لأنه الأنسب به بطريقهم
والأليق بمقاصدهم^(١)

١٠٧ - ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام : « اللَّهُمَّ إِنَّا
نَعُوذُ بِكَ مِنْ وَعْثَاءِ السَّفَرِ وَكَآبَةِ الْمُنْقَابِ وَالْحَوْرِ بَعْدَ الْكَوْرِ وَسُوءِ
الْمَنْظَرِ فِي الْأَهْلِ وَالْمَالِ » ، وفي هذا الكلام مجازان : أحدهما قوله عليه
الصلاة والسلام : « من وعْثاء السفر » ، وهي فعلاء من الوَعَث وهو
ضد الجَدَد ، والسير فيه يَشُقُّ على القدم والمنْسِم . فجعل عليه الصلاة
والسلام طول السفر وشُقَّتْه وتكاليفه ومشقته بمنزلة الوعثاء التي قاطعها
تَعَبٌ والسارى فيها نَصَبٌ . والمجاز الآخر قوله عليه الصلاة والسلام :
« وَالْحَوْرُ بَعْدَ الْكَوْرِ » ، أى انتشار الأمور بعد انضمامها وانفراجها بعد
التثامها ، وذلك مأخوذ من حَوْرِ العمامة بعد كورها ، وهو تقضها بعد
كَيْهَا ، ونشرها بعد طَيْهَا . وقد قيل : إن معناه القلة بعد الكثرة والنقصان
بعد الزيادة ، فكأنه تعوَّذ من الانتقال عن حال حسنة إلى حال سيئة ،
وعلى ذلك قول الشاعر :

واستعْجَلُوا عَنْ شَدِيدِ الْمَضْغِ فَاْبْتَلَعُوا والذَّمُّ يَبْقَى وَزَادُ الْقَوْمِ فِي حَوْرِ^(٢)

(١) قالوا فى معنى الحديث لاحظ للزائى فى الولد ، وإنما هو لصاحب الفراش : أى

لصاحب أم الولد وهو زوجها أو مولاها .

(٢) لم نجد كلمة حور بمعنى النقصان إلا بفتح الحاء وسكون الواو . أما الحور

(بالتحريك) فهو جمال العين المعروف .

أى فى نقصان ، والمعنيان متقاربان ، وقد روى هذا الكلام على وجه آخر ،
 قليل من الحور بعد السكون بالنون ، من قولهم : حار إذا رجع ، يقولون
 كان على حال جميلة ، فحار عنها : أى رجع عما كان عليه منها . والرواية
 الأولى أعرف عند أهل اللسان وأشبه بمزاوجة الكلام .

١٠٨ — ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام للشارب فى آية
 الذهب والفضة : « إِنَّمَا يُجْرَجُ فِي بَطْنِهِ نَارُ جَهَنَّمَ » ، برفع النار ،
 والأكثر من الروايات على نصبها ، وهذا القول مجاز لأن نار جهنم على
 الحقيقة لا تجر فى جوفه ، والجرجرة صوت البعير عند الضجر والدأب ، قال
 أمروء القيس يصف طريقاً :

على لاجِبٍ لا يَهْتَدَى بِمَنَارِهِ إِذَا سَافَهُ الْعُودُ الذِّفَافِي جَرَجَرًا^(١)
 ولكنه عليه الصلاة والسلام جعل صوت جَرَجَرِ الإنسان الماء فى
 هذه الأوانى المخصوصة لوقوع النهى عن الشرب فيها ، واستحقاق العقاب
 على استعمالها ، كجَرَجَرَةِ نار جهنم فى بطنه على طريق المجاز إذ كان

(١) اللاجب : الطريق البين الذى قد لحبته الحوافر فصارت فيه طرائق . النار
 ما يجعل على الطريق من علامة . سافه : شمه . العود : الجمل المس . الذفافى
 السريع . والمعنى أن هذا الجمل إذا شم تراب هذا الطريق عرف بدمه فأرغى .
 وفى هذا البيت نفي للشيء بإيجابه ، وهذا من المبالغة وهى من حسن الكلام
 لأنك إذا تأملت به وجدت باطنه نفا وظاهره إيجاباً ، لأنه لم يرد أن به منارا
 لا يهتدى به ، ولكنه أراد أنه لا منار فيه فيهتدى به . ومن هنا قوله
 تعالى : لا يسألون الناس إلحافاً : أى ليس يقع منهم سؤاله فيكون إلحافاً .

ذلك مُقَضِّياً به إلى حلول دارها واصطلاؤه نارها ، نعوذ بالله . ونلفظ الخبر
بجر جر بالياء ، والوجه أن يكون تجرجر بالتاء على قول من رواه برفع النار ،
ولكنه لما دخل بين فعل المؤنث وفاعله الذي هو النار لفظ آخر حسن
تذكير الفعل للبعد بينهما كما قال الشاعر :

* لَقَدْ وَلَدَ الْأَخِيْطَلَّ أُمُّ سَوْءٍ *

وقد روى في خبر آخر : كأنما يجرجر في بطنه ناراً . فالإنسان هاهنا فاعل
والنار مفعوله . وعلى هذه الرواية فالمراد كأنما يَجْرُ في بطنه ناراً ، فقال
بجر جر طلباً لتضعيف اللفظ الدال على تكثير الفعل كما جاء في التنزيل
«فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُم وَالْغَاوُونَ» ، والمراد فَكُبُّوا فيجوز على هذا أن يقال
جَرَّ وَجَرَّ جَرَّ كما يقال : كَبَّ وَكَبَّكَبَ . وإن كان الوجه أن يقال :
جَرَّرَ ، وقد جاء في كلام العرب : جَرَّ جَرَّ فلان الماء إذا جَرَّعه ^(١) متواتراً له
صوت كصوت جَرَّ جَرَّة البعير . فيكون المراد على هذا القول كأنما
يتجرع نار جهنم ؛ وهذا أصح التأويلين . فأما آنية الذهب والفضة فلا
يحلّ عندنا الأكل فيها ولا الشرب منها ، ولا يجوز أيضاً استعمالها في
شيء مما يؤدي إلى مصالح البدن نحو الادّهان واتخاذ الليل للاكتحال
والجَمْرَ للبخور . وكنت سألت شيخنا أبا بكر محمد بن موسى الخوارزمي
رحمه الله عند انتهائي في القراءة عليه إلى هذه المسئلة من كتاب الطهارة ،

(١) جَرَّ (كسمع ومنع) : بلع الماء .

عن المدخنة إذ لا خلاف في المِجْمَرَة ، فقال القياس أنها غير مكروهة لأنها تستعمل على وجه التبغ للمِجْمَرَة . فهي غير مقصودة بالاستعمال ، لأن الجِمرَة لو جرّدت من غيرها في البخور لقامت بنفسها ، ولم تحتاج إلى المدخنة مضافة إليها ، فأشبهت الشرب في الإنباء المفضض إذا لم يضع فيه على موضع الفضة وفي هذه المسئلة خلاف للشافعي لأنه يكره الشرب في الإنباء المفضض ، وذهب داود الأصمّهاني إلى كراهة الشرب في أواني الذهب والفضة ، دون غيره من الأكل والاستعمال في مصالح الجسم مُضِيًّا على نهجه في التعلق بظاهر الخبر الوارد في كراهة الشرب خاصة . وليس هذا موضع استقصاء الكلام في هذه المسئلة إلا أن المعتمد عليه في كراهة استعمال هذه الأواني الخبر الذي قدمنا ذكره لما فيه من تغليظ الوعيد ، وقد روى عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال : « مَنْ شَرِبَ بِهَا فِي الدُّنْيَا لَمْ يَشْرَبْ بِهَا فِي الْآخِرَةِ » ، فتثبت بهذين الخبرين وما يجري مجراهما كراهة الشرب فيها ، ثم صار الأكل والادّهان والاكتحال مقبوساً على الشرب بعلّة أن الجميع يؤدي إلى منافع الجسم .

١٠٩ - ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام وقد سئل عن ليلة القدر : « هِيَ لَيْلَةٌ إِنْ حَيَاةً كَأَنَّ قَمَرًا يَفْضَحُهَا » ، وهذه استعارة لأن حقيقة الفضح كشف القبيح ، وهو أن يُكشَفَ على الإنسان رِيبةٌ أو تُثْنَى ^(١) عليه سوءةٌ ، ولكن القمر لما كان كاشفاً للسُدُفَة

(١) ثنى : تعدّ

وصادعاً للظلمة أجراه عليه الصلاة والسلام بُجِرى الثاني للسوءة المُخَفَّاة ،
والكاشف للريبة المغطاة ، وهذه من محاسن الاستعارات ، وقال الشاعر
في فضح الصبح للظلام :

يَا رَبَّ كُلِّ غَائِبٍ وَمُضْطَبِّحٍ وَرَبَّ كُلِّ شَيْطَانِيٍّ مَنسُوحٍ
أَرْسَلْ عَلَى حَوْفَاءٍ فِي الصَّبْحِ الْفَضِيحِ حُورِيْرًا مِثْلَ قَضِيبِ الْمُجْتَدِحِ
* مَتَى نَضَتْ مِنْ كَعْبِهَا عِرْقًا يُرِخُ * *

قوله « حوينا » تصغير حار ، يريد حية طال بقاؤه حتى حار أى رجع
من غلظ وعظم إلى دقة خلق وجسم ، فصار كقضيب المجتدح ، وهو المجدح
الذى يحرك به الشراب والسويق وما يجرى مجراها . ومن كلامهم
رماه الله بأفنى حارية يريدون هذا المعنى ، وقوله « يُرِخ » أى يميمت ،
ومثل ذلك قول العجاج : « أَرَا حَ بَعْدَ الْغَمِّ وَالتَّغْمِغِ » ، أى أُمَاتَ اللَّهُ
بَعْدَ الْكَرْبِ وَالْحَنَاقِ وَقِيلَ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُ يُرِخُ عَائِدًا عَلَى
الْعَرَقِ لِأَعْلَى الْحِيَةِ كَأَنَّهُ قَالَ : مَتَى نَضَتْ مِنْهَا عِرْقًا يَحْدُثُ فِيهِ جَرَحًا إِذَا
قَبَّحَ كَانَتْ عَنْهُ رَائِحَةٌ خَبِيْثَةٌ . والقول الأول أسد ، وعليه المعتمد .

١١٠ — ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام للضَّحَّاكِ
ابْنِ سُفْيَانَ التَّكَلَّابِيِّ وَقَدْ بَعَثَهُ مُصَدِّقًا^(١) : « خُذْ مِنْ حَوَاشِي
أُمُورِهِمْ » ، وهذه استعارة على أصل وضعها في كلام العرب لأنهم
يسمون صفار الأبل حشواً وحاشية كأنهم يشبهونها بمحشو الشيء الذى

(١) المصدق (كحدث) : آخذ الصدقات .

يتأتى ذلك فيه كالمرفقة والحشية لأنها غير معتد بها كما أن الحشر غير معتد به ، وإنما الاعتداد بما هو في ضمنه . ومن هذا الموضع سموا الرذال والطغام من الناس حشواً وقد يجوز أن يكونوا إنما سموها بذلك تشبيهاً بحشوة الإنسان التي هي حوايا جوفه وأمعاء بطنه . يقولون : طعنه فانتشرت حشوته ، وضربه فخرجت حشوته . وإنما قيل لها حشوة خطأً لها عن منزلة ما هو أعلى قدرًا منها من كرائم أعضاء الإنسان التي يشتمل عليها جوفه ، كالقلب والنباط والكبد والفؤاد . وقد يجوز أن يكون إنما سموها بذلك تشبيهاً لها بحواشى الثوب في أنها كالتيغ له وغير قائمه بذاتها دونه ، وكذلك صغار الإبل تابعة لكبارها وغير قائمة بأنفسها ، وعلى مثل هذا المعنى تسميتهم ردىء المال ورذاله من الإبل وما في معناها شوى تشبيهاً له بشوى الإنسان والفرس وغيره من الحيوان ذى الأربع ، وهو الأطراف دون كرام الأعضاء ، وشراف الأحناء . قال الشاعر :

أَكَلْنَا الشَّوْىَ حَتَّى إِذَا لَمْ يَجِدْ شَوْىً أَشَرْنَا إِلَى خَيْرَاتِهَا بِالأَصَابِعِ
أَيُّ أَكَلْنَا رُذَالَ إِبِلِنَا ، فَلَمَّا أَفْقَدْنَاهَا عَطَفْنَا عَلَى خِيَارِهَا ، وَأَشَرْنَا إِلَى
خِيَارِهَا ، فَكَأَنَّهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ : نَهَى أَنْ يَأْخُذَ الْمُصَدِّقُ مِنْ
كَرَائِمِ الإِبِلِ وَعَقَائِلِهَا ، وَأَمَرَهُ بِالْعُدُولِ إِلَى حَشْوِهَا وَأَرَادَ لَهَا رِقَقًا بِأَحْبَابِهَا
وَحَنَوا عَلَى أَرْبَابِهَا .

١١١ - ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام : « بَيْنَ يَدَيِ
الْآعِقِ يَنْطِقُ الرُّؤْيِيصَةُ » ، وهذه استعارة لأنه عليه الصلاة والسلام
أراد أمام الساعة ، فقال : بين يديها تقريباً لهذه الحال من قيام الساعة
لأنه لو قال قبل الساعة لما أفاد ذلك من القرب منها ما أفاد قوله بين
يديها ، لأنك إذا أردت التقريب على من استرشدك مكانا تطلبه ، أو
إنسانا تتبعه قلت له هو بين يديك أى قريب منك ، ولو قلت هو أمامك
لاحتمل البعد والقرب كما أن قبل يحتمل البعد والقرب ، هذا على الأغاب
والأكثر ، وقد يجوز أن يكون قولك أمامك وبين يديك عبارة عن
مراد واحد . وقالوا في الرُّؤْيِيصَةُ هو أمرؤ السوء التافه ، وقالوا هو
الفويسق الخامل^(١)

١١٢ - ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام : في كلام وَصَفَ
به عدة من قبائل العرب « وَغَطَفَانُ أَكْمَةٌ خَشْنَاهُ تَنْفِي النَّاسِ عَنْهَا » .
وهذا القول مجاز ، وذلك أنه عليه الصلاة والسلام شبه غطفان لاشتداد
شوكتها وانقاد جمرتها بالأكمة الشاقة التي تَزِلُّ الأقدام عنها ، وتنقطع
أطباع الراقين دونها ، فجعل امتناع الناس من التعرض لها بمنزلة منعها لهم
من التطرق إليها .

١١٣ - ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام في كلام ذكر فيه

(١) ومعنى الحديث : إن من أشرط الساعة أن يكون لهذا التافه الخامل كلام في
شأن العامة ورأى في تديبرهم .

امراً القيس بن حُجْر « يجيئ يوم القيامة معه لواء الشعراء إلى النار » ، وهذا القول مجاز ، وذلك أنه عليه الصلاة والسلام لم يرد أن امرأ القيس يحمل لواء الشعراء على الحقيقة ، وإنما أراد أنه يجيئ يوم القيامة على مقدمتهم ويدخل النار قبلهم ، كما كان في الدنيا متقدماً لهم ومقدماً عليهم ، وإنما عبر عليه الصلاة والسلام عن هذا المعنى بحمل اللواء لأن حامل اللواء في الجحافل المجرورة يكون متقدماً متبوعاً وناهباً مشهوراً يطمأ الناس على قدمه^(١) ، ويتلاحقون على آثار تقدمه .

١١٤ — ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام : « ما من جرعةٍ يتجرعها الإنسان أعظم أجراً عند الله من جرعة غيظ في الله » ، وهذا القول مجاز ، والمراد بجرعة الغيظ هاهنا الصبر عند الاحتياج ، والكظم عند الانزعاج ، وترك اتباع نوازع النفس ، إلى ما تدعو إليه في تلك الحال من شفاء غيظ ، أو تنفيس كرب ، أو إطلاق عقال ، أو فعل ، مراقبة لله سبحانه ، وتنجزاً لثوابه ، واحتجازاً عن عقابه . وشبه عليه الصلاة والسلام تلك الحال بالجرعة لأن الإنسان كأنه بالكظم لها والصبر عليها قد ضاق بها مرارة ، وأساغ منها حرارة ، وعلى ذلك قول الشاعر :

شربنا الغيظ حتى لو سقيناً دماء بنى أمية ما زوينا

وقد روى هذا الخبر على خلاف هذا اللفظ وهو قوله عليه الصلاة والسلام :

(١) أى على أثر قدمه . أى يتبعونه فتقع أقدامهم على آثاره .

« مَا تَجَرَّعَ عَبْدٌ جُرْعَةً أَحَبَّ إِلَى اللَّهِ مِنْ جُرْعَةٍ مُصِيبَةٍ يَرُدُّهَا بِحُسْنِ عَزَاءٍ أَوْ جُرْعَةٍ غِيْظٍ يَرُدُّهَا بِحِلْمٍ »

١١٥ — ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام في خبر طويل روى عن أنس بن مالك سمعه منه صلى الله عليه وآله في ذكر منافع كثير من بقول الأرض ومضارها ، فقال عليه الصلاة والسلام عند ذكر الجرّجير : « فوالذي نفس محمد بيده ما من عبد بات في جوفه شيء من هذه البقاة إلا بات الجذام يرفرف على رأسه حتى يضح إماما أن يسلم وإما أن يعطب » ، وهذا القول مجاز لأن الداء المخصوص الذي هو الجذام لا يصح أن يوصف بالرفرفة على الحقيقة لأنه عرض من الأعراض. وإنما أراد عليه الصلاة والسلام أن البات على أكل هذه البقاة يكون على شرف من الوقوع من الجذام لشدة اختصاصها بتوليد هذه العلة فإما أن يدفعها الله تعالى عنه فتدفع أو يوقعه فيها فيقع ، وإما قال عليه الصلاة والسلام « يرفرف على رأسه » عبارة عن دنوّ هذه العلة منه فيكون بمنزلة الطائر الذي يرفرف على الشيء إذا همّ بالنزول إليه والوقوع عليه .

بسم الله الرحمن الرحيم

١١٦ — ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام : « وهل يكبُّ الناس على مناخيرهم إلا خصائدُ ألسنتهم » . وفي رواية أخرى : « على مناخيرهم في النار . . . » ، وهذه من الاستعارات العجيبة ، والمراد بها أن أكثر معائر الأقدام ومصارع الأنعام إنما تكون بجراث ألسنتهم عليهم

وعواقب الأقوال السيئة التي تؤثر عنهم ، هذا في الدار الدنيا وعلى التعرف بين أهلها والمتعامل من مجارى عاداتها . فأما في الدار الآخرة فيؤخذون فيها بأثام الأقوال كما يؤخذون بأثام الأفعال فيكفون على مناخرهم في أطوار العذاب وبين أطباق النيران ، نعوذ بالله منها . والعبارة عن هذه الحال بحصائد الألسنة من أحسن العبارات لأنه عليه الصلاة والسلام شبه ما تحذف به ألسنتهم من الأقوال المذمومة التي تسوء عواقبها ويعود عليهم وبأهلها بالزارع الذي يستوي عاقبة زرعه ، والغارس الذي يستمر^(١) ثمرة غرسه ، وهذا كقول القائل لمن أخذ بجريرة ، وعوقب على جريمة : اخضد ما زرعت واستوف أجر ما غرست^(٢) .

١١٧ - ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام : « تدور رَحَا الإسلامِ لِسَنَةٍ كَذَا^(٣) » وهذا مجاز ، والمراد أن الإسلام على هذا العهد يضطرب في قراره ويقلق في نصائه بالولاة الذين يتكبون واضح السبيل

(١) يستمر الثمرة : يجمدها مرة .

(٢) قال صاحب النهاية في تفسير حصائد الألسنة : أي ما يفتطعون من الكلام الذي لا خفيه ، وأحدثها حصيدة تشبها بما يحصد من الزرع وتشبها للسان وما يفتطعه من القول بعد المنجل الذي يحصد به .

(٣) عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم . قال تدور رحا الإسلام بخمس وثلاثين أو ست وثلاثين أو سبع وثلاثين (وفي رواية على رأس خمس وثلاثين) فإن يهلكوا فسبيل من هلك ، وإن يبق لهم دينهم يبق لهم سبعين عاما ، قال قلت : أمما مضى أم مما بقى ؟ قال بقى (كتاب الفتح الرباني)

وتنتفض على أيديهم مِرَر الدين ، فشبه عليه الصلاة والسلام الإسلام بالرحا الساكنة في مستقرها القائمة على قطبها ، فإذا كان الوقت الذي وقع الإيماء إليه دارت دَوْر هَرَج واضطراب ، لادور قوّة واستباب ، ودَوْر الرّحّا يكون عبارة عن حالين مختلفين : إحداهما مذمومة ، والأخرى محمودة : المذمومة هي الحال التي بنى الخبر عليها ، وعلى ذلك كان قول عثمان ابن حنيفة الأنصاري رحمه الله يوم الجمل ، وكان في حيز أمير المؤمنين على عليه السلام ، وقد رأى استحرار القتل واستلحاح الأمر : دارت رحا الإسلام وَرَبَّ الكعبة ، أراد أن الناكثين بيعة أمير المؤمنين عليه السلام وهم أصحاب الجمل قد أزعجوا الإسلام عن مناطه ، وأزحفوه عن قراره وأما الحال الحمودة ، فهي أن يكون دور الرحا عبارة عن تحرك جدّ القوم ، وقوّة أمرهم ، وعلوّ نجمهم . يقال دارت رحا بني فلان ، إذا اتفقت لهم هذه الأحوال الحمودة . ومن هذا القبيل أيضا العبارة بدوران الرحا عن هزم عسكر لعسكر ، وكسر فيلق افيلق قال الشاعر :

طَحَنَتْ رَحًا بَذَرَ لِهَالِكٍ فِتْيَةً وَلِمِثْلِ بَذْرِ تَسْتَهْلِكُ الْأُدْمُعُ
فهذه حال كان دور الرحا فيها محموداً لمن دارت له ، ومذموماً لمن دارت عليه . وإنما قالوا : دارت رحا الحرب لجولان الأبطال فيها ، وحركات الخيل تحتها . وقد روى هذا الخبر على وجه آخر ، وهو قوله : « تزول رحا الإسلام » ، والمراد بذلك أنها تزول عن ثباتها وتميل عن موضع استقرارها

١١٨ — ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام : « مَنْ بَايَعَ إِمَامًا فَأَعْطَاهُ صَفْتَهُ يَدِّدْ وَثَمَرَةَ قَلْبِهِ وَنَخِيلَةَ صَدْرِهِ فَلْيُطِعهُ مَا اسْتَطَاعَ » فقوله عليه الصلاة والسلام : « وَثَمَرَةَ قَلْبِهِ » استعارة لأن المراد بها خالصة صدره . أى بايعه بطاعة صحيحة ، وبنية غير مدخولة ، فشبه عليه الصلاة والسلام ذلك بالثمره لأنها لباب كل شئ ، وخالسته ، وصفوته ، وخلاسته ، ومثل ذلك الحديث الآخر عنه عليه الصلاة والسلام « الولد مَبْنُوعَةٌ مَجْنُوبَةٌ مَجْهَلَةٌ ، ثَمَرَاتُ الْقُلُوبِ ، وَقُرَاتُ الْعَيْنِ » ، أراد عليه الصلاة والسلام أن الأولاد خالصة القلوب والأكباد ، كما أن الثمر خالصة النبات والأشجار . وعندى فى ذلك وجه آخر ، وهو أن الولد من أبيه بمنزلة الثمرة من الشجرة لأنه منه تفرّع ، وبوساطته ظهر وطلع ، فلو قال : الأولاد ثمرات الرجال لكان الغرض صحيحا ، والمعنى مستقيما إلا أنه عليه الصلاة والسلام أضافهم إلى القلوب ، فجعلهم ثماراً لها دون سائر الأعضاء غيرها لأن القلب سيد الأعضاء الرئيسة والأحناء الشريفة ، فحسنت حينئذ إضافة الولد إلى القلب خصوصاً ، وإن حسنت إضافته إلى سائر أعضاء الأب عموماً لأنه عصارة مائه ، وخلصة أعضائه .

١١٩ — ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام ، وقد سأله رجل عما شَبَّهَهُ ؟ فقال : « هُوْدٌ وَأَخْوَاتُهَا قَصَفُنَ عَلَى الْأُمَمِ » ، وهذا القول مجاز لأن أصل القَصَف : كسر الشئ وخطمه . ومن ذلك ما حكى عن بعض

اليهود لما قدم النبي صلى الله عليه وآله وسلم المدينة أن قال : تركت بني قَيْلَةَ يتقاصفون بقباء على رجل يزعم أنه نبي يقول من شدة أزدحمهم عليه كان بعضهم يكسر بعضاً ، ومنه : سميت الريحُ الشديدة قاصفاً ، لأنها تحطم الأشجار وتهدم الجدران . فالمراد بقوله عليه الصلاة والسلام : قَصَفْنِ عَلَى الْأُمَمِ أَنْ هُودَاً وما يجري مجراها من السور أفيض فيها ذكر مهلك الأمم الحالية ، ومصارع القرون الماضية ، فنسب عليه الصلاة والسلام إهلاكهم إلى هذه السورة لما كانت المترجمة عن ذكر هلاكهم ، والهاطقة ثانياً بيوارهم على طريق المجاز والانساع . قوله عليه الصلاة والسلام : « قَصَفْنِ عَلَى » أى تَلَوْنِ عَلَى أخبار تلك الممالك وأنباء تلك المعاطب ، وهذا مجاز آخر لأن السور متلوة وليست بتالية ، ولكنه لما نسب فعل الهلاك إليها وأقامها مقام المهلك المعطب حسن أن يقيمه مقام المتكلم المخبر^(١)

١٢٠ — ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام : « الرَّحِمُ تَتَكَلَّمُ بِلسَانٍ طُلُقٍ ذُلُقٍ تقول : صِلْ مَنْ وَصَلْتَنِي » وقد روى أيضاً بلسانٍ طُلُقٍ ذُلُقٍ بالضم^(٢) فى الحرفين جميعاً ، وهذا الكلام مجاز ، والمراد أن الله سبحانه قد أوجب على خلقه صلة الرحم ، وأمرهم بالعطافة عليها والقيام

(١) فى النهاية فى تفسير هــ هذا الحديث يقول : ذكر لى فيها هلاك الأمم وقس على فيها أخبارهم حتى نقاصف بعضها على بعض كأنها ازدحت بتابعها .

(٢) اللغات الواردة فى هذين اللفظين هى طلق ذلق (كفرج وعنق وصررد وكنتف وبحر . وفى طلق خاصة كسر الأول مع سكون الثانى) .

بالحقوق الواجبة لها . فصارت بظاهر هذه الحال كأنها ناطقة بالحض على صلتها والدعاء لمن وصلها . ومن كلامهم أَطَّتْ بفلان الرحمُ ، والأطيط هاهنا : الصوت فيه بعض الحنين كأنها دعتة إلى أن يرعى ذمتها وذكرته بما يجب عليه لها . ويقولون أَرْزَمَتْ إِلَيْهِ الرِّحْمُ وناشدته الرحم ، وذلك في لسانهم أشهر من أن يحتاج إلى إقامة الشواهد وإيضاح الدلائل .

١٢١ — ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام : « لَا تَمْشُوا عَلَى أَعْقَابِكُمُ الْقَهْقَرَى » وهذه استعارة ، والمراد لا ترجعوا عن دينكم ولا تكفروا بعد إيمانكم فتكونوا كالراجع على عقبه عاكساً لقدمه وناكساً بعد تقدمه . فهذا وجه . وقد يجوز أن يكون المراد لا تَوَلَّوْا عَنِ الدِّينِ راجعين وتلتوا عنه منصرفين ، فمهر عن الرجوع بعد الذهاب بالرجوع على الأعقاب لأن من دعاهم أن يقولوا رجع فلان على عقبه إذا أدبر عن وجهته أو خالف قصد جهته ، والمعنيان متقاربان

١٢٢ — ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام : « مَنْ أَتَاكُمْ وَأَمْرُكُمْ مُجْمَعٌ ^(١) يُرِيدُ أَنْ يَشُقَّ عَصَاكُمْ ، وَيُفَرِّقَ جَمَاعَتَكُمْ فَاقْتُلُوهُ » فقوله عليه الصلاة والسلام « يُرِيدُ أَنْ يَشُقَّ عَصَاكُمْ » استعارة ، والمراد به تفريق أمرهم ، وتشيت جمعهم ، فشبه ذلك بشق العصا ، لأن عن شقها يكون تشظيها ، وتطير الصدوع فيها ، قال الراعي :

(١) الجمع (بالضم) . المجموع كالذخر بمعنى المنخور .

فَتَشَقَّتْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَصَاهُمْ شَقَقًا وَغُودِرَ جَمْعُهُمْ مَقُولًا
 أى انتشرت أمورهم وتفرقت جموعهم . ومثل ذلك من كلامهم قولهم :
 فَضَّ اللَّهُ مَرَوْتَهُمْ ، وهى الصخرة ، وفَضَّ اللَّهُ خَدَمَتَهُمْ ، وهى الحلقة .
 فكانهم شبهوا التثام جموعهم بالصخرة الملمومة ، وشبهوا التحام شؤونهم
 بالحلقة المأطورة^(١) . ويجوز أن يكون لشق العصا وجه آخر ، وهو أن
 يراد به فُلُّ شوكتهم وإيهان قوتهم ، لأن العصا لصاحبها قوة يدفع بها
 وبسطة يعول عليها . ألا ترى إلى قوله تعالى حاكيا عن موسى عليه
 السلام « هِيَ عَصَايَ ، أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا
 مَآرِبُ أُخْرَى » . فيجعل من مراقبتها الاعتماد عليها والهش على الغنم بها ،
 ومن المآرب الأخرى التى فيها أن تكون آلة لدفاعه وعدة لقراءة ، وهى
 بَعْدُ عَوْنُ الْعَاشِي وَهُدَايَةُ لِلْعَاشِي^(٢) وَسَلَاطَةُ^(٣) لِلرَّاعِي .

١٢٣ — ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام : « مَنْ لَبِسَ فِي
 الدُّنْيَا ثَوْبًا شُهْرَةً أَلْبَسَهُ اللَّهُ ثَوْبًا مَذَلَّةً » وهذه استعارة . والمراد أن
 الله سبحانه يشملهم بالمذلة حتى تضافو عليه من جهاته وتلتقى عليه من
 جَنَابَاتِهِ ، كما يشمل الثوبُ بدنَ لا بسه فيكون سادًا لخلله ومغطيًا
 لقرنه . ومعنى هذه المذلة أن يحقره سبحانه فى القلوب ويصغره فى العيون

(١) المأطورة : الملتوية .

(٢) العاشي : الضعيف البصر .

(٣) سلاطة : شدة وقوة .

وربما زيد في هذا الخبر : ألْبَسَهُ اللهُ ثُوبَ مِثْلَةٍ فِي الْآخِرَةِ ، وَالمِثْلَةُ فِي الْآخِرَةِ هِيَ حِرْمَانُ الثَّوَابِ وَإِزْهَالُ الْعِقَابِ .

١٢٤ — وَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ : وَقَدْ جَاءَ رَجُلٌ بِأَمْرَاتِهِ يَشْكُو خُلُقَهَا فَأَخَذَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بِرَأْسَيْهِمَا وَقَالَ : « اللَّهُمَّ أَرِ نَيْتَهُمَا » وَهَذِهِ اسْتِمَارَةٌ ، وَالْمُرَادُ اللَّهُمَّ قَرِّبْ بَيْنَهُمَا وَلَا تُثْمِمْ بَيْنَ خُلُقَيْهِمَا . وَذَلِكَ مَأْخُذٌ مِنَ الْأَرَى وَهِيَ الْآخِثَةُ الَّتِي تَرْبِطُ الدَّابَّةَ إِلَيْهَا فَكَأَنَّهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ دَعَا لِهَمَا أَنْ يَكُونَا كَالْمُتَابِعِينَ عَلَى الْأَرَى ، فِي الْقَارِبَةِ وَالْمُلَازِمَةِ وَعَدَمِ النِّفَارِ وَالْمُبَاعَدَةِ . وَقَدْ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ مَأْخُذًا مِنْ قَوْلِهِمْ : أَرَيْتَ الْعُقْدَةَ إِذَا شَدَّدْتَهَا وَأَحْكَمْتَ عَقْدَهَا فَكَأَنَّهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ دَعَا لِهَمَا بِأَنْ يَكُونَ عَقْدُ الْوُدِّ بَيْنَهُمَا فَتَكُونَ أَخْلَاقُهُمَا مُتَوَافِقَةً وَأَحْوَالُهُمَا مُتَلَاقِقَةً . وَقَدْ يَجُوزُ أَيْضًا أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ مَأْخُذًا مِنْ قَوْلِهِمْ : أَرَى فُلَانًا بِالْمَلِكَانِ إِذَا قَامَ بِهِ فَكَأَنَّهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ دَعَا لِهَمَا بِأَنْ يَثْبِتَا عَلَى الْأَمَّةِ وَيَدُومَا عَلَى الْمُودَةِ ، وَالتَّأَرَى أَيْضًا : التَّوَقُّعُ لِلشَّيْءِ وَالْإِنْتِظَارُ لَهُ قَالَ الشَّاعِرُ :

لَا يَتَأَرَى لِمَا فِي الْقَدْرِ يَرْقُبُهُ وَلَا يَعْصُ عَلَى شَرْسُوفٍ الصَّفَرُ^(١)

١٢٥ — وَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فِي هِجَاءِ شِعْرَاءِ الْإِسْلَامِ لِمَشْرِكِي قَرِيشٍ : « فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَكَاثِمًا يَنْضَحُونَهُمْ

(١) الشَّرْسُوفُ (كَمَصْفُورٍ) : الْغَضْرُوفُ فِي نَهَايَةِ الْأَضْلَاعِ مِنْ جِهَةِ الْبَطْنِ .
الصَّفَرُ (بِالتَّحْذِيرِ) دُودٌ فِي الْبَطْنِ أَوْ شَيْءٌ مِنْهُ يَعْصُ الْغَضْرُوفَ وَالشَّرَاسِيفَ .

بِالنَّبْلِ » ، وقد يجوز أن يكون ذلك مأخوذاً من قولهم : نَضَحَ الشَّجَرُ
بنضح نَضْحاً إذا تَغَطَّرَ للتوريق ، فكأنه عليه الصلاة والسلام قال :
شَقَّقُوا جُلُودَهُم بِبَنِيْلِكُمْ كَمَا تَشَقَّقُ أَلْحِيَةُ^(١) الشَّجَرِ عَنْ طَوَالِعِ أَوْرَاقِهِ
وَنَوَاجِمِ أَفْنَانِهِ .

١٢٦ — ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام وقد كسا أسامة
ابن زيد قُبْطِيَّةً^(٢) فكساها امرأته ، فقال له عليه الصلاة والسلام :
« أَخَافُ أَنْ تَصِفَ حَجْمَ عِظَامِهَا » ، وهذه استعارة والمراد أن القُبْطِيَّةَ
برقتها تَأْصِقُ بالجسم ، فتبين حجم الثديين والرادفتين وما يَشِدُّ من لحم
المضدين والفخذين ، فيعرف الناظر إليها مقادير هذه الأعضاء حتى تكون
كالظاهرة للحظة والممكنة للمس ، فجعلها عليه الصلاة والسلام لهذه الحال
كالواصفة لما خلفها والخبرة عما استتر بها . وهذه من أحسن العبارات
عن هذا المعنى . وهذا الغرض رمى عمرُ بن الخطاب في قوله إياكم ولِبْسُ
القُبْطَاطِي ، فإنها إِلَّا تَشِفَّ تَصِفُ ، فكان رسول الله صلى الله عليه وآله
أَبَا عَذْرُ^(٣) هذا المعنى ، ومن تبعه فإنما سلك نهجه وطلع فَجَّه .

١٢٧ — ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام : « لَا تَقْضِيَةَ فِي

(١) أَلْحِيَةُ : جمع لحاء ، وهو قشر الشجرة .

(٢) قُبْطِيَّةٌ : بضم القاف ثياب تنسب إلى القبط بمصر . وهي نسبة غير قياسية قيل
وقد تكسر القاف فتكون النسبة قياسية .

(٣) يقال فلان أبو عذر هذا المعنى وأبو عذرة : أى هو السابق إلى الاتيان به .
وذلك من قولهم فلان أبو عذرة فلانة : أى هو الذى افتضها .

ميراثٍ إلا فيما حَمَلَ الْقَسَمَ هـ ، وهذه استعارة والمراد بالتعضية التفريق من قولهم : عَضَى الجزور إذا نحرها ، وقسم أعضاءها وفرق أشلاءها ، فشبه عليه الصلاة والسلام الميراث المقتسم بالأعضاء المتفرقة ، والأشلاء الموزعة ، ومعنى إلا ما حَمَلَ الْقَسَمَ : أى ما احتمل إذا قسم أعضاء ، وفرق أجزاء ألا يكون ذلك مضرًا به ومفسدًا له . وما لا يحتمل القسم كالحمام من العقار والثرة من العروض ، وما فى معنى هذين الجنسَيْن من المال الموروث ، وعلى ذلك قول الشاعر :

* وَلَيْسَ دِينَ اللَّهِ بِالْمُعْضَا *

أى ليس الدين بالمفروق الموزع ، ولكنه المضموم المجتمع

١٢٨ — ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام فى كلام : « وَلَا تُسَلِّطْ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ سِوَى أَنْفُسِهِمْ فَتَسْتَبِيحَ بَيْضَتَهُمْ ^(١) » ، وهذه استعارة ، والمراد بالبيضة هاهنا مجتمع أمة عليه الصلاة والسلام ، وموضع سلطانهم ، ومستقر دعوتهم . وشبه ذلك بالبيضة لاجتماعها ، وتلاحق

(١) عن ثوبان عن رسول الله قال « إن الله زوى لى الأرض فرأيت مشارقتها ومقاربها وإن أمتى سيباغ ملكها ما زوى لى منها ، وأعطيت الكثرين الأحر والأبيض وإنى سألت ربى لأمتى ألا يهلكها سنة بعامة وألا يسلط عليهم عدوا من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم وإن ربى قال يا محمد إنى إذا قضيت قضاء فإنه لا يرد وإنى أعطيتك لأمتك ألا أهلكهم سنة بعامة وألا أسلط عليهم عدوا من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم ولو اجتمع عليهم من أقطارها حتى يكون بعضهم يهلك بعضها ويسبي بعضهم بعضا » .

أجزائها ، واستناد ظاهرها إلى باطنها ، وامتناع باطنها بظاهرها . وقد يجوز أن يكون المراد بالبيضة هاهنا المغفر الذى هو من لأمة الحرب ، فكأنه عليه الصلاة والسلام شبه مكان اجتماعهم ، ومظنة اتقادهم والتثامهم ببيضة الحديد التى تحصن الدارع ، وترد القوارع . وكان شيخنا أبو الفتح النحوى رحمه الله يقول : قولهم فيها الجماء الغفير ، يريدون به البيضة التى هى المغفر وسموها جماء للاستها وغفيرا لتغطيتها كأنهم بهذا الكلام يصفون قوما بالقوة والاجتماع ، والكثرة والاحتشاد ، فشبهوا قوتهم بالحديد الذى هو النهاية فى الشدة ، وشبهوا كثرتهم^(١) فى أن بعضهم ليستر بعضا بالمغفر الذى هو غطاء لما تحته من شعر الهامة . وفى هذا الكلام مشكلة من الإعراب ، وهى من مسائل الكتاب^(٢) ، وليس كتابنا هذا مقتضيا لذكرها فنتعاطاه ، لاسيما وغرضنا فيه اتباع نهج الاختصار والانحراف عن طريق الإكثار والإطناب

١٢٩ - ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام : « من كَسَبَ مَالاً مِنْ نَهَائِشٍ أَنْفَقَهُ فِي نَهَائِرٍ » ، وفى هذا الكلام مجاز والمراد بالنهائش على ما قاله أهل العربية اكتساب الأموال من النواحي المكروهة ، والوجوه المذمومة ، ومن غير حلها ، ولا حميد سبلها . وذلك مأخوذ من

(١) أى كثرة الاجتماع فان الكلام تفريع على قوله يصفون قوما بالقوة والاجتماع .

(٢) يريد كتاب سيويه وقد سبق أن أشار إليه هذه الإشارة .

نهش الحية كأنها تنهش من هنا ومن هنا لا تتقى منهاشاً ولا تجتنب ملبساً ،
وذلك ضدّ قوله عليه الصلاة والسلام على أحد التأويلين : « اطلبوا
الْمَالِ مِنْ حِسَانِ الْوُجُوهِ » . أى من وجوه المكاسب الطيبة التى يحسن
الطلب منها ، ولا يذمّ التعرض لها . وقال أبو عبيدة : هو مهاوش بالميم
يريد أخذ المال من التلصص نحو لصوص بنى سعد . وقال غيره : ذلك
مأخوذ من الهوش . يقال : مهاوش القوم إذا اختلطوا . ومنه قوله عليه الصلاة
والسلام : « إياكم وهوشات الأسواق » ، أى اختلاطها وفسادها . والميم
زائدة فى بناء الكلمة ، والمعنى راجع إلى ما قاله أبو عبيدة : لأن الأموال
المأخوذة من التلصص موصوفة بالاختلاط فى أنفسها ، والآخذ لها موصوف
بالتخليط فيها ، وقوله عليه الصلاة والسلام : أتقوه فى نهابر : أى فى الوجوه
الحرمة التى يضيع الإتيان فيها ، ولا يعود إليه تنع منها . وذلك مأخوذ
من نهابر الرمل ، وأحدثها نهبرة ، وهى وهادات تكون بين الرمال
المستعظمة إذا وقع البعير فيها استرخت قوائمه ، ولم يكد يتخلص منها .
ويقال : حفر بين الآكام يصعب السلوك بها وتكثر المعائر فيها ، فكأنه
عليه الصلاة والسلام شبه ما يُكسب من الحرام وينفق فى الحرام بالشئ
الواقع فى عجمة^(١) الرمل لا يرجى وجوده ، ولا ينشد مفقوده ، ومع ذلك
فقد أُرصد لمنفقه أليم العذاب ، وعظيم العقاب .

١٣٠ — ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام فى كتاب كتبه لبعض

(١) العجمة (بالضم والكسر) : ما تفقد من الرمل أو كثرة .

الوفود : « لَا يُبَاحُ مَآوُهُ وَلَا يُعَقَّرُ مَرَعَاؤُهُ » ، وهذه استعارة والمراد به لا يقطع ما فيه من شجر أو كلابٍ إلا بإذن صاحبه ، فشبه عليه الصلاة والسلام ما يقطع من الشجر بما يعقر^(١) من الإبل . وذلك من التشبيهات الواقعة والتشيلات النافعة لأن سقوط الشجر عن قطعها كسقوط البدنة عن عقرها .

١٣١ - ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام : « الْوَلَاءُ لِحِمَّةٍ كُلُّحِمَّةٍ النَّسَبِ لَا يُبَاعُ وَلَا يُوهَبُ » ، وهذه استعارة . لأنه عليه الصلاة والسلام جعل التحام الولي بوليهِ كالتحام النسيب بنسيبه في استحقاق الميراث ، وفي كثير من الأحكام . وذلك مأخوذ من لحمه الثوب وسداه لأنهما يصيران كالشيء الواحد بما بينهما من المداخلة الشديدة والمشابكة الكيدة ، ويقال : لحمه البازي ، ولحمه النسب ، ولحمه الثوب واحد ، وهي المشابكة والمخالطة إلا أنهم فرقوا بين اللفظين ليكون ذلك تمييزاً للمسمين^(٢)

١٣٢ - ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام : « الْمُؤْمِنُ مُؤْمٍ رَاقِعٌ » ، وهذه استعارة . والمراد أن المؤمن إذا أساء أحسن وإذا أخطأ ندم . فكأنه يؤمى دينه بمهصيته ، ويرقعه بتوبته . فشبهه عليه الصلاة

(١) العقر : ضرب قوائم الدابة بالسيف لتسقط حتى يستطاع ذبحها ثم أريد به الذبح نفسه .

(٢) اللحم (بالفتح) : القطعة من اللحم فإن أضيفت إلى البازي قيل لحم البازي (بالضم أو الفتح) وإذا أضيفت إلى النسب قيل لم يكن فيها إلا الضم وقيل جاز الفتح فإذا أضيفت إلى الثوب قيل هو بالفتح خاصة وقيل يجوز فيها الضم . هذه خلاصة ما في كتب اللغة . ولعل المؤلف جرى على الرأي القائل بأنها في النسب تضم لا غير وفي غيره تفتح . فهذا ما أشار إليه بقوله : فرقوا بين اللفظين ...

والسلام بمن يخرق ثوباً ، ثم يبادر رقع ما خرق ، ورتق ما فتق

١٣٣ — ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام : « مَنْ خَلَعَ
يَدًا مِنْ طَاعَةِ لِقَى اللَّهَ وَلَا حُجَّةَ لَهُ » وهذه استعارة . والمراد بخلع اليد
ها هنا الخروج عن طاعة الإمام العادل ، فشبه عليه الصلاة والسلام من
يخرج عن طاعة سلطانه بالأسير الذي نزع يده من ربقته ، وأخرج عنقه
عن جامعته ^(١) ، فكأنه عليه الصلاة والسلام أقام لوازم انطاعة في
الأعناق مقام الجوامع في الأيدي والرقاب ، وجعل الخارج منها كالمارق
من ربة الأسر ، والناصل من مشاة الجبل .

١٣٤ — ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام : « مَنْ كَانَتْ نِيَّتُهُ
الْآخِرَةَ جَعَلَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ غِنَاهُ فِي قَلْبِهِ وَأَتَتْهُ الدُّنْيَا وَهِيَ رَاغِمَةٌ » ،
وهذه استعارة ، والمراد أتته الدنيا من حيث لا يطلبها ودرت عليه منافعها
من حيث لا يحتسبها ، فأقام عليه الصلاة والسلام موافاة الدنيا من غير طالب
مقام إتيانها راغمة وإقبالها عليه ضارعة . وأصل الرغم أن يُلصَقَ الأنف
بالرغام ، وهو التراب ، وقيل الرمل . وليس يكاد يكون ذلك إلا عن غاية
الخشوع ، ونهاية الخضوع .

١٣٥ — ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام : « عَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي
وَسُنَّةِ الْمُهَدِّيِّنَ مِنْ بَعْدِي وَعَصُوا عَنْهَا بِالنَّوَاجِدِ » وهذا مجاز . والمراد

(١) الربة : جبل يقيد به . الجامعة : القيد أيضا ، والربة تكون في العنق والجامعة
في اليد .

أن أقطعوا عليها وقفوا عندها ، ولا تتجاوزوها إلى غيرها . كما أن من شدد العض بنواجذه على الشيء الذي يتأتى فيه القطع قطعه . والنواجذ أقصى الأضراس ، وهي أقواها وأمضاها . وقد يجوز أن يكون المراد الأمر بلزوم سنته عليه الصلاة والسلام كما أن العاض بنواجذه على الشيء الذي لا يتأتى فيه القطع يلزمه أشد اللزوم لقوة العوازم واستحصال اللوازم .

١٣٦ - ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام : « حُبُّكَ الشَّيْءُ يُعْنِي وَيُصِمُّ » ، وهذا مجاز . لأن الحب للشئ على الحقيقة لا يعنى ولا يصم ، وإنما المراد أن الإنسان إذا أحب الشئ أغضى عن مواضع عيوبه كأنه لا ينظرها ، وأعرض عن الملاوم والمعاتب من أجله كأنه لا يسمعها . فصار من هذا الوجه كالأعمى اتقاضيه والأصم لتغاييه .

١٣٧ - ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام : « تَنَامُ عَيْنَايَ وَلَا يَنَامُ قَلْبِي » . وهذا القول عند المحققين من العلماء مجاز . لأنه عليه الصلاة والسلام لو كان قلبه لا ينام على الحقيقة كقلوب الناس لكان ذلك من أكبر معجزاته وأبهر آياته ، ولو جب أن تتظاهر الأخبار بنقله كما تظاهرت بنقل غيره من أعلامه ودلالته . ومما يحقق قولنا مارواه عبد الله ابن عباس رحمهما الله من أنه صلى الله عليه وآله ، نام ونَفَخَ فصلى ولم يتوض ، فقليل له عليه الصلاة والسلام في ذلك ، فقال : ليس الوضوء على من نام قاعداً إنما الوضوء على من نام مضطجعا . وفي بعض الروايات أو

متوركا فإنه إذا نام كذلك استرخت مفاصله . فبين عليه الصلاة والسلام أنه لو نام مضطجعا للزمه الوضوء لاسترخاء مفاصله ، فلو كان قلبه لا ينام لما وجب عليه الوضوء إذا نام مضطجعا كما لا يجب عليه إذا نام قاعداً . وقد يجوز أن يكون المراد بقوله عليه الصلاة والسلام : « تنام عيناي ولا ينام قلبي » أنه لا يعتقد في حال نومه من الرؤيا الفاسدة والمنامات المتضادة ما يعتقد غيره من سائر البشر فيكون في حكم المستيقظ وبمنزلة المتحفظ

١٣٨ - ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام : « إياكم والمُشارَة

فإنها تُخَيِّ العُرَة وتُمِيتُ العُرَة^(١) » ، وهذه استعارة عجبية والمراد بها أن مشاركة الناس تظهر المعاييب وتخفي المناقب لأن المَهازِر المشاعِب لا يقدر لخاصمه على مثلبة إلا بحثها ، ولا يجد له منقبسة إلا دقها ، فكأنه يميت محاسنه ويحيي مساويه ، وجعل عليه الصلاة والسلام العُرَة في مكان المنقبسة لتجمل الإنسان بنشرها ، وجعل العُرَة^(٢) في مكان المثلبة لتهجن الإنسان بكشفها ، وقد قيل إن المراد بالعُرَة^(٣) هاهنا النفيسة من المال ، ومنه قول الشاعر :

* غَرِيرُ التَّلَادِ مُنِيلُ الطَّعَامِ^(٤) *

(١) ورواية السائق للزمخشري : إِيَاكُمْ ومشارَة الناس فإنها تدفن العُرَة وتظهر العُرَة

(٢) العُرَة : العُور وعذرة الناس .

(٣) في القاموس المحيط : العُرَة من التاع خياره .

(٤) هذا شطر بيت وقد ورد في الأصل هكذا :

شهاد أنجبة الكرام غرير التلاد منيل الطعام

ولم نستطع تصحيح الشطر الأول ولا امتدنا إلى أصله .

أراد بغرير التلاد كرائم المال ، والمراد بالعرّة : البلاء والهلاك مأخوذة من العرة ، وهى قروح تصيب الإبل ، وهذا القول ذكره أبو عبيدة ، والقول الأول أشبه بظاهر الكلام وأبعد من الاعتساف والاستكراه ، ومما يؤكد ذلك ما روى عن جدنا الصادق جعفر بن محمد عليه وعلى آباءه السلام أنه قال : إياكم وتعداد العرّة فإنها تكشف العورة وتورثُ المعرّة . فهذا كالبيان لذلك الإجمال ، والإخراج من ذاك الاحتمال .

١٣٩ — ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام : « دَبَّ إِلَيْكُمْ دَاءُ الْأَثَمِ مِنْ قَبْلِكُمُ الْحَسَدُ وَالْبَغْضَاءُ ، وَهِيَ الْحَافِقَةُ حَافِقَةُ الدِّينِ لَا حَافِقَةُ الشَّعْرِ » وهذه استعارة . والمراد بالحافقة هاهنا المبيّة المهلكة : أى هذه الخلة المذمومة تهلك الدين ، وتستأصله كما تستأصل الموسى الشعر ، والمقراضُ الوبر ، وعلى هذا قول الشاعر :

أُرْسِلَ عَلَيْهِمْ سَنَةٌ قَاشُورَةٌ تَحْتَلِقُ النَّاسَ احْتِلَاقُ النَّوْرَةِ^(١)

أى تبيد الناس ، فتأتى على نفوسهم ، أو تأتى على أموالهم من الإبل والشيء ، فتكون كأنها قد أتت على نفوسهم بإتيانها على ما هو قوام

(١) القاشور والقاشورة : العام الذى يفتر كل شئ . النورة (بالضم) : حجر الكاس ثم غلبت على أخلاط تضاف إلى الكاس من زرينخ وغيره وتستعمل لإزالة الشعر . وهذا البيت ورد فى الأصل هكذا :

أُرْسِلَ عَلَيْهِمْ شَيْءٌ مِثْلُ مَسُورَةٍ تَحْتَلِقُ النَّاسَ اخْتِلَافُ النَّوْرَةِ
والفرق بين الأصل والتصحيح يدل على مقدار عنائنا فى رد هذا الكتاب إلى الصواب جهد طاقتنا .

نفوسهم ، وإنما جعل عليه الصلاة والسلام البغضاء حائقة للدين لأنها سبب التفاني والتهالك والإيقاع في المعاطب والممالك ، والداعى إلى سفك الدم الحرام ، واحتمال أعباء الآثام

١٤٠ - ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام : « قَيِّدُوا الْعِلْمَ بِالْكِتَابِ » وهذه استعارة ، لأنه عليه الصلاة والسلام جعل ضروب العلم بمنزلة الإبل الصعاب التي تَشْرُدُ إن لم تعقل وتَنْدُ إن لم تقيد ، وجعل الكتاب لها بمنزلة الأقياد المانعة والعقل اللازمة . ومن هناك أيضاً سموا مثل شكل الخطّ تقييداً ، فقالوا : خط مقيدٌ بالشكل كأنه حفظ عليه إيضاحه في إفهامه ، ولولا الشكل لضلّ بيانه وأنكر عرفانه ، ومما يشبه ذلك الحالُ التي من أجلها سمى العقل عقلاً ، وهو عندنا أسم العلوم مخصوصة يطول بتعدادها الكتاب منها العلم بمجاري العادات . ومنها العلم بالمشاهدات ، وهو أقوى هذه العلوم وأولاها بالتقديم لأن الإنسان إذا لم يعلم المشاهدات لم يصحّ أن يعلم شيئاً غيرها من المعلومات . ومنها العلم بأن الشيء لا يخلو من وجود أو عدم ، والموجود لا يخلو من حدوث أو قدم ، وأن الجسم لا يجوز أن يكون في مكانين في وقت واحد ، والجسمين لا يصحّ كونهما في مكان واحد في حال واحدة . ومنها العلم بقبح كثير من المقبحات : كنفخ الظلم والكذب الذي ليس فيه جرّ منفعة ، ولا دفع مضرة ، والأمر بالقبيح ، وكفران النعمة ؛ ومنها العلم بحسن كثير من الحسنات : كنفخ إرشاد الضال . وبذل الأفضال . ومنها العلم بوجوب

كثير من الواجبات : كتنحو الإنصاف والمعدل ، وشكر المنعم ، وترك
الظلم . ومنها العلم بتعلق الفعل بالفاعلين ، والاضطرار عند أحوال مخصوصة
إلى كثير من قصود المخاطبين . ومنها معرفة ما يمارسه الإنسان من الصنائع
المتعاطاة ، والحرف المعانة . ومنها معرفة ما يسمعه من مخبر الأخبار إذا
كان المخبرون عدداً مخصوصاً ، وكانوا عالمين بما أخبروا به اضطراراً ،
وقد تركنا ذكر كثير من هذه الأقسام عدولاً إلى جانب الاختصار .
وذكر لي قاضى القضاة أبو الحسن عبد الجبار بن أحمد عند قراءتي عليه
ما قرأته من كتابه الموسوم بالعمد فى أصول الفقد أن هذه العلوم المتخصصة
إنما سميت عقلاً لأنها تعقل عن فعل المقبحات ، وذاك لأن العالم بها إذا
دعته نفسه إلى ارتكاب شيء من المقبحات منعه علمه بقبوحه من ارتكابه
والإقدام على طرق يابيه تشبيهاً بمقال الناقة المانع لها من الشرود
والخائل بينها وبين النهوض ، ولهذا المعنى لم يوصف القديم تعالى بأنه
عاقل لأن هذه العلوم غير حاصلة له إذ هو عالم بالمعلومات كلها لذاته . قال :
وقيل أيضاً إنما سميت هذه العلوم المتخصصة عقلاً ، لأن ما سواها من
العلوم يثبت بثباتها ويستقر باستقرارها تشبيهاً بعقال الناقة الذى به تثبت فى
مكانها ، ومثل ذلك قيل : عقل الجبل المكان الذى يلجأ إليه ويعتصم به
وله سميت المرأة عقيلة ، وهى التى يمنعها شرف بيتها ، وكرم أصلها ، وقوة
حزمها من الإقدام على ما يشينها ، والتعرض لما يعيبها ، والكلام فى

تفصيل هذه العلوم ، وبيان ما لأجله احتيج إلى كل واحد منها يطول ،
وليس هذا الكتاب من مظان ذكره ومواضع شرحه

١٤١ — ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام : « سَيَخْرُصُونَ
بَعْدِي عَلَى الْإِمَارَةِ ، فَنِعِمَّتِ الْمَرْضِعُ وَبِئْسَتِ الْفَاطِمَةُ » ، وهذه استعارة
كأنه عليه الصلاة والسلام أقام الإمامة في حلاوة أوائلها ، ومرارة
أواخرها مقام المرضع التي تحسن الرضاع ، وتسيء القطام ، وهذا من أوقع
تشبيهه وأحسن تمثيل ، لأن مداخل الإمامة محبوبة ، ومخارجها مكروهة
لما في المداخل إليها من قضاء الأرب ، وعلو الرتب ، ولما في المخارج
عنها من طرق السوء وشمات العدو .

١٤٢ — ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام : « لَا تُغَالُوا
بِمُهْوَرِ النِّسَاءِ ، فَإِنَّمَا هِيَ سَقِيَاءُ اللَّهِ سُبْحَانَهُ » وهذه استعارة ، والمراد
إعلامهم أن وفاق النساء المنكوحات ، وكونهن على إرادات الأزواج ليس
هو بأن يزداد في مهورتهن^(١) ، ويغالى بصدقاتهن ، وإنما ذلك إلى الله
سبحانه ، فهي كالأحاطى^(٢) والأقسام والجدود والأرزاق ، فقد تكون
المرأة مزورة الصداق واقعة بالوفاق ، وقد تكون ناقصة الثقة ، وإن كانت
زائدة الصدقة . فشبه ذلك عليه الصلاة والسلام بسقيا الله يرزقها واحد

(١) مهورة : جمع مهر كجمع وبعولة ولحل وغفولة .

(٢) الأحاطى : المخطوط واحدتها حظ (بحت) .

ويحرمها آخر ، ويصاب بها بلد ، ويمنعها بلد . وهذه من أحسن العبارات عن المعنى الذى أشرنا إليه ودللنا عليه .

١٤٣ — ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام فى جملة كلام ضربه مثلاً : « إِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ جَعَلَ الْإِسْلَامَ دَارًا ، وَالْجَنَّةَ أَدْبَةً ، والداعى إليها محمداً صلى الله عليه وآله » ، وهذا الكلام مجاز لأنه عليه الصلاة والسلام أقام الإسلام مقام الدار المنتجة ، والجنة مقام المأدبة المصطنعة ، والنبي عليه الصلاة والسلام مقام الدال عليها والداعى إليها . وإنما شبه عليه الصلاة والسلام الإسلام بالدار من حيث كان جامعاً لأهليه حامياً لمن فيه ، وشبه الجنة بالمأدبة من حيث كانت مجتمع الشهوات ، ومنتجع اللذات ، وشبه نفسه عليه الصلاة والسلام بالداعى إليها من حيث كان المرشد إلى الإسلام ، والهادى للأنام ، صلى الله عليه وآله الطيبين الأخيار .

١٤٤ — ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام : « أَنَا النَّذِيرُ وَالْمَوْتُ الْمَغِيرُ » ، وهذه من الاستعارات الناصعة ، والمجازات الواضحة ، لأن الاستعارة على ضربين : ظاهرة تعرف بحليتها ، وغامضة يضطر إلى استنباط خبيتها ، فكأنه عليه الصلاة والسلام شبه الموت الذى يطلع الثنايا ، ويطلب البرايا بالجيش المغير الذى يهجم هجوم السيل ، ويغرق طروق الليل ، وشبه نفسه عليه الصلاة والسلام بالندير المتقدم أمامه ، يحذر الناس من فجيئته لِيُعَذُّوا الْعِتَادَ ، ويتزودوا الأزواد وهذا القول منه

عليه الصلاة والسلام تصديق لقول الله سبحانه فيه : « إِنَّ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُمْ بَيْنَ يَدَيَّ عَذَابٍ شَدِيدٍ » . وقد تكلمنا على هذه الآية في كتابنا الموسوم بمجازات القرآن . ويقال إنه عليه الصلاة والسلام لما نزلت هذه الآية أتى على أبي قُبَيْشٍ ونادى : يا صباحاه ، فلما اجتمع الناس إليه قال لهم يا معشر قريش : لو كنت مخبركم بأن جيشاً يطلع عليكم من هذه الثنية أكنتم مُصَدِّقِي ؟ قالوا أجل والله ما علمناك إلا صادقاً مُصَدِّقاً . قال : فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد . فلما سمعو ذلك انفضوا عنه أرتكاساً في الغواية واتباعاً للضلالة . ولقد أحسن صلى الله عليه وآله ضرب المثل لهم وسلك الطريق الأنحصر في حياتهم^(١) وتقريب الأمر عليهم ، ولكن عَشُّوا عن النور الأبلج ، وأبوا غير الطريق الأعوج .

١٤٥ — ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام في وصف الفرس الذي جاء سابقاً : « إِنَّهُ لَبَحْرٌ » ، وهذا مجاز وربما طعن بعض الجهال بمنايح كلام العرب في هذا القول بأن يقول : كيف شبه عليه الصلاة والسلام سرعة جرى الفرس بالبحر والبحر راكد لا يجري وقائم لا يسرى؟ فجوابه أن يقال : إنما شبه عليه الصلاة والسلام اتساعه في الجرى باتساع ماء البحر ألا تراهم يقولون إنه لواسع الحُضْرُ وَوَسَاعُ^(٢) الخطو يريدون

(١) يريد ضمهم إليه .

(٢) الوساع (كسحاب) : الجواد الواسع الخطو

هذا المعنى . والبحر في كلام العرب الشيء الواسع ، ومن هناك سموا البلدة التسعة الأقطار بحراً ، وقد يجوز أن يكون المراد بتشبيهه بالبحر أن جريه غزير لا ينفد كما أن ماء البحر كثير لا ينضب . ويقال للفرس الكثير الجرى : بحرٌ وَفَيْضٌ وَسَكْبٌ . وعلى هذا قول الشاعر :

* وفي البحور تفرقُ البُحُورُ *

قيل أراد الخيل السابقة التي تسبقها خيل أسبق منها ، فقد بان أن التشبيه واقع موقعه ، وأن الطائفتين فيه لم يفهم غرضه .

١٤٦ - ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام : « أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِأَحَبِّكُمْ إِلَيَّ وَأَقْرَبِكُمْ مِنِّي مَجَالِسَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ؟ أَحَاسِنُكُمْ أَخْلَاقًا الْمُوْطَأُونَ أَكْنَفًا الْمَدِينِ يَا لَفُؤَنَ وَيُؤْلَفُونَ . أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِأَبْغَضِكُمْ إِلَيَّ وَأَبْعَدِكُمْ مِنِّي مَجَالِسَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ؟ الثَّرَاوُونَ الْمُتَفَهِّقُونَ » ، فقوله عليه الصلاة والسلام : « الثَّرَاوُونَ الْمُتَفَهِّقُونَ » استعارة والمراد به الذين يكثر الكلام ، ويتعمقون فيه طلباً للتكلف ، وخروجاً عن القصد ، وتباعداً عن الحق ، وأصل الثَّرَار مأخوذ من العين الثَّرَاة ، وهي الواسعة الأرجاء الغزيرة الماء . يقال : عين ثرة وثرثرة ، وبذلك سمي الثَّرَار ، وهو النهر المعروف بالشام ، وقال الأخطل :

لعمري لقد لاقت سُليماً وعامراً
على جانب الثَّرَار راغية البكر

قال المبرد : وليست الثَّرَّة عند النحويين البصريين من لفظ الثَّرَاة ،

ولكنها في معناها . وقوله عليه الصلاة والسلام : « المتفهبون » يريد به ما يريد بقوله : « الثرثارون » ، ومتفهب متفيعل من قولهم : فهب الغدير يفهب إذا كثر ماؤه وطمت جماته^(١)

١٤٧ — ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام في وصية لمعاذ ابن جبل : « وَأَمِيتْ أَمْرَ الْجَاهِلِيَّةِ إِلَّا مَا حَسُنَ » ، وهذه استعارة والمراد توصيته بأن يحيل أمر الجاهلية بنقض أحكامها وتخفيض أعلامها حتى ينسى ذكرها ويغفر أثرها ، فتكون كالميت الذي نسي ذكره وانقطع خبره

١٤٨ — ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام : « الصَّوْمُ جُنَّةٌ وَالصَّدَقَةُ تُطْفِئُ الْخَطِيئَةَ » ، وهاتان استعارتان [إحداهما] قوله عليه الصلاة والسلام : « الصوم جنة » . والمراد أن الصائم الذي يخلص في صومه ، ويستكمل آخر يومه يكون بالإخلاص في ذلك الصوم كأنه قد لبس جنة من العقاب ، وأخذ أماناً من النار . وللصوم مزية على سائر العبادات في هذا المعنى ، وإن كانت إذا أدت على شروطها بهذه الصفة . وذلك أن الصيام لا يظهر أثره بقول اللسان ولا فعل الأركان ، وإنما هو نية في القلوب وإمساك عن حركات المطعم والمشرب . فهو يقع بين الإنسان ، وبين الله خالصاً من غير رياء ولا نفاق ، وسائر العبادات وضروب القرب والطاعات قد يجوز أن يفعل على وجه الرياء والسمعة

(١) طم الماء : غمر وزاد وعلا . الجمات : ما تجمع من الماء .

دون حقائق الإخلاص والطاعة . وقال لى أبو عبد الله محمد بن يحيى
الجرجاني : العقبة عند أصحابنا أن الصلاة أفضل من الصيام لأنها تتضمن مافى
الصيام من الإمساك ، وفيها مع ذلك الخشوع وتلاوة القرآن ، وقال النبي عليه
الصلاة والسلام : « لَا يَزَالُ الْبَدَنُ فِي جِهَادِ الشَّيْطَانِ مَا دَامَ فِي صَلَاتِهِ » ،
فجعل الصلاة أيضاً تتضمن معنى الجهاد فأما ما روى فى الخبر من أنه عليه
الصلاة والسلام قال حاكياً عن الله تعالى : « كُلُّ عَمَلٍ ابْنِ آدَمَ لَهُ
إِلَّا الصَّوْمَ فَإِنَّهُ لِي وَأَنَا أَجْزَى بِهِ » . فليس ما فيه من تفضيل الصوم
بدالاً على أن غيره من العبادات ليس بأفضل منه ، وإنما وجه اختصاصه
بالذكر من بين العبادات على التعظيم له لأجل ما قدمنا ذكره من أنه
لا يفعل إلا على محض الإخلاص ، ولا يتأتى فى حقيقته شىء من الرياء
والنفاق ، وقد جاء عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال : « لَيْسَ فِي الصَّوْمِ
رِيَاءٌ » ، وهذا بيان للمعنى الذى تكلمنا عليه .

وحكى عن سفيان بن عيينة فى تفسير هذا الخبر أنه قال : الصوم هو
الصبر ، لأن الإنسان يصبر عن المعظم والمشرى والمنكح ، وقد قال تعالى :
« إِنَّمَا يُؤَنِّفُ الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ » . يقول : فتواب الصوم
ليس له حساب يعلم من كثرتة على قدر كلفته ومشقته .

والاستمارة الأخرى قوله عليه الصلاة والسلام : « والصدقة تطفي الخطيئة » ، وذلك أنه عليه الصلاة والسلام جعل الخطيئة بمنزلة النار من حيث كانت مفضية إلى عذاب النار ، وجعل الصدقة مطفئة لها إذا كثرت ، فأثرت في سقوط عقابها . وهذا القول يصح على طريقة من يقول بالموازنة^(١) ، فإذا كان عقاب الخطيئة مائة جزء ، وكان ثواب الصدقة خمسين جزءا سقط من أجزاء العقاب بقدر أجزاء الثواب . فكان الصدقة بنقصانها من قدر العقاب قد أطفأت وقدرته ، وكسرت سؤرته ، وكان أبو هاشم يختار في الإحياط والتكفير الموازنة ، وكان أبو علي يقول : إن الزائد يسقط الناقص من الثواب والعقاب ، لا على طريق الموازنة ، ولا يجوز أن يتساوى ما يستحق على الطاعة وما يستحق على المعصية . لأنهما لو تساويا لسقطا ، فلم يكن المكلف مستحقاً لحمد ولا ذم ، ولا مستوجباً لثواب ولا عقاب ، وقد آمننا بالإجماع من ذلك ، فالأمة مجمعة على أن كل من كلفه الله سبحانه في الدار الدنيا فهو في يوم المعاد في إحدى الدارين مثاباً أو معاقباً ، ويبين ذلك قوله سبحانه : « فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ » ، والكلام على تفصيل هذه الجملة يخرجنا عن غرض الكتاب ، ويدخلنا في باب الإطناب .

— ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام : لكعب بن عُجْرَةَ

(١) . القول بالموازنة رأى لبعض المعتزلة .

« يا كَعْبَ بنِ عُجْرَةَ : الناس غَدِرَ يان ، تُغَادِرُ مُبْتَاعُ نَفْسُهُ فَمُعْتِقُهَا ، وَغَدِرَ بَائِعُ نَفْسِهِ فَمُؤَبِّقُهَا » وهذه استعارة ، والمراد أن أحدها عصم نفسه من اتباع الشهوات ، وركوب الموبقات ، وقام بوظائف الواجبات فأمره خسر العقاب وتقاش الحساب . فكأنه ابتاع نفسه بذلك فأعتقها واستشلاها واستنقذها ، والآخر أتبع نفسه هواها ، وأوردها رداها بالتهوؤك^(١) في المفاوى ، والارتكاس^(٢) في المفاوى ، والتقاعس^(٣) عن الواجبات ، والإسراع إلى المقبحات . فكأنه باع نفسه بذلك فأوردها وعرضها للهلكة فأوردها . وهذه من أحسن العبارات عن المطيع الناجي بطاعته ، والعاصي المهالك بمعصيته

١٥٠ — ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام : « إن من أشراطِ الساعةِ سوءُ الجوارِ ، وقطيعةُ الأرحامِ ، وأنَّ يُعطَلَ السيفُ من الجهادِ ، وأنَّ تُختَلَ الدنيا بالدينِ » ، والكلمة الأخيرة داخلة في باب المجاز ، والمراد بها النهي عن طلب منافع الدنيا وحطامها ، واستدرار أحلامها وموادها ، بإظهار الورع ، وإبطان الطمع ، فكأن الإنسان بذلك يُختَل^(٤) الدنيا

(١) التهوك : التهور والوقوع في الشيء بلا مبالاة .

(٢) الارتكاس : الوقوع .

(٣) التقاعس : التواني والعمود عن الشيء .

(٤) ختل الصائد الصيد : إذا استخفى له ليعيب غرة

ليرمى ثغرتها ، ويصيب غرّتها . كالصائد الذي يَخْتَلُ الوحش بضروب
الحَيْل حتى يَعْلَقَ في حباله ، وَيَنْشِبُ في أَشْرَاكه ، وعلى ذلك قول
الْكُمَيْتِ بن زيد :

وَإِنِّي عَلَى حُبِّهِمْ وَتَطَلَّمِي إِلَى نَصْرِهِمْ أَمْشِي الضَّرَاءَ وَأُخْتَلُ^(١)
وقد يجوز أن يكون المراد ، وأن يَخْتَلُ أهل الدنيا بالدين^(٢) ، فحذف
المضاف ، وأقام المضاف إليه مقامه على مثال قوله سبحانه : « وَأَسْأَلُ الْقَرْيَةَ »
وهذا النوع في الكلام لا يحصى كثرة .

١٥١ — ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام في كلام طويل :
« وَلَا تَكَلِّمِ الْيَوْمَ بِكَلَامٍ تَعْتَذِرُ مِنْهُ غَدًا وَأُخْزِنُ لِسَانَكَ » وهذه
استعارة ، والمراد بِخَزْنِ اللسان حفظ فئاته ، وكَفَّ جَمَاحاته حتى لا يسرع
إلى ما تسوء مغبته ، ولا تُؤْمِنُ عاقبته ، فأقام عليه الصلاة والسلام ضبط
اللسان عن ذلك مقام الخَزْنِ له ، فأجراه مُجْرَى المال الذي يحفظ فلا ينفق
إلا في الوجوه المفيدة ، والخارج المضرّة ، ولا يكون إنفاقه إلا فيما جر
منفعة ، أو دفع مضرّة .

١٥٢ — ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام من جملة كلام :
« الْعِلْمُ خَلِيلُ الْمُؤْمِنِ ، وَالْحِلْمُ وَزِيرُهُ ، وَالْعَقْلُ دَلِيلُهُ ، وَالْعَمَلُ قِيَمُهُ ،

(١) الضراء (كسحاب) : الاستخفاء :

(٢) وعلى هذا الرأي يقرأ الفعل تختل بالبناء للفاعل .

وَاللّٰينَ أَخُوهُ ، وَالرَّفْقُ وَالِدُهُ ، وَالصَّبْرُ أَمِيرُ جُنُودِهِ » ، وهذه الألفاظ كلها مستعارة ، ونحن بتوفيق الله نتكلم عليها ، ونبين مواضع الاستعارة منها ، فالمراد بقوله عليه الصلاة والسلام : « العلم خليل المؤمن » أنه يأنس به من الوحشة ، ويسكن إليه في الوحدة كما يأنس الخليل بخليله ويسكن الحميم إلى حميمه . والمراد بقوله عليه الصلاة والسلام : « والحلم وزيره » أنه يقوى به على الأمور ، ويوازره على كظم المكروه ، والمراد بقوله عليه الصلاة والسلام : « والعقل دليله » أنه بالعقل يهتدى في ظلم المشكلات ، وينجو من مضايق الغمرات ، فهو كاللليل الذي يرشد في المضال ، ويجنب عن المزال . والمراد بقوله عليه الصلاة والسلام : « والعمل قيمته » أن العمل يشق ميله ، ويقوم زلله ويسد خلله ، فهو كالقيم الذي يأتي لمصالح ما يقوم عليه ومرشد ما يوكل إليه ، والمراد بقوله عليه الصلاة والسلام : « واللين أخوه » أن اللين يفيد مؤاخاة الإخوان ومخالصتهم ، ويحفظ عليه صفاءهم ومودتهم ، فجعله عليه الصلاة والسلام أخاه من حيث كان سبباً لاجتلاب الإخوان إليه ، وحفظ المودات عليه ، والمراد بقوله عليه الصلاة والسلام : « والرفق والده » كالمراد بقوله : واللين أخوه ، لأن الرفق يقبل إليه بالقلوب ، ويظأر عليه كوامن الصدور ، فيصير كل واحد في الحنو عليه ، والميل إليه ، كالوالد الرءوف ، والجد العطوف ، والمراد بقوله عليه الصلاة والسلام : « والصبر أمير

جنوده» أن الصبر ملك أمره ، وشداد أزره ، وبه تُبلغ الآراب ، وتدرك الحباب ، فهو كأمير جنده الذي يقوى به على أعدائه ، ويصل به إلى أغراضه وطلباته . وقد يجوز أن يكون المراد أن الصبر رأس خلاله ، ورئيس خصاله ، فهو متقدم عليها وكالأمير لسايرها كما أن الأمير متقدم على رعيته ، وله شأن على من في طبقته .

١٥٣ - ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام في جملة كلام : «وَالْمُهْلِكَاتُ شُحٌّ مُطَاعٌ ، وَهَوًى مُتَّبَعٌ ، وَإِعْجَابُ الْمَرْءِ بِنَفْسِهِ » ، قوله عليه الصلاة والسلام : « شُحٌّ مُطَاعٌ » استعارة كأنه أقام الشح مقام الأمر بالإمساك ، والخوف من عواقب الإتيان ، وأقام البخل مقام الطمع لأمره . والمتصرف على حكمه . وقد بين عليه الصلاة والسلام ذلك في خطبة له ، فقال : « وَإِيَّاكُمْ وَالْبُخْلَ فَإِنَّهُ أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ . أَمَرَهُمْ بِالْقَطِيعَةِ فَقَطَعُوا ، وَأَمَرَهُمْ بِالْفُجُورِ فَفَجَرُوا » ، فبين عليه الصلاة والسلام كيف يكون البخل أمراً مطاعاً ، وقائداً متبوعاً . وهذه أيضاً استعارة أخرى لأن البخل على الحقيقة لا يكون أمراً ناهياً ، ولا قائداً مخاطباً . والمراد بقوله عليه الصلاة والسلام : «أمرهم بالقطيعة فقطعوا» أن البخلاء يضنون بما لهم على أهل الحاجة من أقربائهم ، وأولى الخلة من ذوى أرحامهم ، فيكونون بذلك قاطعين للرحم القريبة ، وعاقين لأعراق الوشيعة ، والمراد بقوله عليه الصلاة والسلام : «وأمرهم بالفجور ففجروا» أن البخل حشن

لهم منع الأموال من الإثاق في الحقوق ، وإسلاكها سبل المعروف ،
فأجرى عليهم لهذه الحال اسم الفجور .

١٥٤ — ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام : «الكلمة الحكيمة
ضالة الحكيم حَيْثُمَا وَجَدَهَا فَهُوَ أَحَقُّ بِهَا» ، وهذه استعارة . وذلك أنه
عليه الصلاة والسلام جعل الكلمة الحكيمة للحكيم بمنزلة الضالة التي هو
ناشد لها وساع في طلبها ، لأنها أشبه بحكمته وأولى بالانضمام إلى أخواتها
في قلبه ، فحيثما سمعها من قائل غير حكيم أو مرشد غير رشيد ، فهو
أحق بالحيازة لها والغلبة عليها . ويشهد بذلك ما روى في الحديث الآخر :
«إِنَّ الْكَلِمَةَ الْحَكِيمَةَ تَكُونُ فِي قَلْبِ الْمُنَافِقِ ، فَلَا تَزَالُ تَنْزِعُ حَتَّى تَلْحَقَ
بصواحبائها في قلب المؤمن» ، فكانها جعلت في قلب المنافق بمنزلة
الغريبة التي هي في غير وطنها ومع غير أهلها ، وجعلت في قلب المؤمن
بمنزلة المستقرّة في الوطن والساكنة إلى السكن . وهذه أيضاً
استعارة أخرى .

١٥٥ — ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام في خطبة له :
«أَلَا وَإِنَّ الدُّنْيَا قَدْ أُرْتَحِلَتْ مُدِيرَةً ، وَإِنَّ الْآخِرَةَ قَدْ أُرْتَحِلَتْ مُقْبِلَةً»
وهذه استعارة لأنه عليه الصلاة والسلام جعل الدنيا بمنزلة الهارب المولى ،
والآخرة بمنزلة الطالب المُجَلِّي . وذلك من أحسن التمثيلات وأوقع التشبيهات ،
لأن أبناء الدنيا بمثابة الهاربين من علائق الحُمَام ، وبوائق الأيام ، والموت

الذى هو من أسباب الآخرة بمنزلة المغير على الأرواح ، والمهاجم على الآجال ، وهذه الصفة مستمرة للدنيا في شبابها قبل أن تهزم . وفي ابتداء مدتها قبل أن تنصرم ، لأن كون الموت طالباً لأهلها ، ومبداً لشملها ، معلوم من أول إنشائها وتصوير أبنائها . وقد يجوز أن يكون المراد بارتحال الدنيا مدبرة معنى آخر يختص بحال الدنيا في أواخر مدتها وعند تنهاى غايتها . وهو أن توصف بتصرم الأمد وتقصان العداد كما يقول القائل : قد ارتحل عمر فلان . وقد أدبرت مدة فلان إذا مضى عنقوان أيامه ، وقربت أوقات حمامه . ويروى هذا الكلام على تغيير في ألفاظه لأمير المؤمنين على بن أبى طالب عليه الصلاة والسلام ، وقد أوردناه في كتابنا الموسوم « بنهج البلاغة » ، وهو المشتمل على مختار كلامه عليه السلام في جميع المعانى والأغراض والأجناس والأعراض

١٥٦ - ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام : « الاختباء حيطان العرب ، والعمائم تيجان العرب » ، وهاتان استعارتان عجيبتان ، فأما قوله عليه الصلاة والسلام « الاختباء حيطان العرب » فإنما أراد به أنها إذا استعملت الحبوة في قعودها قامت لها مقام الحيطان في الاستناد إليها والاعتماد عليها كما تتساند الظهور إلى الجدران ، أو كما يستروح الجراب إلى الأجدال^(١) ، وأما قوله عليه الصلاة والسلام : « والعمائم تيجان

(١) الجراب : جمع أجرب . والأجدال : جمع جذل وهو أصل الشجرة بعد ذهاب الفرع ، وهو ينصب لتحتك به الأبل الجربى فيكون في ذلك راحة لها .

العرب « فإنما أراد أن بهاء العرب يكون بعمامتها كما يكون بهاء ملوك العجم بتيجانها ، فإن العمامة تخص الهامة ، وتتم القامة ، وتفخم الجلسة ، وتوفر الجملة حتى إن العرب لتقول على المتعارف بينها : مَا سَفَهُ مُعْتَمِرٌ قَطُّ . وهذا المعنى فسر قول الفرزدق :

إِذَا مَالِكٌ أَلْقَى الْعِمَامَةَ فَاحْذَرُوا بَوَادِرَ كَفَى مَالِكٌ حِينَ تَعْصَبُ
أراد أنه إذا ألقى العمامة طاش حلمه ، وخيف سطوه ، ومادام مُعْتَمِرًا ، فهو مأمون المفعوة ، ومغمود السطوة ، على مجرى عادتهم ، وعُرف طريقتهم ، وقد فسر أيضاً قول الآخر :

أَنَا ابْنُ جَلَا وَطَلَّاعُ الدُّنَايَا مَتَى أَضَعَ الْعِمَامَةَ تَعْرِفُونِي
على مثل هذا المعنى فكأنه توعدهم عند إلقاء العمامة بإدركته ، وأن يُفِيضَ عليهم ما يَسْتَجِمُّه من مثابة سطوته . وقواه : تعرفوني ، ليس يريد العرفان الذي هو ضد الإنكار ، وإنما أخرجه مخرج الوعيد وأطلعه مطلع التهديد كما يقول القائل غيره إذا أراد هذا المعنى : ستعرفني أو أمتعرفني ، والمراد ستعرف عقوبتي أو أمتعرف غضبي وسطوتي^(١) .

(١) المذكور في تفسير « متى أضع العمامة تعرفوني » غير ما ذكره المؤلف ، فقد ذكروا أن أضع بمعنى ألبس وتكون العمامة هي خوذة الحرب . والمعنى إذا استعددت للحرب عرقتم بلائي فيها ، أو يكون معنى أضع أخلع ويؤيد هذا ما كان من عادة العرب إذا قتل منهم قتيل قام وليّ دمه فلات على رأسه عمامة وستر بها وجهه وظل منلتها حتى يأخذ بالثار فيضع أوزار الحرب ومن بينها

١٥٧ - ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام : « الْمُجَاهِدُ مَنْ جَاهَدَ نَفْسَهُ » وهذا مجاز ، والمراد من امتنع من مواجهة المعاصي المؤبقة ، واستعصم من الخطايا المردية ، فجعله عليه الصلاة والسلام بمنزلة من برز له قرن ينازله ، وعدو يقابله ، لما يعاينه من المشقة في مغالبة نوازع قلبه ودواعي نفسه ، وما يعرُّكه من أديمها ويعلِّكه من شكيمها^(١) .

١٥٨ - ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام في خطبة طويلة : « وَالنِّسَاءُ حَيَآئِلُ الشَّيْطَانِ » ، وهذه من أحسن الاستعارات ، وذلك أنه عليه الصلاة والسلام جعل النساء من أقوى ما يصيد به الشيطان الرجال ، فمن كالحبائل المبتوثة ، والأشراك المنصوبة ، لأنهن مظان الشهوات ، ومقاود الخطيات ، وبهن يُستخَفُّ الركين ، ويُستَخَوْنَ الأمين .

١٥٩ - ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام في كلام : « وَالشَّبَابُ شُعْبَةٌ مِنَ الْجُنُونِ » وهذا القول مجاز ، والمراد أن الشباب

= العمامة . ويساعد على هذا أيضا أن الحجاج أنشد البيت وهو يزيح لثامه عن وجهه ، كما يصح على جعل معنى الوضع الخلع أن تكون العمامة بمعنى خوذة الحرب ، ويكون المعنى متى أخلع خوذة بصد انتهاء الحرب تعرفون ما كان من بلائي في القتال . قال ثعلب : العمامة تلبس في الحرب وتوضع في السلم (١) يقال عرك فلان أديم فلان : إذا زلله لأمر وأرغمه عليه . والشكيم : الحديد يوضع في قم الدابة يجذب بالبحام ليكون أسهل قيادها ، وعلكه : لوكه في الثم . والجلّة الثانية في معنى الأولى .

يَحْسَنُ الْقَبِيحَ ، وَيَسْفِهَ الْحَلِيمَ ، وَيَحِلُّ مُسْكَةَ الْمَتَاسِكِ ، وَيَكُونُ عُذْرًا لِمَتَهَالِكِ ،
فَمِنْ هَذِهِ الْوُجُوهِ يَشْبَهُ صَاحِبَهُ بِالْسُكْرَانِ مِنَ الْخَمْرِ ، وَالْمَغْلُوبُ عَلَى الْعَقْلِ ،
وَمِنْ هُنَاكَ قِيلَ : الشَّبَابُ كَسُكْرِ الشَّرَابِ وَعَلَى ذَلِكَ قَوْلُ الشَّاعِرِ :

إِنَّ شَرَّخَ الشَّبَابِ وَالشَّعْرَ الْأَسْوَدَ مَا لَمْ يُعَاصَ كَانَ جُنُونًا

١٦٠ - وَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ : « أَلَا إِنَّ

الْغَضَبَ جَمْرَةٌ تَوْقَدُ فِي جَنْبِ ابْنِ آدَمَ أَلَمْ تَرَوْا إِلَى حُمْرَةِ عَيْنَيْهِ وَأَنْتِفَاحِ
أُودَاجِهِ . فِي حَدِيثٍ طَوِيلٍ ^(١) » ، وَهَذِهِ اسْتِعَارَةٌ كَأَنَّهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ

(١) عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخَدْرِيِّ قَالَ : خَطَبَنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ خُطْبَةً
بَعْدَ الْمَصْرِ إِلَى مَغِيرِبَانَ الشَّمْسِ حَفَظَهَا مَنَا مِنْ حَفَظَهَا وَنَسِيَهَا مَنَا مِنْ نَسَى
فَعَدَّ اللَّهُ ثُمَّ قَالَ « أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّ الدُّنْيَا حُلُوةٌ خَضِرَةٌ . وَإِنَّ اللَّهَ مُسْتَخْلَفٌ . كَمْ فِيهَا
فَنَظَرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ . أَلَا فَاتَقُوا الدُّنْيَا وَاتَّقُوا النَّسَاءَ . أَلَا إِنَّ بَنِي آدَمَ خَلَقُوا عَلَى
طَبَقَاتٍ شَتَّى : مِنْهُمْ مَنْ يُولَدُ مُؤْمِنًا وَيَمُوتُ مُؤْمِنًا . وَمِنْهُمْ مَنْ يُولَدُ كَافِرًا وَيَمُوتُ
كَافِرًا وَيَمُوتُ كَافِرًا . وَمِنْهُمْ مَنْ يُولَدُ مُؤْمِنًا وَيَمُوتُ كَافِرًا وَيَمُوتُ كَافِرًا ،
وَمِنْهُمْ مَنْ يُولَدُ كَافِرًا وَيَمُوتُ كَافِرًا وَيَمُوتُ كَافِرًا . أَلَا إِنَّ الْغَضَبَ جَمْرَةٌ تَوْقَدُ فِي جَوْفِ
ابْنِ آدَمَ . أَلَا تَرَوْنَ إِلَى حُمْرَةِ عَيْنَيْهِ » وَأَنْتِفَاحِ أُودَاجِهِ . فَإِذَا وَجَدَ أَحَدَكُمْ شَيْئًا
مِنْ ذَلِكَ فَالْأَرْضُ الْأَرْضُ . أَلَا إِنَّ خَيْرَ الرِّجَالِ مَنْ كَانَ بَطِيءَ الْغَضَبِ سَرِيعَ
الرِّضَا ، وَشَرَّ الرِّجَالِ مَنْ كَانَ سَرِيعَ الْغَضَبِ بَطِيءَ الرِّضَا ، فَإِذَا كَانَ الرَّجُلُ
بَطِيءَ الْغَضَبِ بَطِيءَ النِّقَمِ وَسَرِيعَ الْغَضَبِ سَرِيعَ النِّقَمِ فَإِنَّهَا بِهَا .

وَجَعَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَخْطُبُ فَلَمَّا كَانَ عِنْدَ مَغِيرِبَانَ الشَّمْسِ قَالَ أَلَا إِنَّ مَا بَقِيَ
مِنَ الدُّنْيَا فِيمَا مَضَى مِنْهَا مِثْلُ مَا بَقِيَ مِنْ يَوْمِكُمْ هَذَا فَيَا مَضَى مِنْهُ . وَقَوْلُهُ عَلَيْهِ
الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ : فَالْأَرْضُ الْأَرْضُ ، أَيْ فَلْيَضْطَجِعْ بِالْأَرْضِ لَتَنْكَسِرَ نَفْسُهُ
فَتَذْهَبَ حِدَّةُ غَيْظِهِ . قَوْلُهُ : فَإِنَّهَا بِهَا ، أَيْ فَإِنَّ لِأَحَدِي الْخَصْلَتَيْنِ تَقَابُلَ
بِالْأُخْرَى فَلَا يَمْدَحُ عَلَى الْإِطْلَاقِ وَلَا يذِمُّ عَلَى الْإِطْلَاقِ .

جعل احتياج الطبع ، واحتدام الغيظ بمنزلة الجرة التي تتوقد في جوف الإنسان ، فيظهر أثر اتقادها في احمرار عينيه ، واختناق وريديه . فلا تزال كذلك حتى يطفئها برؤد الرضا ، أو عواطف الحلم والبُقيّا .

١٦١ — ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام : « الْعِلْمُ رَأْدٌ ، وَالْعَقْلُ سَائِقٌ ، وَالنَّفْسُ حَرُونٌ » وهذا الكلام مجاز ، وذلك أنه عليه الصلاة والسلام شبه علم الإنسان بالرائد الذي يتقدم أمام الحى فيدّهم على المنزل الوسيم ، والمرعى المريع^(١) ، لأن العلم يأخذ بصاحبه إلى المناجى ويعدل به عن المغاوى ، وشبه العقل بالسائق لأنه يحث الإنسان على سلوك النهج الأسلم ، ويحمله على الذهاب فى الطريق الأقوم ، وشبه النفس بالدابة الحرّون^(٢) لأنها تتعاس عن مرادها ، وتُلذّع بسوط الأدب حتى تسلك طرق مصالحها .

١٦٢ — ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام : « كُلُّ وَاعِظٍ قِبْلَةٌ » وهذا القول مجاز ، والمراد أمر الناس بالإقبال على الواعظ لهم ، والمتكلم بما يأخذ إلى الرشاد بأزمته إصغاءً إلى كلامه ، وتفهما لمقاصد خطابه ، كإقبالهم على القبلة التى يصلون إليها ويتوجهون نحوها ، ولا يجوز لهم الانحراف عنها .

(١) المريع : الخصب .

(٢) الحرّون : الدابة إذا حلت على الجرى وقفت وفعلها كنصر وكرم .

١٦٣ — ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام : « نِعَمَ وَزِيرُ
الْإِيمَانِ ، الْعِلْمُ . وَنِعَمَ وَزِيرُ الْعِلْمِ ، الْحِلْمُ . وَنِعَمَ وَزِيرُ الْحِلْمِ ، الرَّفْقُ .
وَنِعَمَ وَزِيرُ الرَّفْقِ ، اللَّيْنُ » وهذا الكلام مجاز ، والمراد كل خلة من
هذه الخلال المذكورة توازر صاحبها ، وتعاهد قرينتها وتقوى كل
واحدة منها بأختها ، كما يُوازر الرجل صاحبه على الأمر يطلبه ، والعدو
يُحاربُه ، فيشتدّ متناهما ، وتستخفف قواهما

١٦٤ — ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام « زَادُ الْمَسَافِرِ الْحُدَاءُ ،
وَالشَّعْرُ مَا لَمْ يَكُنْ فِيهِ خَنَاءٌ » ، وهذا القول مجاز ، والمراد أن التعلل
بأغريد الحُدَاءِ ، وأناشيد القريض يقوم للمسافرين مقام الزاد المبلّغ في
إمساك الأرواق والأستعانة على قطع المسافات ، وإلى هذا المعنى ذهب
الشاعر بقوله :

* إِنَّ الْحَدِيثَ طَرَفٌ مِنَ الْقَرَى *

١٦٥ — ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام : « مَنْ عَدَّ غَدًا
مِنْ أَجَلِهِ فَقَدْ أَسَاءَ صُحْبَةَ الْمَوْتِ » وهذا القول مجاز ، لأنه عليه السلام
أقام الموت للإنسان مقام العشير الحالم والرفيق الملازم ، وجعل من اغترّ
بطول أجله واتساع مهله بمنزلة من أساء صحبة ذلك الرفيق المصاحب
والخليط المقارب ، إذ كان الأولى أن يعتقد له أنه غير مفارق له ، وأن
المدى غير منفرج بينه وبينه ، وعلى ذلك قول الشاعر :

* وَالْمَنَآيَا قَلَائِدُ الْأَعْنَاقِ *

١٦٦ — ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام : « أَنَا مَدِينَةُ الْعِلْمِ ، وَعَلِيٌّ بَابُهَا ، وَلَنْ تُدْخَلَ الْمَدِينَةُ إِلَّا مِنْ بَابِهَا » وهذا القول مجاز لأنه عليه الصلاة والسلام شبه علمه بالمدينة المحصنة التي لا يطعم طامع في دخولها ، ولا الوصول إليها إلا من بابها ، وأقام عليًّا أمير المؤمنين عليه السلام لتلك المدينة مقام الباب الذي يفتح من جهته ، ويوصل إليها من ناحيته .

١٦٧ — ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام : « لِكُلِّ شَيْءٍ وَجْهٌ ، وَوَجْهُ دِينِكُمُ الصَّلَاةُ ، فَلَا يَشِينَنَّ أَحَدُكُمْ وَجْهَ دِينِهِ ، وَلِكُلِّ شَيْءٍ أَنْفٌ ، وَأَنْفُ الصَّلَاةِ التَّكْبِيرُ » ، وهذا القول مجاز ، والمراد أن الصلاة يعرف بها جملة الدين كما أن الوجه يعرف به جملة الإنسان ؛ لأنها أظهر العبادات ، وأشهر المفروضات ، وجعل أنفها التكبير لأنه أول ما يبدو من أشراطها ، ويسمع من أذكارها وأركانها .

١٦٨ — ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام : « أَطْعِمُوا اللَّهَ يُطْعِمَكُمْ » وهذا القول مجاز لأنه سبحانه قال : « وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ » والمراد أطعموا فقراء الله الذين أمركم بإطعامهم ، وجعلكم سبباً لأرزاقهم يجازكم على ذلك بجزيل الثواب ، ويكثر لكم من الأخلاف الأعواض .

١٦٩ — ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام : « الْعِلْمُ خَزَائِنٌ ،

وَمِفْتَاحُهَا السُّؤَالُ ، فَاسْتَلُوا رَحِمَكُمُ اللَّهُ فَإِنَّهُ يُؤْجِرُ أَرْبَعَةً : السَّائِلَ ، وَالْمُجِيبَ ، وَالْمُسْتَمَعَ ، وَالْمُحِبَّ لَهُمْ « وهذا القول مجاز ، والمراد تشبيه العلم في قلوب العلماء بالخزائن المستبهمة ، والأبواب المستغلقة ، وإنما تستفتح بسؤال السائلين ، ويُستخرج ما فيها ببحث الباحثين .

١٧٠ — ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام : « الْمَوْتُ رِيحَانَةُ الْمُؤْمِنِ » وهذا القول مجاز ، والمراد أن المؤمن يستروح إلى الموت تَقَوُّتًا من كروب الدنيا وهمومها وَرَوَّعَاتِهَا وخطوبها ، كما يستروح الإنسان إلى طيب المشومات ، ونظر المستحسنات .

١٧١ — ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام : « أَلَدُّعَاءُ سِلَاحُ الْمُؤْمِنِ وَعَمُودُ الدِّينِ » وهذا القول مجاز ، والمراد أن المؤمن يستدفع بالدعاء كيد الكائدين ، وظلم الظالمين ؛ فيقوم له مقام السلاح الذي يُرِيق الدماء ، وَيَغْلُ الأعداء ، وجعل عليه الصلاة والسلام الدعاء عمود الدين لأنه لا يصدر إلا عن قلب المخلص الأواب ، لا الشاك المرتاب ، والإخلاص قطب الدين الذي عليه المدار ، وإليه المَحَارُ^(١) .

١٧٢ — ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام من كلام في وصف النساء . « وَمِنْهُنَّ رَبِيعٌ مُرْبِعٌ ، وَغُلٌّ قَلٌّ » وهذا القول مجاز ، والمراد تشبيه المرأة الحسنة المستوفقة بالربيع المزهر والروض المنور ،

وتشبيه المرأة الشوهاء المستقلة بالغُل الذي يُثقل الرقاب ويطوّل العذاب .
وجعله عليه السلام قَمَلاً ليكون أعظم لعذابه ، وأبلغ في مكروهه المبثلي به ^(١) .

١٧٣ — ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام : « إِنَّ الْمَسْجِدَ
لَيَنْزَوِي مِنَ النَّخَامَةِ كَمَا تَنْزَوِي الْجِلْدَةُ فِي النَّارِ » : يقال انزوت
الجلدة إذا انقبضت واجتمعت . وهذا الكلام مجاز ، وفيه قولان : [أحدهما]
أن المسجد يتنزّه عن النخامة ^(٢) ، وهي البصقة ، بمعنى أنه يجب أن يكرم
عنها وألاّ يتنذل بها . فإذا رؤيت عليه كانت شائنة له وزارية عليه ^(٣) ،
فكان معها بمنزلة الرجل ذو الهيئة يشمئز مما يهجنه وينقبض عما
يدنسه ، وأصل الانزواء : الانحراف مع تقبض وتجمع . والقول الآخر :
أن يكون المراد أهل المسجد ، فأقيم المسجد في الذكر مقامهم لما كان
يشتمل عليهم ، وعلى ذلك قول الشاعر :

* واستَبَّ بعدك يا كَلِيبُ المَجْلِسِ ^(٤) *

والمراد أهل المجلس لأن الاستباب لا يكون بين القاعات والجدران ،

(١) شرح صاحب النهاية هذا الحديث فقال : كانوا يأخذون الأمير فيشدونه بالقد

وعليه الشعر فإذا يبس قل في عنقه فيجتمع عليه محتان : الفل ، والقمل . ضربه

مثلاً للمرأة السيئة الخلق ، الكثيرة المهر ، لا يجد بعلمها منها مخلصاً .

(٢) النخامة : ما تدفعه من صدرك أو أنفك .

(٣) زرى عليه : عابه وأزرى به . تهاون وقصر .

(٤) يريد أن أهل المجالس لما خلت من كليب لم يكن فيهم من يهاونونه فكان

أحدهم يمتدّ على الآخر بالسباب فيتسايون ويتشاعون .

وإنما يكون بين الإنسان والإنسان ، فالمعنى أن أهل المسجد ينتقبضون من النخامة إذا رأوها فيه ذهاباً به عن الأدناس ، وصيانة له عن الأدران

١٧٤ - ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام : « مَنِ الْقَتَلَ رَجُلًا قَرَفَ عَلَى نَفْسِهِ مِنَ الذُّنُوبِ وَالْخَطَايَا حَتَّى إِذَا لَقِيَ الْعَدُوَّ قَاتَلَ حَتَّى قُتِلَ فَتِلْكَ مَضْمُضَةٌ مَحْتِ ذُنُوبِهِ وَخَطَايَاهُ إِنَّ السَّيْفَ مَحَا لِلْخَطَا » ، وهذا الكلام مجاز لأن السيف على الحقيقة لا يمحو شيئاً من الذنوب ولكن القتل بالسيف لما كان سبباً للشهادة التي يستحق بها دخول الجنة ، وحقيقتها شهادة الملائكة للقتيل بأنه من أهل الجنة إذا بذل مهجته في طاعة الله مجتهداً ووطن نفسه على ألم الجراح والثبات للقاء صابراً محتسباً كان السيف كأنه قد محاه ما سلف من ذنوبه . وليس يبلغ الإنسان إلى هذه المنزلة في طاعة الله تعالى من بذل النفس للقتل وتوطئها على الهلك في الأغلب الأكثر إلا وهو تائب من جميع الذنوب التي توجب العقاب وتحبط الثواب فتكون الشهادة حينئذ دالة على أنه من أهل الجنة ، وسببها السيف فكانه قد محاه ذنوبه أي أزالها وأبطلها ، وعلى ذلك قول الشاعر :

فَلَا تُكْثِرُوا فِيهَا الضَّجَاجَ فَإِنَّهُ مَحَا السَّيْفُ مَا قَالِ ابْنُ دَاوُدَ أَتَجَمَعُ^(١)

(١) ابن دارة شاعر أموي أكثر من هجاء بني غزارة فآمروا على قتله فقال

أى أزاله وأبطله . وقوله عليه الصلاة والسلام : « فذلك مضمضة تحت ذنوبه » . مجاز آخر كأن القتل غسله من ذرّن الذنوب . قال ابن السكيت . يقال : مضمضت الإماء ومضمضته بالصاد والضاد إذا غسلته ، ويقال أيضاً : ماص^(١) الثوب بالصاد غير معجمة إذا غسله .

١٧٥ — ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام لأصحابه : « اتَّبِعُونِي تَكُونُوا بُيُوتًا » ، وهذا القول مجاز لأنه عليه الصلاة والسلام لم يرد بيوت الشجر وبيوت المدر على الحقيقة . وإنما أراد أنكم تكونون لعلو أقداركم ، واشتعار أخباركم بيوتاً : أى شعوباً تقف نسبة أولادكم عندهم ، ولا تتجاوزكم إلى من فوقكم ، وهذا لا يكون إلا لنباهة الأب الأدنى ، واستغنائه بالنباهة عن الأب الأعلى كما يقال لمن ينسب إلى أمير المؤمنين على عليه السلام علوى ، ويستغنى أن يقال : هاشمى أو منافى ، وكما يقال لمن كان من ولد عمر عمرى ولا يقال عدوى . ونظائر تلك كثيرة . وإنما سميت المناسب المخصوصة بيوتاً لاشتغالها على ضروب الرجال المتصلين بها والمضافين إليها تشبيهاً بالبيت النبى فى اشتغاله

بعضهم لبعض لا تقتلوه ولتأخذوا عليه أن يمدحنا فيمحو مدحه ماسق من ذم فعزموا على ذلك ، ثم ان رجلاً منهم كان قد آذاه هجاؤه ، اغتله فضربه بسيفه فقتله وقال فى ذلك :

قتل ابن دارة بالجزيرة سبنا وزعمت أن سبنا لا يقتل
دأشار إلى ذلك السكيت ابن زيد فى البيت الذى رواه المؤلف .

(١) ماص الثوب يموصه : غسله غسلنا ولدك

على الدعائم والعماد والأوتاد والأطناب لشهرته وتجاوبته . ونظير الخبر المذكور من الشعر قول الطائي الأكبر^(١) في صفة القرس :

هَذَّبَ فِي جَنْسِهِ وَنَالَ الْمَدَى بِنَفْسِهِ فَهَوَّ وَخَذَهُ جِنْسُ
أَرَادَ أَنْ نَسْلَهُ يَنْسَبُ إِلَيْهِ ، وَلَا يَتَجَاوَزُ بِهِ إِلَى مَنْ وَرَاءَهُ مِنْ آبَائِهِ
وَأُمَمَتِهِ^(٢) كَمَا يُقَالُ هَذَا الْقَرَسُ مِنْ نَسْلِ ذِي الْعُقَالِ^(٣) . وَمَنْ نِتَاجُ ذِي
الْجَمَّازَةِ^(٤) وَمَا أَشْبَهُهُمَا

١٧٦ — وَمَنْ ذَلِكَ قَوْلُهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فِي الْكَلَامِ الَّذِي
تَكَلَّمَ بِهِ يَوْمَ الْغَدِيرِ^(٥) : « وَأَسْأَلُكُمْ : » عَنْ تَقَالِي كَيْفَ خَلَفْتُمُونِي فِيهِمَا ،

- (١) هو حاتم الجواد المشهور
(٢) أممات : جمع أم كما تجمع في المشهور على أممات . وقيل إن الجمع الأول لمن لا يعقل واثنان لمن يعقل .
(٣) العقال (كرمات) : فرس حوط بن أبي جابر .
(٤) الجمّازة (بفتح الجيم) : فرس عبد الله بن حنتم أكرم خيول العرب .
(٥) المير هو غدير خم ، وخم ولد بين مكة والديرة عند الجحفة . به غدير وعنده خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم وتعرض في خطبته لمن تعرض لعلي بن أبي طالب كرم الله وجهه . قام رسول الله صلى الله عليه وسلم فحمد الله وأثنى عليه ووعظ وذكر ثم قال : أما بعد (ألا أيها الناس) فإنما أنا بشر يوشك أن يأتي رسول ربي فأجيب ، وأنا تارك فيكم ثقلين : أولهما كتاب الله فيه الهدى والنور فخذوا بكتاب الله واستمسكوا به . ثم قال وأهل بيتي أذكركم الله في أهل بيتي أذكركم الله في أهل بيتي ، أذكركم الله في أهل بيتي
قال حصين لزيد بن أرقم (وقد روى الحديث) ومن أهل بيته يازيد ؟
أليس نساؤه من أهل بيته قال نساؤه من أهل بيته ؟ ! ! ولكن أهل بيته من حرم الصدقة بعده قال : ومن هم يازيد قال هم آل علي وآل عقیل وآل جعفر وآل عباس . قال حصين : كل هؤلاء حرم الصدقة ؟ قال : نعم

قيل له : وما الثقلان يا رسول الله ؟ فقال الأكبر منهما كتاب
سَبَبٌ ، طَرَفٌ منه بيد الله ، وطَرَفٌ بأيديكم . هذه رواية زيد
أرقم . وفي رواية أبي سعيد الخدري : « حَبْلٌ ممدودٌ من السماء
الأرض ، والأصغر منهما عِثْرَتِي أهل بيتي ، إنهما لن يفترقا حتى يَرِدَا
الحوضَ » . وفي رواية أخرى : « حبلان ممدودان من السماء
الأرض » ، فإن الكلام يعود على الثقلين وهذه استعارة لأنه
الصلاة والسلام شبه كتاب الله بالحبل الممدود بين الله وبين خلقه
منهم من اعتصم به ، وَيَسْتَنْقِذُ من المهاوى والمعاطب من اعتلق بطَرِ
وليس هناك يد على الحقيقة تعصم المتعلق بها وتستشيل المتورط ،
ذلك على التمثيل والتشبيه ، لأن المستنقذ من الورطة والنهض من السقطة
الأكثر إنما يجتذب بيده ويستعين بسببه فأخرج عليه الصلاة وال
كلامه على المعروف والأمر بالمعروف . ومن روى حبلان ممدود
وأراد بأحد الحبلين العترة فالعنى أنه عليه الصلاة والسلام أقام عترة
الحبل الممدود الذى يكون عصمة المستعصم ونجاة المستسلم كما قال
القرآن . وهذا الخبر بتمامه هو خبر يوم الغدير الذى يقول فيه صلى
عليه وآله : مَنْ كُنْتُ مَوْلَاهُ فَعَلَى مَوْلَاهُ . اللهم وال من والاه وعلى

وهذه الرواية لم يرد فيها ماورد بالأصل فلعل زيد بن أرقم في هذه الرواية
بعض فقر الحديث لطوله ، وقد اشتكى من النسيان ورجا ممن حوله ألا يساه
شئ . وإنما يكتفون منه بما يورد لهم

عاداه وأخذل من خذله وأنصر من نصره . وقد رواه من مشهورى
الصحابة عشرة أولهم أمير المؤمنين عليه السلام وهو الصادق المصدق ،
وزيد بن أرقم ، وحذيفة بن أسيد ، والبراء بن عازب ، وسعد بن أبي
وقاص ، وأبو هريرة ، وجابر بن عبد الله ، وأبو أيوب خالد بن زيد ،
وأنس بن مالك ، وبريدة بن الحبیب الأسلمى . فأما زيد بن أرقم ،
وبريدة بن الحبیب فقد روى عنهما في هذا الخبر « من كنت وليه فعلى
وليه » ووافقهما ابن عباس على ذلك ، وأخبرنا بهذه الرواية خاصة وهى أشهر
الروايات أبو عبيد الله محمد بن عمران المرزبانى قال : أخبرنا إبراهيم بن محمد
ابن عرفة الواسطى قال : حدثنا عبيد الله بن جرير بن جبلة قال حدثنا
مسلم بن إبراهيم قال حدثنا نوح بن قيس قال حدثنا الوليد بن صبيح عن
ابن امرأة زيد بن أرقم عن زيد بن أرقم أخبرنا بذلك أبو عبيد الله
المرزبانى فى جملة ما أخبرنا به من رواياته ومصفاته وعلى هذه الرواية
تخرج الفظة من الاحتمال وتكون أقرب إلى المعنى المراد لأن ولى النبی
صلى الله عليه وسلم أولى به من غيره وأحق بالاستيلاء عليه من كل من لم
يَضْرِب فيه بمثل حقه . وقد روى عمران بن حصين عن النبی عليه
الصلاة والسلام أنه قال : « عَلَى وَثْقَى كُلِّ مُؤْمِنٍ بَعْدِي » . وفى هذا
الخبر تصريح بأنه من بعده ولى الأمر ووالیه والقائم مقامه فيه كما قال
الكُمَيْت بن زيد فى ذلك :

وَنِعْمَ وَلِيُّ الْأَمْرِ بَعْدَ وَلِيِّهِ وَمُنْتَجِعُ التَّقْوَى وَنِعْمَ الْمَوْدَّبُ
والكلام في هذا المعنى يطول . وليس كتابنا هذا من مظان استقصائه
ومواضع استيفائه . وفي هذا الخبر أيضاً مجاز وذلك تسميته عليه الصلاة
والسلام الكتاب والعترة بالثقلين ، وواحدتهما ثقل ، وهو متاع المسافر الذي
يصحبه إذا رحل وَيَسْتَرْفِقُ بِهِ إذا نزل فأقام عليه الصلاة والسلام
الكتاب والعترة مقام رفيقه في السفر ورفاقه في الحضر وجعلهما بمنزلة
المتاع الذي يخلفه بعد وفاته فلذلك احتاج إلى أن يُوصى بحفظه ومراعاته .
وقال بعض العلماء إنما سميا ثقلين لأن الأخذ بهما ثقل . وقال بعضهم :
إنما سميا بذلك لأنهما المذلتان اللتان يعول في الدين عليهما ويقوم أمر
العالم بهما ، ومنه قيل للإنس والجن ثقلان لأنهما اللذان يعمران الأرض
ويثقلانها . ومن ذلك قول الشاعر :

تَقُومُ الْأَرْضُ مَا عُمِّرَتْ فِيهَا وَتَبْقَى مَا بَقِيََتْ بِهَا ثَقِيلاً
لَأَنْكَ مَوْضِعُ الْقِسْطِاسِ مِنْهَا فَتَمْنَعُ جَانِبَهَا أَنْ يَزُولَا

١٧٦ — ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام لبعض أزواجه :
« أَخْبَنِي جِوَارَ نِعَمِ اللَّهِ فَإِنَّهَا قَلَّمَا نَقَرْتُ عَنْ قَوْمٍ فَكَادَتْ تَرْجِعُ
إِلَيْهِمْ » ، وهذه استعارة لأنه عليه الصلاة والسلام جعل النعم المتفاضلة
على الإنسان بمنزلة الضيف النازل ، والجوار المجاور الذي يجب أن يُعَدَّ
قراه ، وَيُكْرَمَ مثواه ، وتُصَنَّى مشاربه ، وتُؤَمَّنَ مساربه ، فإن أخيف

سربه ، ورُتقَ شِرْبُه ، وَضُيِّتَ قَوَاصِيه ، واعتميت^(١) مقاربه كان
خليقاً بأن ينتقل ، وجديراً بأن يَسْتَبْدِلَ ، فكذلك النعم إذا لم يجعل
الشكر قِرَى نازلها ، والحمد مهَادَ منزلها ، كانت وَشِيكَةً بالانتقال ،
وخليقة بالزَّيَال . وفي رواية : أخرى أحسنوا جوار نعم الله فإنها وَخْشِيَّةٌ
وباق الخبر على لفظه . فعلى هذه الرواية كأنه عليه الصلاة والسلام شبه
النعم بأوابد^(٢) الوحش التي تقيم مع الإبناس وتنفر مع الإيحاءش ، ويصعب
رجوع شاردها إذا شرد ودُّنُو نافرها إذا بعد .

— ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام وقد سمع مؤذنا
يقول : « أشهد أن لا إله إلا الله » فقال : صَدَقَكَ كُلُّ رَطْبٍ وَيَابِسٍ »
وهذا الكلام مجاز ، لأن الرطب واليابس من الشجر والأعشاب والماء
والتراب لا كلام لهما ولا روح فيهما . وإنما أراد عليه الصلاة والسلام
أن تصديقهما بلسان الخلق لا بلسان النطق . فجميع المخلوقات شاهدة بأن
لا إله إلا الله سبحانه بما فيها من تأثير الصبغة وإتقان الصنعة ، وشواهد
الصانع الحكيم ، والمقدّر العليم . فهي من هذه الوجوه متكلمة وإن كانت

(١) اعتماه : اختاره وقصده ، والنبي هنا أبيض الأشياء ، التي حوله : أى لم تصن أمتعه

(٢) الأوابد : الوحوش ، سميت كذلك لأنها تأبد أى تعيش أبداً طويلاً لأنها لا تمتنعها

على الصيادين نبي حتى تموت حتف أنفها وبذلك تطول أعمارها والمعروف أن

أول من سماها أوابد هو امرؤ القيس في قوله يصف فرسه :

وقد أغتذى والطير في وكناتها بمنجرد قيسد الأوابد هيكلا

خرساء ومفصحة وإن كانت عجماء . وعلى هذا المعنى خرج قول الشاعر :

وَفِي كُلِّ شَيْءٍ لَهُ آيَةٌ تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ وَاحِدٌ

١٧٩ - ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام : « الْحَسَدُ

يَأْكُلُ الْحَسَنَاتِ كَمَا تَأْكُلُ النَّارُ الْحَطَبَ » ، وهذه استعارة ، والمراد

أن الحسد يخرج بصاحبه إلى الإقدام على المعاصي والارتكاس في المأوى ،

فيلغ في الدماء الحرام ، ويحتطب في حبائل الآثام ، وبشرع في قتل النعم

من أماكنها وإزعاجها عن مواطنها . فيكون عقاب هذه المحظورات

مُحِبِّطًا لِحَسَنَاتِهِ وَمُسْقِطًا لثَوَابِ طَاعَاتِهِ ، على المذهب الذي أشرنا إليه فيما

تقدم . فيصير الحسد الذي هو السبب في استحقاق العقاب ، وإجباط

الثواب كأنه يأكل كل تلك الحسنات ، لأنه يذهبها ويفنيها ، ويسقط

أعيانها ، ويُعَفِّيها . وإنما شبهه عليه الصلاة والسلام في أكله الحسنات

بالنار التي تأكل الحطب لأن الحسد يجري في قلب الإنسان مجرى النار

لا يحتاجه واتقاده وإرماضه وإحراقه . ومن هناك قال بعضهم : ما رأيت

ظالماً أشبه بمظلوم من الحاسد ، نَفْسٌ يَتَصَعَّدُ ، وَزَفِيرٌ يَتَرَدُّ ،

وَحُزْنٌ يَتَجَدَّدُ »

١٨٠ - ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام في عهد كتبه

لعماله على اليمن : « فَإِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ حَبْلُ اللَّهِ الْمَتِينُ ، فِيهِ إِقَامَةُ الْعَدْلِ ،

وَيَنْأَيِّعُ الْعِلْمَ ، وَرَبِّيعُ الْقُلُوبِ » ، وفي هذا الكلام ثلاث استعارات :

(أولاهن) قوله عليه السلام : « فَإِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ حَبْلُ اللَّهِ الْمَتِينُ » ، وقد تقدم كلامنا على نظيرها^(١) وبيننا لأى معنى شبه القرآن بالحبل الممدود بين الله سبحانه وبين خلقه فى أنه عصمة لمستعصمهم ومُسَكَّةٌ لمستمسكهم

(والاستعارة الثانية) : قوله عليه الصلاة والسلام فى صفة القرآن وينابيع العلم ، وذلك أنه صلى الله عليه وآله شبه ما يفتح القرآن لمفهميه ويبينه للناظرين فيه من أبواب العلم وطرقه ويفتقهُ من أكمته وغُلَقه بِنَباييع الماء المنفجرة وعيونه المستنبطة ، ولأن العلم أيضاً ينقع الغليل بعد الشك المُحَيَّر كما يُبَرِد الماء القلَّة بعد العطش المبرِّح . فذلك شبهه عليه الصلاة والسلام بعيون الماء وينابيع الرِّوَاء . (والاستعارة الثالثة) : قوله عليه الصلاة والسلام ، « وَرَبِيعُ الْقُلُوبِ » ، وذلك أنه جعل القرآن للقلوب الواعية بمنزلة الربيع للإبل الراعية ؛ لأن القلوب تنفع بتدبر القرآن وتأمله ، كما تنفع الإبل بتحمض الربيع وتنقله ، فهذا غذاء للأرواح كما أن ذلك غذاء للأجسام ، وقد يجوز أن يكون المراد أن القلوب تنفجر بحكم القرآن وآدابه كما تنفجر العيون بأنوار الربيع وأعشابه ، والربيع : اسم للغيث فى الأصل ، ثم صار اسماً عندهم لما ينبت عن الغيث من أفانين النور والعشب ، ألا ترى إلى قول الشاعر ، وهو يريد الغيث :

أَنْتَ رَبِيعِي وَالرَّبِيعُ يُنْتَظَرُ وَخَيْرُ أَنْوَاءِ الرَّبِيعِ مَا بَكَرُ

وهذا كما سمو الغيث سماء ، لأن نزوله يكون من جهة السماء
قال الشاعر :

إِذَا سَقَطَ السَّمَاءُ بِأَرْضِ قَوْمٍ رَعَيْنَاهُ وَإِنْ كَانُوا غَضَابًا

أراد إذا سقط الغيث ، ثم قال : رعيناه فرد الكلام على ما بينت عن
الغيث من الرعى الجيم والكلأ العميم ، ومثل هذا في كلامهم كثير
مستفيض ، والربيع أيضاً : النهر الصغير ، وفي الحديث . وما سقى الربيع ،
وجعه أرباء على وزن أنصباء .

١٨١ — ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام في هذا العهد وهو

يذكر أوقات الصلاة : «وَالْعَصْرَ إِذَا كَانَ ظِلُّ كُلِّ شَيْءٍ مِثْلَهُ وَكَذَلِكَ
مَادَامَتِ الشَّمْسُ حَيَّةً ، وَالْعِشَاءَ إِذَا غَابَ الشَّفَقُ إِلَى أَنْ تَمُضِيَ كَوَاهِلُ
الَّيْلِ » وهاتان استعارتان : أولاهما قوله عليه الصلاة والسلام : «مادامت
الشمس حية ، والمراد بحياة الشمس ها هنا كونها في بقية من الاحمرار
من قبل أن يفضى إلى الخوول والأصفرار ، ومن هناك قالوا : شمس مريضة
إذا ولي احمرارها ، وأقبل اصفرارها ، وعلى هذا قول الشاعر :

لَدُنْ غُدُوَّةٍ حَيَّةٍ نَزَعَنْ عَشِيَّةً

وَقَدْ مَاتَ شَطْرُ الشَّمْسِ وَالشَّمْسُ مُدْنَفٌ

فجعل يصفها ميتة لما نصرم أكثر ضيائها ، وجعل يصفها مدنف لما كان

من التصرم على شفا ، ومثل ذلك قول الراجز :
 * وَالشَّمْسُ قَدْ كَادَتْ تَكُونُ دَنَفًا * أى قد قاربت أن تشفى على الغروب
 كما يشفى الدنف المريض على الخفوت ، فجعلها دنفًا مبالغة في وصفها
 بنقصان اللون وحؤول الضوء على أصل وصفهم لها بالمرض ، ولوصفهم
 الشمس بالموت في أشعارهم وجه آخر ، وهو أنهم إذا أرادوا أن يصفوا يوم
 الحرب باشتداد الحر ، واسوداد الأفق للقتام المتراكب والنقع المتعاظم^(١)
 يقيمون تغيب الشمس ، واحتجابها مقام انقراضها وذهابها ، و (الاستعارة
 الأخرى) قوله عليه الصلاة والسلام « إلى أن تمضى كواهل الليل » ، والمراد
 إلى أن تمضى أوائله فسميها كواهل تشبيهاً لليل بالمطايا السائرة التي تقدم
 أعناقها وهواذيلها ، ويتبعها أعجازها وتواليها ، ومن هناك قالوا في السارى
 ليلاً اتخذ الليل جملاً ويقولون ركب الليل ، وامتنطى الليل لما جعلوه
 بمنزلة الظهر المركوب والبعير المرحول .

١٨٢ — ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام : « مَفَاتِيحُ
 الْجَنَّةِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ » وهذه استعارة ، والمراد أن هذا القول به يوصل
 إلى دخول الجنة ، فجعله عليه الصلاة والسلام بمنزلة المفاتيح التي يستفتح
 بها الأغلاق ويستفرج الأبواب ، وأراد عليه الصلاة والسلام هذه الكلمة
 وما يتبعها من شعائر الإسلام ، وقوانين الإيمان إلا أنه صلى الله عليه وآله
 عبر عن جميع ذلك بهذه الكلمة ، لأنها أول لتلك الشعائر وسائرها تابع

(١) النقع : الغبار . المتعاظم : المتراكب الذي يملو بعضه بعضاً .

لها ومتعلق بها ، فهي لها كالزمام القائد ، والمتقدم الرائد ، وذلك كما يعبر عن حروف المعجم ببعضها ، فيقال ألف با تا ثا والمراد جميعها ، وكذلك يقولون هو في أبجد ويريدون سائر هذه الحروف إلا أن هذه الحروف لما كانت أوله لباقيها ، ومتقدمة لما يليها حسن أن يعبر بها عن جميعها .

١٨٣ — ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام في وصية لمعاذ بن جبل لما بعثه إلى اليمن : « وَصَلِّ الظُّهْرَ بَعْدَ مَا يَتَنَفَّسُ الظِّلُّ وَتَبْرُدُ الرِّيحُ » وهذه استعارة والمراد بعد ما يزيد امتداد الظل من قوهم تنفس النهار إذا أخذ بالطول ومنه قوله تعالى « وَالصُّبْحُ إِذَا تَنَفَّسَ » أى إذا زاد ضياؤه وانتشرت أنواره . وقد استقصينا الكلام على ذلك في كتاب تلخيص البيان عن مجازات القرآن . وأصل هذه مأخوذ من تنفس الحيوانات وهو امتداد الريح الحارة من تجاويف صدورها عند ترويح رئتها عن قلوبها باقباضها ، وانبساطها ، وانضمامها ، وانفراجها .

١٨٤ — ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام : « أَقِيلُوا ذَوِي أَلْهِيَّاتِ عَثَرَاتِهِمْ فَإِنْ أَحَدَهُمْ لَيَعْثُرُ وَإِنْ يَدُهُ بِيَدِ اللَّهِ يَرْفَعُهَا » وهذا القول مجاز والمراد بذلك يد الله هاهنا معونة الله تعالى وتقدسه ونصرته . فكأنه عليه الصلاة والسلام أراد أن أحدهم ليعثر وأن معونة الله من ورائه تُنْهَضُهُ مِنْ سَقَطَتِهِ وَتُقِيلُهُ مِنْ عَثَرَتِهِ إِلَّا أَنَّهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لَمَّا جَاءَ بِلَفْظِ الْعِثَارِ أَخْرَجَ الْكَلَامَ بَعْدَهُ عَلَى عَرَفِ الْعَادَاتِ لِأَنَّ الْعَادَةَ جَارِيَةٌ

أن يكون النهض للعائر والمقيم للواقع إنما يستنهض بيده ويستعين عليه بجَلَدِه، والرادبذى الهيئات هاهنا ذرو الأديان لأذو والملابس الحسان، كما يظن من لا علم له لأن هيئة الدين وظاهره أحسن الهيئات والمظاهر وأخف المعارض والملابس

١٨٥ — ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام : « جِبْرَائِيلُ نَامُوسُ اللَّهِ » ، وهذا القول مجاز وأصل الناموس المكان الذى يستجنى فيه الصائد عن الوحش لئلا تراه فتتفر عنه، ومن ذلك سمى من يجعله الإنسان موضع سره ومستودع نفثه ناموساً يقال منه تَمَسَّ يَنْمَسُّ^(١) تَمَسًّا ونامسه مناسه، فكانه عليه السلام إنما شبهه بذلك لأنه يستخفى عما يؤديه عن الله سبحانه إلى الأنبياء عليهم السلام من أوامر الله التى تقيد القلوب بمجائيل الخوف والرجاء وتجذبها بعلائق الوعد والإيعاد تشبيهاً بالصائد الذى يَحْتَلِ صيده حتى يصيب غِرَّتَه ويقتحم غفلته، وقد قال بعضهم : إن الناموس فى كلام بعض العرب اسم للنمام ، فكان جبرائيل عليه السلام هو الذى يظهر أمر الله لأنبيائه لا على الوجه المذموم الذى يقصده لسان النمام ويعتمده ناقل الكلام ، وقال بعضهم : الناموس من أسماء العلم فيكون فى الخبر إذا حملناه على هذا الوجه تقدير مضاف حذف لدلالة الكلام عليه ، فكانه عليه الصلاة والسلام قال : جبرائيل حامل علم الله ، أو صاحب علم الله ، والحذف : إنما يحسن فى الكلام إذا كان فيما يبقى دليل على ما يلقى

(١) التنبس : التلبس والتعمية .

كقوله تعالى « وَأَسْأَلُ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْتَلْنَا فِيهَا »
فلما كانت القرية ، والعيرُ : لا تُسألان ، ولا تحييان علم أن المطلوب غيرها
وأنه المضاف إليهما ، ولا يجوز على هذا جاء زيد وأنت تريد غلام زيد
لأن الجيء قد يكون من الغلام كما يكون من صاحب الغلام فلا دليل في
مثل هذا على المحذوف كما كان في الوجه الأول .

١٨٦ — ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام : « بَلَّغْنِي عَنْ
فُلَانٍ كَلَامٌ تَشَذَّرَ لِي عَنْ إِيْعَادِ » فوصف الكلام بالتشذُّر مجاز ، وأصل
التشذُّر أن الناقة إذا أُلْقَتْ عَقَدَتْ ذَنْبَهَا وَنَصَبَتْهُ عَلَى عَجْزِهَا قَالَ الشَّاعِرُ :
لَهَا ذَنْبٌ كَالْقِنْوِ قَدْ مَذَّاتَ بِهِ وَأَسْمَحَ لِلتَّخَطُّارِ بَعْدَ التَّشَذُّرِ ^(١)
فكانه عليه الصلاة والسلام أراد أن الكلام الذي سمعه أعرب له عما
في ضمنه من الوعيد كما أن تشذُّر الناقة بذنبها دليل على لقاح بطنها ، ويجوز
أن يكون المراد صفة ذلك الكلام بالارتفاع والعلو والاشتطاط والغلو
تشبيهاً بذنب الناقة إذا عقدته لاقحة ورفعته شامدة ^(٢)

١٨٧ — ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام : « الْإِيْمَانُ
هَيُوبٌ » وفي هذا الكلام مجاز لأن فيه تقدير كلام محذوف ، فكانه

(١) القنو (بالكسر والضم) : عتقود النخل والجمع قنوان بالكسر عند من
كسر المفرد والضم عند من ضمه .

(٢) شمدت الناقة (كضرب) : لفتت فشالت بذنبها . وذلك منها علامة على
أنها لفتت .

عليه الصلاة والسلام قال : «صاحب الإيمان هيب» ، والعرب تقول :
البابُ لُئيمٌ ، أى مُغلقُ الباب دون الأضياف ، والمراد أن صاحب
الإيمان بما معه من حواجز إيمانه ، وبصائر إيقانه يهاب تطرق
الحُوب^(١) ومواقعة الذنوب ، فلا يقدم عليها إقدام المرتكس الهاوى
والضالّ الفاوى

١٨٨ - ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام : « الاستغفارُ
مَهْدَمَةٌ لِلذُّنُوبِ » ، فوصفُ الاستغفار بأنه يَهْدِمُ الذنوب مجاز ، لأن
المعاصي الكثيرة لما كانت كالبناء فى تراكب أجزائها ، واستغلاظ
خرابها كان استغفار النادم ، وإقلاع التائب ، كأنهما هدم لذاك البناء من
أساسه وكَبُّه على أم رأسه .

بسم الله الرحمن الرحيم

١٨٩ - ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام : « مَا أَذِنَ اللَّهُ
لشئٍ كإِذْنِهِ لِنَبِيٍّ يَتَغَنَّى بِالْقُرْآنِ » وهذا القول مجاز ، والمراد ما استمع
الله لشئٍ كاستماعه لنبيٍّ يداوم تلاوة القرآن . فيجعله دأبه وديدنه وهَجِيرَاهُ
وشغله ، كما يجعل غيره الغناء مُسْتَرْوَحَ حزنه ومستفسح قلبه ، ليس أن
هناك غناء به على الحقيقة . وهذا كما يقول القائل : قد جعل فلان الصوم

(١) الحوب (بالضم وبفتح) : الإثم .

لذته ، والصلاة طريته ، إذا أقامهما مقام شغل غيره بالذات وطربه إلى المستحسنات . وقد قيل إن المراد بذلك تحزين القراءة ليكون أشجى للسامع ، وآخذ بقلب العارف ، فسمى هذه الطريقة غنا . على الاتساع لأنها تقود أزمة القلوب ، وتستميل نوازع النفوس . وإلى ذلك ذهب عليه الصلاة والسلام بقوله : « زَيَّنُوا أَصْوَاتَكُمْ بِالْقُرْآنِ » في حديث آخر ، وليس المراد بذلك تلحين القراءة وتطريبها ، فإن الأخبار قد وردت بدم هذه الطريقة ، حتى ذكر عليه الصلاة والسلام في أشرط الساعة أموراً عددها ، ثم قال : وَأَنْ يُتَّخَذَ الْقُرْآنُ مَزَامِيرَ . وقال بعضهم : معنى يتغنى بالقرآن ، أى يذكر القرآن ، من قولهم تغنى فلان بفلان إذا ذكره في شعره إما هجاء وإما مدحاً . فأما الحديث الآخر وهو قوله عليه الصلاة والسلام : « لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَمْ يَتَغَنَّ بِالْقُرْآنِ » . فليس المراد به هذا المعنى ، وإنما أراد عليه الصلاة والسلام ليس منا من لم يستغن بالقرآن عما سواه ، وتغنى هاهنا بمعنى استغنى ، وهو تفعل من الاستغناء لا من الغناء . قال العجاج :

أرى الغواني قد غنين عني وقلن لى عليك بالتغنى
أى استغنين عني وقلن لى استغن عنا كما استغينا عنك . وهذا عند موت
انشباب وانقضاء الآراب . ويؤكد ذلك الحديث الآخر وهو قوله عليه
الصلاة والسلام : من قرأ القرآن فرأى أن أحداً أُعطي أفضل مما أُعطي

قد عظم صغيراً وصغيراً عظيماً . ولو كان المراد بالتعنى في هذا الخبر ترجيع الصوت بالقرآن لكان من لم يقصد هذه الطريقة في تلاوته ويعتمدها في صلاته داخلا تحت الذم ومقارفا للذنب لأنه عليه الصلاة والسلام قال : ليس منا من لم يتغن بالقرآن . فبان أن المراد به الاستغناء لا الغناء .

١٩٠ - ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام : « لا تَسُبُّوا الدَّهْرَ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الدَّهْرُ » ، وهذا مجاز . وذلك أن العرب كانت إذا قرعت القوارع ونزات بها النوازل وحطمتها السنون الحواطم وسلبت كرائم أعلامها من مال مثمر ، أو ولد مؤتمل ، أو حميم مرجب^(١) . ألفت الملاوم على الدهر فقالت في كلامها وأسجاعها وأرجازها وأشعارها استقاد منا الدهر ، وجار علينا الدهر ، ورمانا بسهامه الدهر ، كقول القائل منهم وهو عدي بن زيد .

ثُمَّ أَمْسَوْا لَعِبَ الدَّهْرِ بِهِمْ وَكَذَلِكَ الدَّهْرُ يُودِي بِالرَّجَالِ
وكقول الآخر :

* أَكَلَ الدَّهْرُ عَلَيْهِمْ وَشَرَبَ^(٢) *

وكقول الآخر :

(١) رجه : عظمه وزنا ومعنى .

(٢) هذا شطر بيت رواء الميداني هكذا :

كم رأينا من أناس قبلنا شرب الدهر عليهم وأكل

• وَالذَّهْرُ غَيْرَنَا وَمَا يَتَغَيَّرُ •

والأشعار في ذلك أكثر من أن نحيط بها أو نأتى على جميعها .

فكأنه عليه الصلاة والسلام قال لا تدموا الذى يفعل بكم هذه الأفعال فإن الله سبحانه هو المعطى والمنتزع ، والمغيّر والمترجّع ، والرائس والهائض ، والباسط والقابض ، وقد جاء فى التنزيل ما هو كشف عن هذا المعنى وهو قوله تعالى : « وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ » ، فصرح تعالى بذهومهم على اعتقادهم أن الدهر يملكهم ويهلكهم ويمطهم ويسلبهم ، ودل بمفهوم الكلام على أنه سبحانه هو المالك للأموال والمصرف للدهور

١٩١ — ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام الصَّوْمُ فِي الشَّتَاءِ الْغَنِيْمَةُ الْبَارِدَةُ . وهذه استعارة . وذلك أنهم يقولون هذه غنيمة باردة إذا حازوها من غير أن يلقوا دونها حر^(١) السلاح وألم الجراح ، لأنه ليس كل الغنائم كذلك بل فى الأكثر لا تكاد تنال إلا باصطلاء نار الحرب ومألم الطعن والضرب ، فكأنه عليه الصلاة والسلام جعل صوم الشتاء غنيمة باردة ، لأن الصائم يحوز فيه الثواب الجزيل والخير الكثير بلا معاناة مشقة ولا ملاقاتة كلفة لقصر نهاره وعدم أواره ،

(١) - حر السلاح : شدته من قولهم استحر القتل : أى اشتد . وعمل حر : يشاق

وقد قيل أيضاً إنما وصف الصوم في الشتاء بأنه غنيمة باردة لبرّد النهار الذي يقع الصيام فيه ، وأنه بخلاف نهار الصيف الذي يشتد فيه العطش وتطول الحماص ، ويقصر ليله عن القيام بوظائف العبادة التي تحمد عقبى وتقرب إلى الله زلفى . والشتاء على خلاف هذه الصفة لقصر نهار الصائم وطول ليل القائم .

١٩٢ - ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام : « اتَّقُوا اللَّهَ فِي النِّسَاءِ فَإِنَّهُنَّ فِي أَيْدِيكُمْ عَوَانٍ » ، وهذا مجاز لأنه عليه الصلاة والسلام جعل النساء عند أزواجهن بمنزلة الأسراء وذلك لأن المرأة تجري على أحكام الرجل في الصدور ، والورود ، والوقوف ، والخفوف ، فهي راسفة في أقياد حصره ، وناشبة في حبائل نهيه وأمره . ومن ههنا قيل فلانة في حبال فلان إذا كان بعلمها ، للعلة المقدم ذكرها . والعانى الأسير والجمع غناة ، والأسيرة عانية والجمع عَوَانٍ . وقد يقال للأسير أيضاً الهدى . وقال المتكس في قتل عمرو بن هند طرفة بن العبد بعد أن سجنه زماناً :

كطُرَيْفَةَ بْنِ الْعَبْدِ كَانَ هَدِيَّهِمْ ضَرَبُوا صَعِيمَ قَذَالِهِ بِمُهَنْدٍ
قيل إنما سميت المرأة المنقولة إلى زوجها هدياً لأنها بمنزلة الأسيرة عنده وقيل : بل سُمِّيَتْ بذلك لأنها تهدي إلى زوجها ، فهي فعيل في موضع مفعول ، هدي في مكان مهدي . يقال : هَدَيْتُ الْمَرْأَةَ إِلَى زَوْجِهَا أَهْدَيْتُهَا هِدَاءً ، وهو من الهداة وليس من الهدية ، لأنه لا يقال من الهدية إلا

أُهِدِت . وقد قيل إن في بعض اللغات أُهِدِيتُ المرأة ، واللغة الأولى هي المعتد بها والمعمول عليها .

١٩٣ — ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام : « أُسْتَعِيدُوا بِاللَّهِ مِنْ طَمَعٍ يَهْدِي إِلَى طَبَعٍ » وهذا مجاز والمراد أن الطمع بصير بصاحبه إلى معائب الأفعال ومدانيسها ، ويوقعه في مذامها ومناقضها . والطَّبَعُ الدَّنَسُ والعيب . يقال : فلان طبع كدِّيس وجشع . فلما كانت عواقب الطمع صائرة إلى مَدَارِنٍ ^(١) الطَّبَعُ جعل عليه الصلاة والسلام الطَّعَّ كأنه هادياً إليها ودليلاً عليها ، على المجاز والاتساع . والطَّبَعُ على ما سمعته من شيخنا أبي الفتح النحوى رحمه الله مأخوذ من الطابع ، وهو الخاتم كأنه يسم صاحبه بالمعائب ويشهره بالمثالب ، فيكون كالخاتم الذى يظهر رسمه ويؤثر وشمه .

١٩٤ — ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام في حديث مشهور للرجل الذى يُفَوَّتُ ^(٢) ابنه عليه ماله ففرقه وبذره : « أُرْدُدْ عَلَى ابْنِكَ مَالَهُ فَإِنَّمَا هُوَ سَهْمٌ مِنْ كِنَانَتِكَ » ، وهذه استعارة لأنه عليه الصلاة والسلام جعل ابن الرجل بمنزلة السهم الذى فى كِنَانَتِهِ . ولذلك وجهان : أحدهما أن يكون إنما شبهه بالسهم من سهامه ، لأن الأب

(١) مدارن : جمع مدرن من العرن وهو الوسخ .

(٢) فوت فلان على فلان فى كذا واقتات عليه : إذا انهد برأيه دونه فى التصرف به

سبب نشئه^(١) وتربيته وولى تثقيفه وتأديبه كما أن النابل باري السهم ورائشه ومتقنه ومقومه . والوجه الآخر أن يكون المراد أنه بمنزلة السهم في كنفاته من حيث كان في حضنه وحاصلاته تحت ضبته^(٢) ، وأنه متى شاء صرفه في آرائه كما أن صاحب السهم متى شاء رمى به في أغراضه . ومعنى قوله عليه الصلاة والسلام : « أردد على ابنك » أى استرجع ما فرقه من ماله في وجه التبذير ومظان التبديد فرّده إلى ملكه استظهاراً له وإشبالاً له ، إذ ليس له أن يفتات عليك بمال ولا يعصيك في حال^(٣)

١٩٥ - ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام : « اخلق عيال الله عز وجل فأحبهم إليه أنفعهم لعياله » أخبرنا بهذا الحديث أبو القاسم عيسى بن علي بن عيسى بن داود بن الجراح في جملة ما أخبرنا به من الأحاديث . قال : حدثنا أبو القاسم عبد الله بن محمد بن عبد العزيز البغوي^(٤) في سنة سبع وثلثمائة قال : حدثنا أحمد بن إبراهيم الموصلي قال : سمعت المأمون في الثماسية^(٥) ، وقد أجرى الحلبة^(٦) ، فجعل ينظر

(١) النشأ (بالفتح) : هو النشوء والنشأة .

(٢) الضبن (بالكسر ويفتح) ما بين الكشح والابط (الحضن) .

(٣) وجملة معنى الحديث أن الابن لم يستعمر أباه ولم يستأذنه في هبة مال نفسه فأتى الأب رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره فقال له ارتجعه من الموهوب له وارده على ابنك فإنه وما في يده تحت يدك وفي ملكك فليس له أن يستبد بأمر دونك .

(٤) البغوي : نسبة إلى بغشور ، وهي بلدة بخراسان بين مرو وهرارة .

(٥) الثماسية : موضع قرب رصافة بغداد .

(٦) الحلبة : خيل السباق .

إلى كثرة الناس ، قال ليحيى بن أكرم : أمتري إلى هذه الأمم ، ثم قال : حدثنا يوسف بن عطية عن ثابت عن أنس أن النبي صلى الله عليه وآله قال : « الخلق عيال الله فأحبهم إليه أنفعهم لعياله » . وقد حدثنا بهذا الحديث أيضاً سهل بن أحمد بن عبد الله بن سهل الديباجي عن محمد بن يحيى الصولي فيما صنفه مما رضىه خلفاء بني العباس من أحاديث النبي عليه الصلاة والسلام على خلاف هذه الحكاية . وهذا القول مجاز لأن عيال الإنسان من يعوله ^(١) ثقلهم ويهمهم أمرهم ، والله سبحانه وتعالى لا تشوده الأثقال ولا تهمه الأحوال ، ولكنه سبحانه وتعالى لما كان متكفلاً بمصالح عباده يدر عليهم حلب الأرزاق ويؤم لهم شعث الأحوال ، ويعود عليهم بمرافق الأبدان ، ومرشد الأديان شبهوا من هذه الوجوه بالعيال الذين في ضمان العائل ، وكفاية الكافل . على طريق الاتساع ، وعلى معارف العادات .

١٩٦ - ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام : « الخمر أم الخبائث ، ومن شربها لم يقبل الله منه صلاة أربعين يوماً ، فإن مات وهي في بطنه مات ميتة جاهلية » سمعنا هذا الحديث من عمر بن إبراهيم ابن أحمد المقرئ ابن حفص الكِنَافِي في جملة ما رواه لنا من الأحاديث قال : حدثنا أبو بكر النيسابوري قال : حدثنا علي بن إشكاب ^(٢) قال :

(١) عاله الشيء : أعوزه وأحوجّه .

(٢) ابن إشكاب (بكسر الهزة والمنع من الصرف) محدث . كما في الثاموس المحبة

حدثنا محمد بن ربيعة قال : حدثنا الحكم بن عبد الرحمن بن أبي مُعَيْمٍ عن الوليد بن عُبَّادة قال : سمعت عبد الله بن عمرو بن العاص يقول : قال رسول الله صلى الله عليه وآله : «الحرُّ أمُّ الخبائث وذكر ما في الحديث» وهذه استعارة وإِنَّمَا سماها عليه الصلاة والسلام أمَّ الخبائث على تخليط النهي عن شربها وتعظيم قدر العقاب عليها ، فكأنَّها جماع الخبائث المردية ، ومعظم الذنوب المورقة ، كما أن الأمَّ جامعة لأولادها ، ومتقدمة عليهم بميلادها ، والفائدة في تقديمها على غيرها من المعاصي أن الأغلب في شربها أن يكون طريقاً إلى ارتكاب الكبائر وجرِّ الجرائر ، فإن السكران قد يحمله سكره على القذف والاقتراء ، وإراقة الدماء ، واستحلال الفروج والأموال ، وغير ذلك من مقاحم الذنوب ومعاضم العيوب ، وكلُّ هذا فالسكر من أقوى أسبابه وأقرب أبوابه .

١٩٧ - ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام : «كلُّ أمرٍ ذى بال لا يَبْدَأُ فيه بحمد الله أقطع» ، وحدثنا بهذا الحديث عمر بن إبراهيم أبو حفص المقرئ قال : حدثنا أبو القاسم عبد الله بن محمد البغويّ ابن بنت مَنِيع قال : حدثنا داود بن رُشَيْد^(١) قال : حدثنا الوليد بن مسلم عن الأوزاعي عن قُرَّة عن ابن شهاب عن أبي سلمة عن أبي هريرة قال :

(١) قال في خلاصة تذهيب الكمال : داود بن رشيد ، صغراً الماشى مولاهم أبو الفضل الخوارزمي تزيل بغداد ، روى عن جماعة منهم الوليد بن مسلم وروى عنه .

قال النبي صلى الله عليه وآله : « كل أمر ذي بال لا يبدأ فيه بحمد الله أقطع » . وهذا القول مجاز وإنما شبه عليه الصلاة والسلام الأمر الذي تهم الإفاضة فيه وتمس الحاجة إلى الكلام عليه إذا لم ينظر فيه حمد الله سبحانه وتعالى ، بالأقطع اليد من حيث كان قالصاً عن السبوغ وناقصاً عن البلوغ ، ومما يقوى ذلك ما رواه أبو هريرة أيضاً قال : قال عليه الصلاة والسلام : « الخطبة الذي ليس فيها شهادة كاليد الجذماء » فأقام عليه الصلاة والسلام نقصان الخطبة مقام نقصان الحلقة . ومما يشبه هذا الخبر الحديث الآخر الذي ذكره أبو عبيد القاسم بن سلام في كتابه : [غريب الحديث] ، وهو قوله عليه الصلاة والسلام : « من تعلم القرآن ثم نسيه لقي الله سبحانه وهو أجذم » قال : والأجذم المقطوع اليد ، واستشهد على ذلك بقول الشاعر :

وما كنتُ إلاً مثلَ قاطعِ كَفِّهِ بكفٍ له أخرى فأصبح أجذماً
واعترض هذا القول عبد الله بن مسلم بن قتيبة قادحاً فيه وطاعناً عليه ، فقال : إنما أتى أبو عبيد في فساد هذا التفسير من قبل البيت الذي استشهده ، وليس كل أجذم أقطع اليد وإذا نحن حملنا الحديث على ما ذهب إليه أبو عبيد رأينا عقوبة الذنب لا تشا كل الذنب لأن اليد لا سبب لها في نسيان القرآن والعقوبات من الله سبحانه وتعالى تكون بحسب الذنوب كقوله تعالى وتقدس : « الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ » ، يريد أن الربا الذي

أكلوه أثقل بطونهم ، فهم يقومون ويستقنون كما يصيب من يتخبطه
الشيطان ، ويقول رسول الله صلى الله عليه وآله : « رَأَيْتُ لَيْثَةً أَسْرَى
بِى قَوْمًا تَقْرُضُ شَفَاهِمَهُم بِالْمَقَارِضِ كُلِّهَا قَرَضَتْ وَقَتٌ ، فَقَالَ جِبْرَائِيلُ :
هَؤُلَاءِ خُطَبَاءُ أُمَّتِكَ الَّذِينَ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ لِأَنَّهُمْ قَالُوا بِأَفْوَاهِهِمْ
فَهَوِّقُوا فِيهَا » : ومثل هذا كثير قال : والأجذم ههنا المجذوم يقال :
رجل أجذم وقوم جذماء مثل : أحمق وحمقاء ، وأتوك ونوكاء ، إلا أن
يكون روى فى حديث آخر : « أنه يحشر أقطع اليد » ، أو ما يدل على
ذلك فيقع التسليم منا . وإنما سمي من به هذا الداء أجذم لأنه يقطع
أصابع يديه وينقص خلقه ، والجذم القطع ، وكل شيء قطعتة فقد جذمته
وجذوته ، ولهذا قيل للمقطوع اليد أجذم ، كما قيل له أقطع ، وهذا
أشبه بالعقوبة ، لأن القرآن كان يدفع عن جسمه كلمة العاهة ويحفظ عليه
الصحة ، ولما نسيه فارقه ذلك ، فنالت الآفة فى جميعه ولا داء أشمل
للبدن من الجذام ولا أفسد للمخلقة . انتهى كلام ابن قتيبة : قلت أنا ،
وقد خلط هذا الرجل فى اعتراضه هذا تخليطاً كثيراً ، لأنه أنكر غير
مُنْكَرٍ وطعن فى غير مطعن . وذلك أن أبا عبيد إنما فسر الأجذم فى
الحديث بأنه المقطوع اليد على أصل صحيح ، وهو ما ذكرناه فى الخبر
الأول من أن الأقطع هناك كالأجذم هاهنا . والمراد به أنه يلقي الله تعالى
بعد نسيان القرآن ناقصاً بعد تمامه ، كالذى قطعت يده فظهرت نقيصة

أعضائه ، وإن كان أبو عبيد لم يبين هذا البيان ، فإنه لم يرد غير هذا المراد .
 فأما قول ابن قتيبة إن عقوبة الذنب يجب أن تكون مشاكلة للذنب
 وتعلقه بالمثلين اللذين أوردتهما فقد غلط فيما ظنه وورم فيما توهمه ، لأن
 العقوبات لا يجب أن تكون مقصورة على الأعضاء المباشرة للذنوب . وإنما
 المعاقب بها جملة الإنسان ولو كان الأمر على ما ظنه لكان الزاني إذا زنى
 غير مُحَصَّن يضرب ذَكَرَهُ ، والقاذف إذا قَذَفَ يجلد لسانه لأنهما واقعا
 المعصية وباشرا الخطيئة . فلما رأينا هذين المذنبين يعاقب منهما غير الموضع
 التي باشرت الذنب وواقعت الجُرْم علمنا أن المقصود بالعقوبة جملة الإنسان
 دون أعضاء الجسم ، فأما يد السارق فلم تكن علة قطعها أنه باشر بها
 السرقة ، ألا ترى أنه لو دخل حرزاً فأخرج منه بغمه دون يده ما يجب في
 مثله القطع قطعت يده ، ولم يعتبر أخذه الشيء المسروق بغمه . وأيضاً فلو
 أخذ في أول مرة بيده اليسرى قطعت يده اليمنى ، وإذا سرق ثانية
 بعد قطع يده اليمنى قطعت رجله اليسرى ولم تقطع يده اليسرى وإن
 باشر السرقة بها . وذلك على مذهب من يرى استيفاء الأعضاء الأربعة
 في تكرير السرقة وهو مذهب الشافعي ، فبان أنه لا يعتبر بقطع ما باشر
 أخذ السرقة من أعضاء الإنسان وسقط ما اعتمد عليه ابن قتيبة من
 تشقيق الكلام .

حُذِيفَةُ بْنُ الْيَمَانِ وَقَدْ ذَكَرَ الْفَتَنَ : « أَفْبَعِدَ هَذَا الشَّرُّ خَيْرٌ يَارَسُولَ اللَّهِ
نَقَالَ : هُدْنَةٌ عَلَى دَخْنٍ وَجَمَاعَةٌ عَلَى أَقْدَاءٍ » ، وَفِي هَذَا الْكَلَامِ اسْتِعَارَتَانِ
إِحْدَاهُمَا قَوْلُهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ : « هُدْنَةٌ عَلَى دَخْنٍ » ، وَقِيلَ : إِنْ
الدَّخْنُ فِي الْأَصْلِ اسْمٌ لِلْوَنِ الَّذِي فِيهِ كِدُورَةٌ ، وَالصَّحِيحُ أَنَّهُ مَأْخُذٌ مِنَ
الدُّخَانِ لِكَدْرِ أَجْزَائِهِ وَارْتِدَادِ أَلْوَانِهِ ، فَكَأَنَّهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ شَبَّهَ
الْهُدْنَةَ الَّتِي تُؤْذِنُ بِالْفِتْنَةِ وَالسَّلَامَ الَّتِي تَنْكَشِفُ عَنْ الْحَارِبَةِ بِالدُّخَانِ الَّذِي
تُؤْذِنُ سَوَاطِعُهُ بِالنَّارِ الْمَوْقَدَةِ ، وَتَجَلَّى عَنِ الْجَوَاحِمِ الْمُتَضَرِّمَةِ ، وَيُقَالُ : دُخَانَ
وَدَوَّخَنَ وَعُثَانَ ^(١) وَعَوَاشِنَ ، وَهُمَا جَمْعَانِ عَلَى غَيْرِ الْقِيَاسِ . وَيَجُوزُ أَنْ
يَكُونَ الْمُرَادُ بِالدَّخْنِ هَاهُنَا قَسْطَلٌ ^(٢) الْحَرْبُ لِأَنَّهُ يَشَبَّهُ بِالدُّخَانِ فِي
الْحَقِيقَةِ ، فَكَأَنَّهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قَالَ : هُدْنَةٌ تَنْكَشِفُ عَنْ رَهَجِ
الْقِرَاعِ وَغُبَارِ الْمَصَاعِ ^(٣) . وَإِنَّمَا قَالَ : عَلَى دَخْنٍ : أَيْ أَنْ تِلْكَ الْهُدْنَةُ
كَأَنَّهَا غَطَاءٌ تَحْتَهُ هَيْئَةُ الْحَرْبِ وَزَلْزَالُ الْخُطْبِ ، وَلَيْسَ بِأَطْنِهَا كَظَاهِرِهَا
وَشَاهِدُهَا كَغَائِبِهَا . وَالِاسْتِعَارَةُ الْأُخْرَى قَوْلُهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ « وَجَمَاعَةٌ
عَلَى الْأَقْدَاءِ » فَكَأَنَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ شَبَّهَ الْجَمَاعَةَ عَلَى فُسَادِ الْغُيُوبِ
وَتَغْلُلِ ^(٤) الْقُلُوبِ بِالْعَيْنِ الْمُغْضِيَةِ عَلَى الدَّاءِ الْمُغْمَضَةِ عَلَى الْأَقْدَاءِ . فَالظَّاهِرُ

(١) العُثَانُ : هُوَ الدُّخَانُ لَفْظًا وَمَعْنَى .

(٢) الْقَسْطَلُ : الْقُبَارُ .

(٣) الْمَصَاعُ : النِّزَالُ ، يُقَالُ مَاصِعُهُ : بِمَعْنَى حَارِبِهِ وَنَازِلِهِ .

(٤) تَغْلُلُ الْقُلُوبُ : امْتَلَأَتْهَا بِالْقُلُوبِ .

سليم ، والباطن سقيم . وفي رواية أخرى زيادة في هذا الحديث فيها مجاز آخر ، وهي قوله عليه الصلاة والسلام : « وَفِتْنَةٌ عَمِيَاءُ صَمَاءُ وَدُعَاةُ ضَلَالَةٍ عَلَى أَبْوَابِ جَهَنَّمَ مَنْ أَجَابَهُمْ قَذَفُوهُ فِيهَا » . فوصفُ الفتنَةِ بالعَمَاءِ والصمم مجاز ، والمراد أن أهلها عُمى عن المرشد صُمُّ عن المواعظ ، فلما كانت الفتنَةُ سبباً لعماهم وصممهم جاز أن ينسب العمى والصمم إليها دونهم ، وقد يجوز أيضاً أن يكون المراد أنها تُعمى الأبصار برهج غبارها وتصم الأسماع بزَجَل أصواتها والقول الأول أقرب إلى الصواب وأشبه بمقاصد الكلام .

١٩٩ - ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام لرجل حَلَبَ نَاقَةً : « دَعِ دَاعِيَ اللَّبَنِ » وهذه استعارة ، والمراد أمره أن يُبْقِيَ في خِلْفِ الناقة شيئاً من لبنها من غير أن يستفرغ جميعه لأن ما يُبْقِيَ منه يَسْتَنْزِلُ عُقَاقِهَا^(١) ويستجِمُّ دِرَّتِهَا . فكأنه يدعو بقية اللبن إليه ويكون كالمثابة له ، وإذا استنفذ الحالب ما في الخلف أبطأ غَزْرُهُ ، وقلص دَرُّهُ .

٢٠٠ - ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام : « ما نَزَلَ مِنَ الْقُرْآنِ آيَةٌ إِلَّا وَلَهَا ظَهْرٌ وَبَطْنٌ » ، وَلِكُلِّ حَرْفٍ حَدٌّ ، وَلِكُلِّ حَدٍّ مَقْطَعٌ » ، وفي هذا الكلام استعارتان : إحداهما قوله عليه الصلاة والسلام : « ما نَزَلَ مِنَ الْقُرْآنِ آيَةٌ إِلَّا وَلَهَا ظَهْرٌ وَبَطْنٌ » . وقد قيل في

(١) العفاقة : بقية اللبن في الضرع بعد ما امتكأ أو كثره . انك : امتص

ذلك أقوال : منها أن يكون المراد أن القرآن يتقلب وجوهاً ويحتمل من التأويلات ضرباً كما وصفه أمير المؤمنين علي عليه السلام في كلام له ، فقال : القرآن حَمَلٌ ذو وجوه ، أى يحتمل التصريف على التأويلات والحل على الوجوه المختلفة ، وقد ذكرنا هذا الكلام في كتابنا : [الموسوم بنهج البلاغة] . ومن ذلك قول القائل : قلبت أمري ظهراً لبطن : أى صرفته وأدبرته ليبين لى منه وجه الرأى فأتبعه ، وطريق الرشد فأقصده . وأنشدنا أبو الفتح النحوى رحمه الله قول الشاعر :

أما تَرَانِي قَالِباً مَحْجَنِي أَقْلِبُ أُمْرِي ظَهْرَهُ لِلْبَطْنِ
* قَدْ قَبِلَ اللَّهُ زِيَاداً عَنِّي *

وكان رحمه الله يقول فى قوله : « قد قبل الله زياداً عنى » سر لطيف ، وهو أنه أقام قِبَلَهُ مقامَ عَزَلَهُ فكأنه قال قد عزل الله زياداً عنى لأنه إذا قُبِلَ فقد زال سلطانه وأُمِنَتْ سَطَوَاتُهُ . وقال آخرون : الظهر تنزيل القرآن وكلامه ، والبطن تأويله وإحكامه . وقال بعضهم : معنى الظهر هاهنا ما قصه الله سبحانه علينا فى القرآن من أنباء القرون وأخبار الملوك وما أوقعه بهم من سطواته وأنزله بهم من نعماته لما جمحوا فى أعنة الطغيان وأبعدوا فى مذاهب البنى والعدوان . وجميع ذلك أحاديث قصها سبحانه علينا ، فهى فى الظاهر أخبار منه لنا وأما المراد بالباطن فإنه سبحانه جعل تلك الأنباء المقصودة والأمثال المضروبة عظة ينبه بها على طريق الرشد ، ويحذر

مهما مصارع البغى ، فيتناهى عما كان السبب فى إهلاك القرون الماضية
والأمم الحالية . وذلك مخبر أخبرنا عن إيقاع السلطان بجماعة من الجناة .
فقوم قتلهم لما قتلوا ، وقوم قطعهم لما سرقوا ، وقوم جلدوا لما سكبوا ،
فظاهر ذلك أنه أنقال^(١) لنا عن هذه الأفعال الواقعة بمستحقها من
الحياة ، والباطن أنه وعظ وتنبيه لعقولنا على أن من أقدم منا على مثل تلك
المحظورات أنزل به مثل تلك العقوبات . وقد مضى فيما تقدم من كتابنا
هذا كلام مختصر على نظير لهذا الخبر إلا أننا فى هذا الموضع شرحنا
ذلك فضل شرح وبسطناه فضل بسط . و[الاستعارة الأخرى] قوله عليه
الصلاة والسلام : « وَلِكُلِّ حَرْفٍ حَدٌّ وَلِكُلِّ حَدٍّ مَطْلَعٌ » . قال
بعضهم ، معنى المطلع هاهنا يطلع قوم يعملون به ، وروى عن عبد الله
ابن مسعود أنه قال : ما من حرفٍ أو قال آية إلا وقد عمل بها قوم ،
أو لها قومٌ سيعملون بها . وقال بعضهم : المراد بالمطلع هاهنا المأتى الذى
يؤتى منه حتى يعلم تأويل القرآن من جهته . وقال بعضهم : المطلع هو
المنحدر من المكان المشرف إلى المكان المنخفض ، وقد يكون أيضاً
المصعد من المكان المنخفض إلى المكان المشرف ، فهو من الأضداد على
هذا التقدير ، فكأن الإنسان يكون فى التوصل إلى علم تأويل
القرآن بمنزلة الراقى إلى الذروة والصاعد إلى الذبجوة ، أو يكون فى التولج

(١) أقال : جمع قل ، وهو رواية الخبر .

على غوامضه بمنزلة الهابط من المكان المشتط إلى المكان المنحط . وقال بعضهم . الحد ها هنا الفرائض والأحكام ، والمطلع الثواب والعقاب . فكأنه تعالى جعل لكل حد من حدوده التي حدّها من الحرام والحلال مقداراً من الثواب والعقاب ، يلاقيه الإنسان في العاقبة ، ويطلع عليه في الآخرة . ومن ذلك ما يكثر على الألسنة من ذكر هول المطلع إنما يراد به ما يشرف الإنسان عليه بعد الموت من أعلام الساعة وأشراف القيامة . وعندى في ذلك وجه آخر ، وهو أن يكون المراد أن لكل حرف حد يجب على التالى أن يقف عنده ويتعرف مغزاه ومغيبه . فإنه إذا فعل ذلك أفضى به ذلك الحد إلى مطلع يشرف منه على حقيقة المعنى وجليه المغزى . فكان الوقوف عند تلك الحدود والتأمل عليها والتثبت فيها يفضى بالإنسان إلى مطالع معرفتها ومفاتيح أكمّتها^(١) فيكون كطالع الثنية في الإشراف على ماتحتها والإدراك لما استجّن عن الناظر قبل الإيفاء عليها . وهذا القول من استنباطى وما أظن أحدا قرّع بابه وطلع نقابه^(٢) قبلى .

٢٠١ - ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام « من أخصيا أرضاً ميتة فهي له وليس لعرق ظالم حق » ، وهذا مجاز والمراد به أن يحىء الرجل إلى أرض قد أحياءها نحى قبله فيغرس فيها غرساً أو

(١) الأكمة : جمع كامة (بالكسر) وهى وعاء الطلع وغطاء الزهر

(٢) النقاب : جمع نقب (بالفتح) وهو الطريق فى الجبل .

يحدث فيها حدثاً فيكون ظالماً بما أحدثه وغاصباً لحق لا يملكه .
 أضاف عليه الصلاة والسلام الظلم إلى العرق لأنه إنما ظلم بفرس
 فنسب الظلم إلى العرق دون صاحبه . ذلك كما قال : ليل نائم
 صائم : أى يُنام فى هذا ويصام فى هذا . وروى سفيان بن عيينة
 هشام بن عروة عن أبيه عروة بن الزبير قال : العروق أربعة ،
 ظاهران ، وعرقان باطنان . أما الظاهران : فالفرس والبناء
 الباطنان : فالتبر والمعدن . وربما روى هذا الخبر على الإضافة
 ليس لعرق ظالم حق ، فإن كانت هذه الرواية صحيحة فقد خرج
 من حيز الاستعارة ودخل فى باب الحقيقة .

- ٢٠٢ — ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام : « الله
 شَعْنًا » ، وهذه استعارة والمراد اللهم اجمع كلمتنا ، وانظّم ما
 من أمرنا ، وتبدد من شتملنا ، فأقام عليه الصلاة والسلام تقوى
 وانصداع الأمور الملتئمة مقام النعود المتشعث الذى كثر تشطّيب
 واستطارت الصدوع فيه ، وقد مضى الكلام على نظير هذه الكلمة
 ٢٠٣ — ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام : « تَقَلَّدُوا
 وَلَا تُقَلِّدُوا الْأَوْتَارَ » ، وهذه استعارة على أحد التأويلين : و

يكون المراد النهى عن طلب أوتار الجاهلية على الخيل بشن الغارات
 وشب النائرات ومعنى : لا تقلدوها ، أى لا تجعلوها كأنها قد قلدت ذلك
 الوتر فتقلدته وصنعت أخذ الثار فتضمنته . وذلك عبارة عن فرط جذم
 في الطلب ، وحرصهم على الدرك . فكأنه عليه الصلاة والسلام قال :
 « قلدوا الخيل طلب أعداء الدين والدفاع عن المسلمين ، ولا تقلدوها طلب أوتار
 الجاهلية ، ودخول مصارع الحمية » ، وإذا حمل الخبر على التأويل الآخر
 خرج عن أن يكون مجازاً ، وهو أن يكون المراد النهى عن تقليد الخيل
 أوتار القسي . وقيل في وجه النهى عن ذلك قولان : أحدهما أن يكون
 عليه الصلاة والسلام إنما نهى عنه لأن الخيل ربما رعت الأكلاء
 والأشجار فنشبت الأوتار التي في أعنانها ببعض شعب ما ترعاه من ذلك
 فحقتها أو حبستها على عدم المأكول والمشرب حتى تقضى نجبتها . والوجه
 الآخر أنهم كانوا في الجاهلية يعتقدون أن تقليد الخيل بالأوتار يدفع عنها
 شمة عين العائن ، وشرارة نظر المستحسن ، فيكون كالعوذ لها والأحراز^(١)
 عليها ، فأراد عليه الصلاة والسلام أن يعلمهم أن تلك الأوتار لا تدفع
 ضرراً ، ولا تصرف حذراً . وإنما الله سبحانه وتعالى الدافع الكافي ،
 والمعيد الوافي . ومما يقوى هذا التأويل ما روى من أمره عليه الصلاة
 والسلام بقطع الأوتار من أعناق الخيل . ولتقليد الخيل وجه آخر ، وهو

(١) العوذ : جمع عوذة (بالضم) وهي الرقية يتموذ بها من الشيطان والعين .
 والأحراز : جمع حرز وهو بهذا المعنى

أن العرب كانت إذا قَدَّرَتْ وظَفِرَتْ قَلَّدت الخيل العمائم . وذُ
معاوية بن أبي سفيان لما تغلب على الأمر ودخل السكوفة .
الحسن بن عليّ عليهما السلام فعل ذلك بخيله ، فقالت أم الهيثم
الأسود :

أَفَرَّ عَيْنِي أَنْ جَاءَتْ مُتَلَدَّةٌ خَيْلُ الشَّامِيِّينَ فِي أَعْنَاقِهَا الْحَرَّ

٢٠٤ - ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام : « ضَالَّةٌ
حَرَقُ النَّارِ » ، وهذا مجاز لأن الضالَّة على الحقيقة ليست بحرق
وإنما المراد أخذ ضالَّة المؤمن ، والاشتغال عليها ، والحول بينه
يُسْتَحَقُّ به العقاب بالنار . فلما كانت الضالَّة سبب ذلك حسن أن
باسمه لأن عاقبة أخذها يشول إلى حريق النار ، ويفضي إلى أليم الله .
وقد نهى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن أخذ ضوال الإبل وه
والهوامى الضائعة . قال الشاعر :

هَمَّتْ بِفُلْهَا بِالسَّيْلَجِينَ وَأَوْفَضَتْ بَوَادِي تَمِيلُ عَنْ جَبِينِ م
أَي ضَاعَتْ بِقُلْ هَذِهِ النَّاقَةُ بِهَذَا الْمَوْصِعِ الْمَذْكُورِ ، وَذَلِكَ لَا يَكُونُ إِ
تَقَطُّعَ هَلْبِهَا وَإِجْحَافَ الْبَسِيرِ بِهَا

(١) يقال فلان شاميّ وشاميّ وشاميّ منقوصاً (كمان في النسبة إلى الشام
الشاعر الشَّامِيُّ جَمْعُ شَامٍ المنقوص .

٢٠٥ - ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام : « إِنَّ هَذَا الدِّينَ مَتِينٌ فَأَوْغِلْ فِيهِ بِرَفْقٍ وَلَا تُبْغِضْ إِلَى نَفْسِكَ عِبَادَةَ اللَّهِ ، فَإِنَّ الْمُنْبَتَّ لَا أَرْضًا قَطَعَ وَلَا ظَهْرًا أَبْقَى » ، ووصف الدين بالمتانة هاهنا مجاز ، والمراد أنه صعب الظهر شديد الأسر . مأخوذ من متن الإنسان ، وهو ما اشتد من لحم منكبيه ، وإنما وصفه عليه الصلاة والسلام بذلك لمشقة القيام بشرائطه والأداء لوظائفه ، فأمر عليه الصلاة والسلام أن يدخل الإنسان أبوابه مترققاً ، ويرقى هضابه متدرجاً ليستمر على تجشم متاعبه ، ويتمرن على امتطاء مصاعبه ، وشبه عليه الصلاة والسلام العابد الذي يُحْسِرُ مُنْتَهً ، ويستنفد طاقته ، بِالْمُنْبَتِّ ، وهو الذي يُغْذِّي السَّيْرَ ، وَيَكْدُّ الظَّهْرَ منقطعاً من رُفْقَتِهِ ، ومنفرداً عن صحابته فتَحْسِرُ مطيته ، ولا يقطع شُقَّتَهُ . وهذا من أحسن التمثيلات وأوقع التشبيهات . ومما يقوى المراد بهذا الخبر ما كشفنا عن حقيقة الخبر الآخر عنه عليه الصلاة والسلام وهو فيما رواه بُرَيْدَةُ بْنُ الْحُطَيْبِ الْأَسْلَمِيُّ قَالَ : قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ : « عَلَيْكُمْ هَدْيًا قَاصِدًا فَإِنَّهُ مَنْ يَشَارَّ هَذَا الدِّينَ يَغْلِبُهُ »^(١) .

٢٠٦ - ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام : « إِذَا سَافَرْتُمْ فِي الْخِصْبِ فَأَعْطُوا الرُّكْبَ أُسْنَتَهَا » ، وفي رواية أخرى : « فَأَعْطُوا الرُّكْبَ أُسْنَانَهَا » . وهذه استعارة ، والمراد بالأسنة هاهنا على ما قاله جماعة

(١) الهدى القاصد : الطريق المعتدل . المشارة : أن تفعل بأخيك شراً يحوجه أن يفعل مثله بك .

من علماء اللغة الأسنان ، وهو ^(١) جمع الجمع ، لأن الأسنان جمع سن ،
والأسنة جمع الأسنان . والركب جمع الركاب ^(٢) ، فكأنه عليه الصلاة
والسلام أمرهم بأن يمشوا ركابهم زمان الخصب من الرعى في طرق
أسفارهم ، وعند نزولهم وارتحالهم فكفى عن ذلك بإعطائها أسنانها ،
والمراد تمكينها من استعمال أسنانها في اجتذاب الأكلاء ، وامتشاط
الأعشاب . فكأنهم تمكينها من ذلك قد أعطوها أسنانها ، وهذا كما
يقول القائل لغيره : أعط الفرس عنانها ، وأعط الراحلة زمامها : أى مكّنها
من التوسع في الجرى ، ومدّ العنق في الخطو . وعندى في ذلك وجه آخر
وهو أن يكون المراد مكنوا الركاب في الخصب من أن تسمن بكثرة الرعى
لأنهم قد عبروا في أشعارهم عن سمن الإبل وبدئها ^(٣) بالسلاح تارة ،
وبالأسنة تارة . قال الشاعر :

وَلَا تَأْخُذْ الْكُومُ الْجِلَادُ سِلَاحَهَا لَهُ، عِنْدَ صِرَّاتِ الشِّتَاءِ الصَّنَابِرُ ^(٤)
أى لم يمنعه سمن إبله وشارتها ^(٥) في عينه من أن ينحرفها لأضيافه ، ويبذلها
لطرّاقه ، فجعل السمن لها كالسلاح الذى تدافع به عن نحرها ، وتماطل

(١) الضمير يعود على لفظ الأسنة .

(٢) الركاب (ككتاب) : جماعة الأبل والجمع ركب (ككتب) .

(٣) البدن : السمن كالبدانة .

(٤) الكوم : جمع كوما ، وهى الناقة العظيمة السنام الجلود : جمع جلد أو جلدة

بمعنى القوى والقوية . صرّات : جمع صرّة (بالكسر) وهى شدة البرد .

الصنابر : شدة برد الشتاء .

(٥) الشارة : الحسن .

به عن عقرها ، وقد قال الآخر في مثل ذلك ، ويعنى الإبل :

• خَايَلْتُ فِيهَا وَلَمْ تَأْخُذْ أَمْتَهَا •

ومن أبيات لإياس بن سلم الأسلمي يمدح بها النبي عليه الصلاة والسلام :

وَأَيْتُكَ حَقًّا إِنَّ إِبِلَ مُحَمَّدٍ عَزَلُ تَنَاقُحٍ أَنْ تَهْبُ شَمَالُ

وَإِذَا رَأَيْتَ لَدَى الْفِنَاءِ قَرِيبَةً فَاصْتَ لَهْنٌ عَلَى الْخُدُودِ سَجَالُ

يقول إن إبله مبدولة عند نزول النازل وطروق الطارق ، فلا يمتعه من عقرها رؤاؤها وشآئرها ، فكأنها عَزَلٌ لا سلاح معها . كما جعل الشاعر الأول هذه الحال بمنزلة السلاح لها ، وأراد بقوله : إذا رأيت لدى الفناء قريبة : أى رأيت رُفْقَه قريبة بفناء النبي عليه الصلاة والسلام بكنين وتناوحن علماً بأنهن يُنَحَرْنَ لها ويُعْقَرْنَ لأجلها . وكذلك إذا هبت الشمال في صميم الشتاء حاذرن العقر وانتظرن النحر . وبما يقوى ذلك ما جاء في الحديث المشهور عنه عليه الصلاة والسلام وهو قوله عليه الصلاة والسلام : « إِنَّ الْخَفَاءَ وَالْقَسَوَةَ فِي الْفَدَّادِينَ إِلَّا مَنْ أُعْطِيَ فِي نَجْدَتِهَا وَرِسْلُهَا » . والفَدَّادُونَ^(١) هاهنا على أصح الأقوال هم أصحاب الإبل الكثيرة . فكأنه عليه الصلاة والسلام قال : إلا من أعطى من إبله في

(١) في القاموس المحيط : الفدادون هم الجمالون والريعيان والبغارون والحارون والفلاحون وأصحاب الوبر والذين آكلوا أصواتهم في حروثهم ومواشيهم والمكثرون من الإبل .

حال كثرة شحومها وشارة جسومها ، وسمى ذلك نَجْدَةً لها على ما قدمنا القول فيه لأنها إذا كانت في تلك الحال كانت كالمانعة لصاحبها من نحرها نقاسة بها وشحاً عليها . فكانت شارتها كالمنجدة لها ، والسلاح الذي تدفع به عن أنفسها . وقد قيل في رِسْلها هاهنا قولان : أحدهما في حال كثرة ألبانها موافقة لقوله عليه الصلاة والسلام : في نجدتها إذا كان ذلك بمعنى حسن شارتها . والقول الآخر أن يعطيها في حال يهون عليه إعطاؤها فيها ، وهي حال نقصان شحومها وخفة جسومها من قولهم : تكلم فلان بكذا على رِسْلِهِ ، أى والكلام هَيِّنَ عليه ، فهو متمهل فيه غير عجل وساكن غير غَلِقٍ ^(١) فكان المعنى إلا من أعطائها في حالتها كرامتها وهوانها واستقباحها واستحسانها كقولك في حال العسر واليسر وعند الطَّوْع والكَرْه . والقول الأول هو المعتمد .

٢٠٧ — ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام : « أنا بَرِيٌّ مِنْ كُلِّ مُسْلِمٍ مَعَ مُشْرِكٍ ، قيل : ولم يارسول لله ؟ قال : لا تَرَأَى ناراهما » ، وهذه استعارة ، وقد قيل في ترائي النارين قولان : أحدهما أن يكون المراد أن المسلم لا ينبغي له أن يساكن المشرك في بلاد فيكون منه بحيث إذا أوقد كل واحد منهما ناراً رآه الآخر فجعل الترائي للنارين وهو في الحقيقة للموقدين . والأصل في ذلك المدانة والمقابلة بقول القائل : دُورَ بَنِي فُلانٍ

تتناظر : أى تتدانى وتتقابل . ويقولون المسترشد : إذا أخذت فى طريق كذا
فنظر إليك الجبلُ فخذ عن يمينه أو عن يساره ، والمراد إذا قابلك الجبل ،
فنظرتَ إليه فجعلوا النظر له ^(١) لأنهم أقاموا الجبل مقام الرؤية الناضرة
والرفيق المسير ، وقال الشاعر :

سَلِ الدَّارَ مِنْ جَنْبَى حَبْرٍ فَوَاهِبٍ إِلَى مَا رَأَى هَضْبُ الْقَلْبِ الْمُضِيحُ ^(٢)
وهَضْبُ الْقَلْبِ وَالْمُضِيحُ : موضعان متقاربان فجعلهما لتجاذبهما كأنهما
يتراءيان ، ومثله قول الآخر : حيث نرى الدَّيْرَ وَالْمَنَارَ . والوجه الآخر
أن يكون المراد بالنار هاهنا نار الحرب لأنهم يكونون عن الحرب بالنار لما
فيها من رَهَجِ الْمِصَاعِ وَوَهَجِ الْقِرَاعِ ^(٣) ، ومن ذلك قول الشاعر :

كُفَا حَيَّانٍ يَصْطَلِيَانِ حَرْبًا رِداءَ الموتَ بينهما جديداً

وعلى هذا المعنى جاء التنزيل بقوله تعالى : « كَلِمَاتٌ أُوتُوا نَاراً لِلْحَرْبِ
أُطْفَأَهَا اللَّهُ » ، فكأنه عليه الصلاة والسلام قال : « وناراهما مختلفان »
أى حرباهما متباينتان ، هذه تدعو إلى الهدى والرشاد ، وهذه تدعو إلى
العمى والضلال ، وقد يجوز فى ذلك عندى وجه آخر ، وهو أن يكون
المراد لا يجتمع سِرِّبَاهُما ولا يختلط سِرِّحَاهُما ^(٤) ، والنار عندهم اسم لسيات

(١) له أى للجبل : أى أن الناظر هو الجبل .

(٢) حبر (كفلز) : موضع ، وواهب : جبل لى سليم .

(٣) الرهج (بالفتح والتحرير) : الغبار والشغب والعينان صالخان هنا . المصاع :

النزال والقتال . الوهج : اتحاد النار . القراع : المضاربة بالسوف .

(٤) السرح : المال السائم .

الإبل ، يقولون على هذه الإبل نار بنى فلان : أى وسهمهم ، وعلى هذا قول بعض خُراب^(١) الإبل فى ذكر أذوادٍ استلبها ، وأراد عرضها لبيعها :
يَسْأَلْنِي الْبَاعَةُ مَا بَعَاكَهَا إِذْ زَعَزَعُوها فَسَمَتُ أَبْصَارُها^(٢)
فَكُلُّ دَارٍ لِلْأَناسِ دَارُها وَكُلُّ نَارٍ الْعَالَمِينَ نَارُها

أى هى مأخوذة من قبائل شتى ، فوسمها غير مُتَّسِق ، ونجارها غير متفق وهذا الوجه يعود إلى معنى الوجه الأول ، لأن المراد أن المسلم والمُشرك لا يجوز اجتماعهما فى دار حتى تجتمع أذوادهما^(٣) فى الرعى وأورادهما^(٤) فى الوُرد^(٥) ، فقوله عليه الصلاة والسلام على هذا الوجه : لا يترأى ناراها أى لا يختلط وسماهما . وأما الحديث الآخر ، وهو قوله عليه الصلاة والسلام : لا تستضيئوا بنار أهل الشرك . فقيل إن المراد لا تستشيروهم فى أموركم ، فعملوا بأرائهم ، فترجعوا إلى أقوالهم ، وهذا أيضاً مجاز آخر ، لأنه عليه الصلاة والسلام شبه الاسترشاد بالرأى بالاستضاءة بالنار إذا كان فعله كفعلها فى تبين المبهم ، وتنوير المظلم .

-
- (١) الخراب : جمع خارب ، وهو اللص وخرب (كضرب) : صار لصا .
(٢) الباعة : جمع بائع وهو اشترى لأن باع من الأضداد بمعنى اشترى وباع .
النجار : الأصل . الزعزعة : التحريك بشدة .
(٣) الأذواد : جمع ذود ، وهو ثلاثة أبرة إلى العشرة أو إلى خمس عشرة أو عشرين أو ثلاثين أو مائتين والاثنتين والنسب .
(٤) الأوراد : جمع ورد (بالكسر) وهو القوم يردون الماء .
(٥) الورد (بالكسر) ورود الماء .

٢٠٨ — ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام : « إِنَّ عَمَّ الرَّجُلِ صِنُوءُ أَبِيهِ » وهذه استعارة ، والمراد أن أصلهما من منبت واحد ، فهما كالنخلتين من الصنَّوان يجتمع أصلهما ويفترق رأساهما ، فيكونان اثنين في الرؤية ، والأصل واحد في الحقيقة يقال : صِنُوءٌ ، والجمع صِنُوانٌ ، مثل قِنُوءٍ والجمع قِنُوانٌ . قال سبحانه : « صِنُوانٌ وَغَيْرُ صِنُوانٍ » . وقيل أيضاً : الصنَّوانُ المجتمع ، وغير الصنَّوان غير المجتمع .

٢٠٩ — ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام : « تَمَسَّحُوا بِالْأَرْضِ فَإِنَّهَا بِكُمْ بَرَّةٌ » وهذه استعارة ، والمراد بقوله : « فَإِنَّهَا بِكُمْ بَرَّةٌ » يرجع إلى أنها كالأم للبرية لأن خلقهم ومعاشرهم عليها ورجوعهم إليها . فلما كانت الأرض تسمى أمًّا لنا من الوجوه التي ذكرناها كان قوله عليه الصلاة والسلام : « فَإِنَّهَا بِكُمْ بَرَّةٌ » يرجع إلى وصفها بالأمومة لأنهم يقولون : الأرض ولود يريدون كثرة إنشاء الخلق واستيلادهم عليها ، وقال ذو الرمة في وصف الأم بالبر ، وهو يذكّر فراخ النعام :

جاءت من البيض زُعرًا لا لباس لها إلا الدهاس وأُمّ برة وأب^(١)
والدهاس : الرمل . ولقوله عليه الصلاة والسلام : « تَمَسَّحُوا بِالْأَرْضِ » وجهان : أحدهما أن يكون المراد التيمم منها في حال الطهارة وحال الجنابة . والوجه الآخر : أن يكون المراد مباشرة تراها بالجماء في حال السجود عليها

(١) الدهاس : كل لين سهل لا يبلغ أن يكون رملا وليس بتراب ولا طين .

وتغفر الوجوه فيها ، ويكون هذا القول أمر تاديب ، لا أمر وجوب ، لأن من سجد على جنة الأرض ومن سجد على حائل بينها وبين الوجه واحد في إجراء الصلاة إلا أن مباشرتها بالسجود أفضل ، وقد روى أن النبي عليه الصلاة والسلام كان يسجد على الحجرة ، وهي الحصير الصغير يعمل من سمف النخل ، فبان أن المراد بذلك فعل الأفضل لا فعل الأوجب ومما يقرب شبهاً من هذا الخبر ما روى من قوله عليه الصلاة والسلام : « نِعِمَّتِ الْعَمَّةُ لَكُمْ النَّخْلَةُ » . فكأنها لا تنفعهم بها وتعويلهم على ثمرتها قد قامت مقام القرية الحانية وذات الرحم المتحفية ، ولم يجعلها عليه الصلاة والسلام بمنزلة الأم للناس كما جعل الأرض في الخبر الأول لأنهم في الحقيقة لم يخلقوا منها ، ولم ينسبوا إليها ، فجعلها من حيث الانتفاع بها بمنزلة أقرب الإناث القرائب من الإنسان بعد اللاتي ولدنه واللاتي ولدن هو ، وتلك عمة الإنسان وخالته إلا أن أخت الأب أرفع منزلة من أخت الأم ، ولذلك جعلها عمة ، ولم يجعلها خالة .

٢١٠ — ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام في دعاء كان يدعو به : « رَبِّ تَقَبَّلْ تَوْبَتِي وَاغْسِلْ عَنِّي حَوْبَتِي » وهذه استعارة ، والحوبة والحوب^(١) المأثم ، والمراد احطط عني وزري ، وتعتمد ذنبي وخطيئتي ، ولكن المعصية لما كانت كاللآرن الذي يصيب الإنسان ،

(١) الحوبة (بالفتح) والحوب (بالفتح أو الضم) : كلاما الإثم

فيفحش أثره ، ويقبح منظره أقام عليه الصلاة والسلام إمطة وزرها ، وإسقاط إثمها مقام غسل الأدران ، وإمطة الأدناس ، لأن الإنسان بعدها يمود نقي الأثواب طاهراً من العيب^(١) . وهذا الدعاء من النبي عليه الصلاة والسلام على وجه التعبد والخضوع والتطامن والخشوع ، لا أن له عليه الصلاة والسلام حَوْبَةٌ يَسْتَحِطُّ وزرها ويستغسل دَرَنَهَا ، أو يكون قوله عليه الصلاة والسلام ذلك على طريق التعليم لأُمَّته كيف يتوب المعاصي ، وينيب الغاوى ، ويستأمن الخائف ، ويستقيم الجانف^(٢) . والسبب الذى لأجله قلنا إن الأنبياء عليهم السلام لا يجوز أن يواقعوا المعاصي ، ويقدموا على المغاوى أن الحكيم تعالى إذا أرسل رسولا جنبه كل ما ينفر عنه ، ويصرف عن القبول منه ، ومعرفة ما يقطع على أنه منفر مأخوذ من عادات الناس ، وكبائر المعاصي كلها منفرة لأنها تُخرج من ولاية الله تعالى إلى عداوته ، وتوجب عاجل مَقْتَه وعقوبته . وفى الصغار خلاف ليس كتابنا هذا موضع بيانه واستقصاء حِجَاجِه ، وقد بسطنا الكلام على ذلك فى باب مفرد من جملة كتابنا الكبير فى متشابه القرآن ، فمن أراد استيعاب معانيه ومعرفة الخلاف فيه . فليقصد مطالعته من هناك بتوفيق الله

(١) العيب . العيب .

(٢) الجانف : المائل عن الطريق السوى

٢١١ — ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام : « مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَذْهَبَ كَثِيرٌ مِنْ وَخْرِ صَدْرِهِ فَلْيَعِمْ شَهْرَ الصَّبْرِ وَثَلَاثَةَ أَيَّامٍ مِنْ كُلِّ شَهْرٍ » ، فقوله عليه الصلاة والسلام : « وَخْرِ صَدْرِهِ » استعارة ، والمراد غشه ودَغَلُهُ وفساده ونَقْلُهُ ، وذلك مأخوذ من أسم دَوِيْبَةٍ يقال لها الْوَحْرَةُ وجمعها وَحَرٌ ، وهي شبيهة بِالْخِرْبَاءِ . وقال بعضهم : هي تشبه الْعِظَاءَ ، إذا دبَّت على اللحم فأكل منه إنسان وَحِرَ صَدْرُهُ ، أى اشتكى داء فيه ، ويقال : إنها شبيهة باليعسوب^(١) الأحمر تسكن القليب والآبار قال الراجز :
فِي كُلِّ يَوْمٍ قَرِيْبَةٌ مُوَكَّرَةٌ يَشْرِبُهَا مَرِيَّةٌ كَالْوَحْرَةِ^(٢)

فشبه عليه الصلاة والسلام ما يسكن في صدر الإنسان من الغش والبلابل ويجول في قلبه من مذمومات الخواطر بهذه الدويبة المنعوتة ، فكأنه عليه الصلاة والسلام شبه القلب بالقليب ، وشبه ما يستجِنُ فيه من نَغْلِهِ بما يستجِنُ في القليب من وحره .

٢١٢ — ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام : « أَعُوْذُ بِاللّٰهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيْمِ مِنْ هَمْزِهِ وَنَفْسِهِ وَنَفَقِهِ . قَقِيلٌ يَا رَسُولَ اللَّهِ : مَا هَمْزُهُ وَنَفْسُهُ وَنَفَقُهُ ؟ فقال : أَمَا هَمْزُهُ فَاَلْمُوْتَةُ ، وَأَمَا نَفْسُهُ فَالشَّعْرُ ، وَأَمَا نَفَقُهُ فَالْكِبْرُ » ، وفي هذا الكلام استعارات ثلاث : الأولى منها الاستعارة

(١) اليعسوب : أمير النحل .

(٢) وكُرِتُ الْإِفَاءُ : ملائكة .

من همز الشياطين ، وأصل الهمز الغمز والدفع وكل شئ دفعتة فقد همزته ،
ويروى بيت القطامي :

تَرَاهُمْ يَهْمِزُونَ مَنِ اسْتَرْكَوْا^(١) وَيَحْتَدِبُونَ مَنِ صَدَقَ لِلْصَّاعِ^(٢)
ويروى يَهْمِرُونَ ، فالهمز على ما فسرّه النبي عليه الصلاة والسلام هاهنا
الموتة وهي الجنون على الحقيقة ، فإن الشيطان لا سلطان له على الإنسان
ولا يصره ويوسوس له ويفزعه ، وقد صرح التنزيل بذلك ، فقال تعالى :
« وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ
فَأَخَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ
فَأَسْتَجِبْتُمْ لِي » الآية ، فعلنا أنه لا سلطان له على الإنسان إلا بالوساوس
والتخايل ، وضروب التهاويل ، فلما كان ما يلحق الجنون من الأفزع
ويأخذه من العرواء والانزعاج ، عن وساوس الشيطان جاز أن ينسب
ذلك إلى همزه وغمزه على طريق المجاز والاتساع في نظائره . « والاستعارة
الثانية » الاستعارة من نفث الشيطان ، وهي الشعر على ما فسرّه النبي عليه
الصلاة والسلام ، وذلك مخصوص في شعر المشركين الذي كانوا يهجون
به رسول الله صلى الله عليه وآله وخيار المسلمين ، أو ما يجري مجراه من
أشعار المسلمين الإسلاميين لأنه عليه الصلاة والسلام قد قال : « إن من

(١) استركه : عده ركيبا ، وهو من لايهاب ، والضعيف

(٢) الصاع : التزال . وصدقه : شدته .

الشعر حكماً» ، فلا يجوز أن يكون هذا القول متناولاً لجميع الشعر عموماً .
وموضع الاستعارة أن الشيطان لما كان يزين المشركين الطعن في
أعراض المسلمين ، وكان الشعر مما تلفظ به ألسنتهم شبهه عليه الصلاة
والسلام بالشيء الذي تنفث به أفواههم ، ونسبه إلى الشيطان لأن تزيينه
ما زين لهم كان سبباً لما نفثت به ألسنتهم ، وقد يجوز أن يكون إنما
نسبه إلى نفثه لأن الشيطان كان نفثه في أفواههم ، وتكلم به على ألسنتهم
كما يقولون للمتكلم بالكلمة الفاوية : مانطق على لسانك إلا شيطان . قال
الفرزدق في قصيدته التي يهجو فيها إبليس ، وهي مشهورة :

وإن ابن إبليس وإبليس ألبنا لهم بعذاب الناس كل غلام
ها نفثا في في من قمويهما على النابح العاوى أشد رجام^(١)
ويروى لجام ، يريد بقوله : ألبنا كل غلام ، أى سقياه اللبن ، فكأنهما
غذاياه بذلك فدرب به ونشأ عليه وتعوده ، «والاستعارة الثالثة» : الاستعارة
من نفخ الشيطان ، وهو على ما فسرناه عليه الصلاة والسلام الكبر والعجب
ولا نفخ هناك على الحقيقة ، وإنما المراد به ما يسوؤه الشيطان للإنسان
من تعظيم نفسه واستحقار غيره ، وتصغير الناس في عينه ، فكأنه بهذا
الفعل ينفخ في رُوعه ما يستشعر به أنه أحق من غيره بالتعظيم وأولى

(١) قوله أشد رجام : أى أشد نفث ، يقول : إن إبليس وابنه غلامهما بأساليب
الإغراء للناس حتى يفعلوا تحت طائلة عذاب الله . وهما اللذان نفثا في فم الفرزدق
ذلك النفث الشديد الذي يوجهه إلى عدوه فهو ينبج ويعوى من شدة إيلام
الهجاء له .

بالتفخيم تشبيهاً بالشئ الأجوف كالزَّق ، وما في معناه لأنه إذا نفخ فيه انتفخ بعد ضميره ، وعظم بعد صغره ، ومن قولهم للمتكبر إذا أسرف في الكبر ، واستطار من العجب : قد نفخ الشيطان في مناخره ، يريدون به المعنى الذى قدمنا ذكره .

٢١٣ - ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام : « العَيْنُ وَكَاءُ السَّةِ » فإذا نامت العين استطلق الوِكَاءُ^(١) ، وهذه من أحسن الاستعارات ، والسَّةُ : اسم للسَّتَةِ . قال الشاعر :

شَأْنُكَ قُعَيْنٌ غَمًّا وَتَمِيمٌ وَأَنْتَ السَّةُ السُّمْلَى إِذَا دُعِيَتْ نَصْرٌ^(٢)
فكأنه عليه الصلاة والسلام شبه السَّتَةَ بالوعاء ، وشبه العين بالوكاء ، فإذا نامت العين انحل صرار السَّتَةِ كما أنه إذا زال الوِكَاء دَسَمَ^(٣) بما فيه الوعاء إلا أن حفظ العين للسَّتَةِ على خلاف حفظ الوِكَاء للوعاء ، فإن العين إذا أشرجت^(٤) لم تحفظ سَتَها ، والأوكية إذا حلت لم تضبط أوعيتها . ومن الناس من ينسب هذا الكلام إلى أمير المؤمنين على عليه السلام ، وقد ذكر محمد بن يزيد المبرِّد في الكتاب المقتضب في باب اللفظ

(١) السَّة (بفتح السين وتخفيف الهاء) : العجز وحافة العبر . الوكاء : الحيط الذى تشد به الصرة والكيس .

(٢) شَأْنُ الرجل أَخَاء : سبقه وغلبه . قعين : بطن من أسد . نصر : أى النصره وقوله دعيت نصر كما يقال : دعيت نزال .

(٣) الدسم (كالنعم) : الدفع والنق .

(٤) يقال أشرج الخريطة : إذا شددها وربطها

بالحروف وفي الأظهر الأشهر أنه للنبي عليه الصلاة والسلام .

٢١٤ — ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام وهو يسأل عن سحابة عرضت : « كَيْفَ تَرَوْنَ قَوَاعِدَهَا وَبَوَاسِقَهَا وَكَيْفَ تَرَوْنَ رَحَاهَا؟ » في حديث طويل ، وفي هذا الكلام استعارات ثلاث ، فإنه عليه الصلاة والسلام شبه أصولها ومناشئها وطوائعها ومبادئها بقواعد البيت التي هي أصل بنائه وأول إنشائه ، وشبه فروعها المستطيلة إلى أوساط السماء ، وأعاليتها البعيدة عن الآفاق ، بفروع الشجرة الباسقة التي هي مطف أوراقها ومزدحم أفنانها ، ويقال : بَسَقَتِ الشَّجَرَةُ والنخلة تَبْسُقَانِ بُسُوقًا إذا طالتا . وكلُّ طويل باسق . وفي التنزيل : « وَالنَّخْلَ بِأَسْقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ » . وشبه مُسْتَدَارَهَا في السماء عند استوائها بالرحا المستديرة على قطبها ومن ذلك قيل رحا الحرب ، وهو الموضع الذي يستدار فيه المعركة والجلاد والتفاف الرجال بالرجال . ومنه قول سليمان بن صُرَدٍ الخُزَاعِيُّ في حديث له : أُتِيتُ عَلِيًّا عَلَيْهِ السَّلَامُ حِينَ رَفَعَ يَدَهُ عَنْ مِرْحَى الْجَمَلِ ، يَرِيدُ عَنْ تَجَنُّمِ تِلْكَ الْحَرْبِ بِالْمَكَانِ الْخُصُوصِ الَّذِي دَارَتْ بِهِ رَحَاهَا . وَبَلَفَتْ فِيهِ مِنْهَاهَا ، وَعَلَى ذَلِكَ قَوْلُ الْكُمَيْتِ بْنِ زَيْدٍ يَصِفُ السَّحَابَ :

كَأَنَّمَا الزَّجَرُ وَالصَّهِيلُ بِهِ مَرٌّ حَى مِرَاسِ الْحُرُوبِ ذَوَاللَّجَبِ

يريد بالزجر والصهيل خفيف ودقه وأزيز رعدده . ويحتمل قولهم : رحا الحرب وجهين : أحدهما أن يريدوا به اللبث والأستقرار ، والآخر أن

يريدوا به الجَوْلَان والمدار ، وقد يجوز أن يكون قوله عليه الصلاة والسلام في السحابة : « كيف ترون رَحَاهَا » . يريد به صوت رَعْدِهَا كما سألهم عن تَلَعِ بَرْقِهَا ، وكثيراً ما تشبه أصوات الرعد القاصفة بقتل أصوات الأَرْحَاءِ الدائرة ، ولا يمتنع أن يعبر عما تسمعه الأذن بعبارة ما تشاهده العين كما يقول القائل لغيره إذا سأله عن سماع الغناء المطرب والحداء المعجب : كيف ترى هذا الغناء ، وكيف ترى هذا الحداء ؟ ، وذلك شائع عند أهل اللسان

٢١٥ — ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام : « كُلُّكُمْ بنو آدَمَ طَفُّ الصَّاعِ لم تملئوه ، وليس لأحد على أحدٍ فضلٌ إلا بالتَّقْوَى في حديث طويل ، فقوله عليه الصلاة والسلام : « طَفُّ الصَّاعِ » هاهنا استعارة . والمراد أن كلَّ من كان من ولد آدَمَ عليه الصلاة والسلام فهو ناقص لا يوصف بالتمام ، ولا يعطى مزيد الكمال ، وإنما يتفاضل الناس بأعمالهم ويفضلون بكثرة فضائلهم . وإنما يوصف الإنسان بأنه فاضل إذا أضيف إلى الناقص ، وإلا فلا بد من نقائص تتخلل فضائله ، ومساو تتوسط محاسنه . إما بأن يكون فاضلاً في حال وناقصاً في حال ، وإما بأن يكون قاصراً عما فوقه وزائداً على مَنْ دونه . وقوله عليه الصلاة والسلام : « طَفُّ الصَّاعِ لم تملئوه » من العبارات العجيبة عن هذا المعنى ، يريد أن كلَّكم قاصر عن غاية الكمال تشبيهاً بطَفِّ المسكيات ، وهو أن يقارب الامتلاء من غير أن يمتلئ . يقال : طَفَّ المسكيات وطُفِّقَ إذا أريد به هذا

المعنى ، وهو ضد الطَّلَاع والظَّفَاح ، لأن هاتين اللفظتين يعبر بهما عن بلوغ غاية الامتلاء واللفظة الأولى يعبر بها عن الوقوف دون حد الامتلاء . ويقال إناء طَفَّانُ إذا بلغ الماء أ كَثْرَهُ ولم يبلغ غايته ، ولو قال عليه الصلاة والسلام . أتتم بنو آدم كَطَفَّ الصَّاعَ خرج الكلام عن أن يكون مستعاراً لأن دخول كاف التشبيه في الكلام يخرججه عن باب المجاز مثل قوله عليه الصلاة والسلام في حديث : « خرجت حين بزغ القمر كأنه فَلَقُ جَفْنَةٍ » ، ومثل قوله عليه الصلاة والسلام في حديث : « فإن الساعة كالْحَامِلِ الْمُتِمِّ التي لا يدري أهلها متى تَفْجُوهم بولادها ليلاً أو نهاراً » ، ولو قال : والقمرُ فَلَقُ جَفْنَةٍ ، والساعة حاملٌ مُتَمِّ كان الكلام من حيث الاستعارة . ومن هذا القبيل قوله عليه الصلاة والسلام : « المؤمنون كالْبُنْيَانِ يَشُدُّ بَعْضُهُم بَعْضاً » لو قال : بتيان لكان من قبيل المجاز . ومثله أيضاً قوله عليه الصلاة والسلام لقوم كانوا يرفعون أيديهم في الصلاة : « مَا لِي أَرَاهُمْ يَرْفَعُونَ أَيْدِيَهُمْ كَأَنَّهُمْ أَذْنَابُ خَيْلٍ شَمْسٍ » . ولو قال : أَيْدِيَهُمْ أَذْنَابُ خَيْلٍ شَمْسٍ لكان الكلام مستعاراً ، ولذلك نظائر كثيرة يطول بُذْكَرُهَا الْكَتَابُ ، ولم يرض عليه الصلاة والسلام بقوله : « طَفَّ الصَّاعِ » في إرادة الغرض الذي تكلمنا عليه في الخبر حتى قال : « لم تملئوه » فزاد المعنى إيضاحاً ، والكلام إفصاحاً . وفي ضمن هذا القول فهمى عن الافتخار على الناس إلا بالفضائل الدينية دون الفضائل الدنيوية ، وهو معنى قوله عليه الصلاة والسلام : « ليس لأحدٍ على

أحد فضل إلا بالتقوى » لأن فضائل الدين وُصِّلَ^(١) بتوصل بها إلى النعم الباقى والدَّرَج العوالى، وفضائل الدنيا لا تعد غايتها، ولا توصل إلى ما بعدها فهى كالفرس الذى لا يثْمِر، والزاد الذى لا يُبَلِّغ .

٢١٦ — ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام : «اللَّهُمَّ إِنَّا نَعُوذُ

بِكَ مِنَ الْأَبْهَمَيْنِ» قيل : إنهما السيل والحريق ، وقيل : بل هما السيل والجمل الصَّئول . وتسمية كل واحد من هذه الثلاثة بالأبهم مجاز ، وذلك أن الأبهم هاهنا أسم للشيء لا يُمْلِك دفعه ، ولا يستطيع رده ، ولأله نطق فيكلم ولا سمع فيه يَهْجُجُ^(٢) ، ولا معقول فيُسْتَعْتَبُ . ومن ذلك قيل للفلاة بهماء إذا كانت عمياء المسالك لا يهتدى بآياتها ، ولا يستدل بأعلامها ، وقال الأعشى :

وبهماء بالليل غَطَشَى الفلا قِ يُوْئِسْنِي صَوْتُ فَيَّادِهَآ^(٣)

والفياد : أسم طائر، وقيل إنه ذكر البوم . ومثل تسميتهم الشيء أبهم إذا كان على الصفة التى ذكرناها ما أنشدنا شيخنا أبو الفتح عثمان بن جنى النحوى رحمه الله وأظنه من أبيات الكتاب^(٤) :

(١) وصل : جمع وصلة (بالضم) بمعنى سبب ووسيلة .

(٢) يقال هجج بالسبع : إذا صاح به وزجره .

(٣) فلاة غطاء : لا يهتدى فيها . فغطشى فى البيت مقصور عن مد .

(٤) المراد كتاب سيره ، وقد جرت عادة المؤلف بهذا الاطلاق كما هي عادة القدماء .

وأقول إن بيت الكتاب هو :

وداهية يتقيها الرجا لُ مرهوبة الحد لافالها

قال والمراد بقوله : لافالها ، أى ليس لها جهة واحدة تنقى منها كما يتقى الحيوان الالادى من جهة أنيابه أو ناحية أظفاره ، بل كل جهاتها محذور ، وكل نواحيها مخوف . وقد روى فى هذا الخبر مكان التعموذ من الأبهمين التعموذ من الأعميين والمعنى فيهما متقارب ، لأن الأبهم هو الذى لا يعلم كيف يدفع ومن أى وجه يضبط ، والأعمى هو الذى لا يعلم علام يرد ولا لأى وجه يقصد ؟

٢١٧ — ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام : « لا تقوم الساعة حتى يظهر الفُخْشُ والبُخْلُ ، ويَخُونُ الأَمِينُ ويُوْتِمَنُ الخَائِنُ ، وَتَهْلِكَ الوُعُولُ وتَظْهَرُ التُّحُوتُ » قال : الوعول^(١) وجوه الناس وأشرافهم ، والتحوت الذين كانوا تحت أقدام الناس لا يؤبه لهم . فقوله عليه الصلاة والسلام : « الوعول والتحوت » مجازان على التفسير الذى كره صلى الله عليه وآله ؛ لأنه شبه عليه الصلاة والسلام الناس وجِلَّتْهم بالوعول لأنها تعلو قلل الجبال ، وتكون فى شَعَف^(٢) الهضاب ، فهى أبدأ

وداهية من دواهى المنو ن يرهبها الناس لافالها

وقد علق عليه سيبويه بقوله فجعل للداهية فسا ؛ حدثنا بذلك من ثقب به . وعلق عليه الشنمري فقال : ومعنى لافالها لامدخل إلى معانها والتداوى منها أى هى داهية مشككة .

(١) أصل الوعول جمع وعل ، وهو تيس الجبل الذى يعتصم بالصياصى فلا ينال ثم شبه به الشريف من الناس ، لعلو قدره ورفعة شأنه وعدم استطاعة النيل منه .

(٢) الشعف (بالتحريك) : جن شعفة (بالفتح) وهى رأس الجبل

عالية المنازل بعيدة عن المتناول . وقوله : التحوت وهو جمع تحت ، يريد به الحاملين الغمورين ، والقليلين الذليلين لأنهم الطبقة السفلى من الناس ، وهم الذين نزلوا عن غايات العلية ، وقعدوا بمهابط الذلة ، فكأنهم تحت أجلة الناس وأشرافهم ، والأشراف والوجوه فوق لهم ، وتفسيره عليه الصلاة والسلام التحوت بأنهم الذين كانوا تحت أقدام الناس لا يعلم بهم مجاز آخر ، ولبس المراد أنهم كانوا تحت مواطئ الأقدام على الحقيقة ، وإنما المراد أنهم كانوا من خمول الذكر ، وغموض القدر بحيث يشبهون بالشيء الموطوء لذاته ، والمنبوذ لبدناته

٢١٨ - ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام في الكتاب الذي كتبه لصاحب دومة ، وهو المعروف بأبي كيدر مُنْصَرَفَهُ صلى الله عليه وآله من غزوة تبوك : « إِنَّ لَنَا الضَّاحِيَةَ مِنَ الْبَعْلِ ، وَلَكُمْ الضَّامِنَةَ مِنَ النَّخْلِ » ، وفي رواية أخرى : « إِنَّ لَنَا الضَّاحِيَةَ مِنَ الضَّحْلِ ، وَلَكُمْ الضَّامِنَةَ مِنَ النَّخْلِ » . والضحل : الماء القليل . والرواية الأولى أصح : والضاحية من البعل : هي النخيل التي في ضواحي البلدة وصحاريها ، والبعل : اسم لما شرب الماء بعروقه من الأرض ولم يُتَعَهَّدْ كغيره بالسقي . قال عبد الله بن زواحة :

مُنَالِكَ لَا أَبَالِي طَلَعَ بَعْلٌ وَلَا سَقَى وَإِنْ عَظُمَ الْإِنَاءُ

ويروى نَحْلٌ بَعْلٌ ، وقوله عليه الصلاة والسلام : « وَلَكُمْ الضَّامِنَةَ مِنَ النَّخْلِ » مجاز ، والمراد بالضامنة هاهنا ما تَضَمَّنَهُ القرى والأمصار من النخل ،

فسيماها عليه الصلاة والسلام ضامنة ، وهي في الحقيقة مضمونة ، وهذا موضع المجاز ، ومثل ذلك قول الشاعر :

وَمُحْتَرِشٍ ضَبَّ الْعَمْدَاوَةِ مِنْهُمْ

بِحُلُوِّ الْخَلَا حَرَّشَ الضَّبَابِ الْخَوَادِعَ^(١)

فجعل الضباب خوادع ، وهي في الحقيقة مخدوعة؛ لأنها تخدع بضروب من الحيلة حتى تخرج من مجاحرها وتُسْتَذَاق من مكانها . والخلا مقصورا؛ اسم من أسماء الحشيش ، وهو أيضاً اسم لحسن الكلام ، وهو المراد في هذا المكان ، يقال إنه يحسن الخلا : إذا كان حسن الكلام .

٢١٩ - ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام في حديث :

« وَاسْتَذَكِرُوا الْقُرْآنَ فَلَهُوَ أَشَدُّ تَفْصِيًّا مِنْ صُدُورِ الرِّجَالِ مِنَ النِّعَمِ مِنْ عَقْلِهَا » كذا رواه أبو عبيد ، ورواه أبو عبيدة « حادثوا القرآن بالدرس ، فلهو أشد تفصيًّا من صدور الرجال من الإبل المعلقة تنزع إلى أوطانها » . فقوله عليه الصلاة والسلام : « فلهو أشد تفصيا من صدور الرجال » . مجاز ، والمراد بالتفصي هاهنا الذهاب والتفنت . قال الشاعر :

يَا حُصَّ مَالِيكَ ذَا التَّفْصَى وَالْأَثَرُ الْبَيْنُ الْفَصْصُ

فكانه عليه الصلاة والسلام شبه تفلت القرآن وذهابه من الصدر مالم

(١) احترش الصائد الضب : إضافة الضب إلى العداوة من إضافة المشبه

به إلى المشبه . حرش الضباب : تنصب كلمة حرش على المفعولية المطلقة ، يريد

أن هذا الرجل بحلو كلامه وحسن تأنيبه قد انتزع العداوة من صدورهم .

يُحَادِثُ بِالنَّارِ وَيَتَعَهَّدُ بِالقِرَاءَةِ بِتَفَلُّتِ النِّعَمِ الْمُعَقَّلَةِ مِنْ عُقْلِهَا إِذَا لَمْ يُسْتَظْهَرِ بِإِحْكَامِ عُقْلِهَا ، فَأَقَامَ عَلَيْهِ الصَّلَاةَ وَالسَّلَامَ الْإِسْتِكْثَارَ مِنْ دَرَسِ الْقُرْآنِ فِي أَنَّهُ يَجْمَعُ مَشْتَتَهُ وَيَضْبِطُ مُتَفَلِّتَهُ مَقَامَ الْإِسْتَظْهَارِ بِعَقْلِ النِّعَمِ فِي أَنَّهُ يَقْصُرُ مُتَسَرِّعُهَا ، وَيَحْجِسُ نَوَازِعَهَا . وَالْكَلَامُ هَاهُنَا يَدُلُّ بِمَفْهُومِهِ عَلَى أَنَّ الْقُرْآنَ هُوَ الْمُتَنَصِّىُّ عَنِ الصَّدُورِ ، وَالْحَقِيقَةُ أَنَّ الْقُلُوبَ هِيَ الْمُتَعَلِّقَةُ مِنْهُ وَالتَّارِكَةُ لَهُ فَلَمَّا كَانَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ جَازَ عَلَى طَرِيقِ الْحِجَازِ أَنْ يُقَالَ : إِنَّ الْقُرْآنَ هُوَ التَّارِكُ لَهَا ، وَالتَّنَفُّصُ مِنْهَا .

٢٢٠ — وَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ : وَقَدْ سُئِلَ عَنِ الْإِبْلِ فَقَالَ : « أَعْنَانُ الشَّيَاطِينِ لَا تُقْبَلُ إِلَّا مُوَلَّيَّةٌ وَلَا تُذَرُّ إِلَّا مُوَلَّيَّةٌ وَلَا يَأْتِي نَفْعًا إِلَّا مِنْ جَانِبِهَا الْأَشْأَمِ » ، فَقَوْلُهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ : « أَعْنَانُ الشَّيَاطِينِ » حِجَازٌ ، وَالْأَعْنَانُ : التَّوَاحِي . وَمِنْهُ قَوْلُهُمْ : أَعْنَانُ السَّمَاءِ . أَيْ نَوَاحِيهَا . وَقَالَ بَعْضُهُمْ : الصَّحِيحُ أَنَّ عَنَانَ الشَّيْءِ نَوَاحِيهِ ، فَالْأَوَّلُ قَوْلُ الْمَصْرِيِّينَ ، وَالثَّانِي قَوْلُ الْكُوفِيِّينَ . وَالْمُرَادُ بِقَوْلِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ : « نَوَاحِي الشَّيَاطِينِ » عَلَى الْقَوْلَيْنِ جَمِيعًا الْمُبَازَنَةُ فِي وَصْفِ الْإِبْلِ بِالْأَخْلَاقِ السَّيِّئَةِ ، وَالطَّبَاعِ الْمُسْتَعَصِيَةِ ، فَكَأَنَّ الشَّيَاطِينِ تَحْتَلُّهَا وَتُنْفَرُّهَا وَتَهْلِكُهَا وَتَأْمُرُهَا . وَمِمَّا يَقْوَى ذَلِكَ الْحَدِيثَانِ الْآخِرَانِ فِي نَعْتِ الْإِبْلِ ، فَأَحَدُهُمَا قَوْلُهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ : « إِنَّ الْإِبْلَ خَلَقْتَ مِنَ الشَّيَاطِينِ » وَالْحَدِيثُ الْآخَرُ قَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ : « إِنَّ عَلَى ذُرَّةٍ كُلِّ بَعِيرٍ شَيْطَانًا » ، وَهَذَا أَيْضًا حِجَازٌ ؛ لِأَنَّهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بَالِغٌ بِذَلِكَ فِي وَصْفِ

الإبل بالحران والذمار والاستصعاب والمجاج ، فكأنه لإفراط فقرها
 وثماسها قد امتطت الشياطين ذراها ، فهي تؤزها^(١) وتجوسها^(٢) ، وقيل
 إن المراد بقوله عليه الصلاة والسلام : لا تقبل إلا مولية المثل الذي يقال
 فيها إنها إذا أقبلت أدبرت ، وإذا أدبرت أدبرت : أي أن إقبالها إذا
 كان بمنزلة الإدبار ، فإدبارها إذا غاية الإدبار . وقوله عليه الصلاة والسلام :
 « ولا يأتي نفعها إلا من جانبها الأشأم » . يريد أنها لا تحلب ولا تركب
 إلا من جهات شماتها ، ويقال لليد الشمال : الشؤمى . ومنه قوله تعالى :
 « وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمِ » يريد أصحاب الشمال . والدليل على
 ذلك قوله تعالى في الآية الأخرى : « وَأَصْحَابُ الشَّامِ مَا أَصْحَابُ الشَّامِ »
 قلنا قال سبحانه في الآية الأولى : « فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ » قال : « وَأَصْحَابُ
 الْمَشْأَمِ » ، ولما قال سبحانه في الآية الأخرى : « وَأَصْحَابُ الْمِيمَنَةِ »
 قال : « وَأَصْحَابُ الشَّامِ مَا أَصْحَابُ الشَّامِ » ، والمراد في الآيتين واحد
 لأنه سبحانه طلب المقابلة في الكلام تأليفاً لأجزائه ، وملاحظة بين أعضائه
 ويقال للجانب الأيمن الإنسى ، وللجانب الأيسر الوحشى ، هذا على قول
 البصريين ، وقال بعض الكوفيين الإنسى : هو الأيسر ، وهو الذى تأتبه
 الناس عند الاحتلاب والركوب ، والوحشى هو الأيمن ، وإنما سمي وحشياً
 لأن الراكب والحالب لا يأتیان منه ، وإنما يأتیان من الأيسر دونه ، ومنه

(١) الأز : التهييج والإغراء .

(٢) تجوسها : تدخل بينها .

قول زهير :

فجالتُ على وَحْشِيَّهَا وَكَأَنِّهَا مُسَرَّةً بَلَّةٌ مِنْ رَازِقِي مُعْضَدٍ^(١)
أراد جانبها الأيمن لأنها إذا فرغت حاصت من جانبها الأنسى الذى تخاف
أن يؤتى منه وهو الشمال إلى جانبها الوحشى الذى تأمن الإتيان من ناحيته
وهو اليمين . والخائف إنما يفرّ من موضع الدعر والخافة إلى موضع الأيمن
والسلامة

٢٢١ - ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام : « مِنْ شَرِّ
مَا أُعْطِيَ الْعَبْدُ شُحٌّ هَالِعٌ أَوْ جُبْنٌ خَالِعٌ » ، والهالِع : الخيف المفزع
والاسم منه المَلْع ، وهو أشدّ الجزع . وقوله عليه الصلاة والسلام : « أَوْجِبِنِ
خَالِعٌ » مجاز : أى يخلع قلب الجبان ، وهذا على المبالغة فى وصفه بوهل
الرَّوْعِ وَنَجَبِ الرَّوْعِ^(٢) ، وليس يبلغ الجبن على الحقيقة إلى أن يخلع قلب
الجبان من مناطه ، ويزعجه عن قراره ، وإنما المراد بذلك ما يعرض فى
القلب عند الخوف من نوازغ الأفكار ، ونوازغ الحِذارِ^(٣) . وعلى ذلك
قوله تعالى : « وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ » . وقد

(١) جالت . ذهبت وجاءت . الرازق : ثوب أبيض . المعضد : المخطط ، جعل البقرة
المخططة كأنها سربت بهذا الثوب .

(٢) الوهل : شدة الفزع . الروع المفزع . والمراد بوهل الروع : أشدّ الفزع
النخب : الجبن ، من قولهم رجل نخب (كفرح) : أى جبان . الروع
(بالضم) القلب .

(٣) النزغ : الوسوسة . النزغ : الميل

أوضحنا الكلام على ذلك في كتاب : « مجازات القرآن »

٢٢٢ - ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام : « ما من أمير عَشْرَةٍ إِلَّا وَهُوَ يَجِيءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَغْلُوبَةٌ يَدَاهُ إِلَى عُنُقِهِ حَتَّى يَكُونَ عَمَلُهُ الَّذِي يُطْلِقُهُ أَوْ يُوثِقُهُ » ، وهذه استعارة لأن العمل على الحقيقة لا يطلق المرء من وثاق ولا يوثقه بعد إطلاق ، وإنما المراد أنه يجيء مغلولاً يداً إلى عنقه ، فإن كان عمله صالحاً أطلق الله عنه رِبْقَةً وَثَاقَهُ ، وإن كان عملاً طالحاً زاده الله خِثَافاً إِلَى خِثَاقِهِ . وإنما أضاف عليه الصلاة والسلام الإطلاق والإيثاق للعمل لأن العمل سببهما وصلاحه وفساده مؤثر فيهما . وقوله : « يوثقه » المراد به يسلمه ويهتلكه ، يقال : وَثَقَ الرَّجُلُ يُوَثِّقُ وَثَقًا^(١) إذا هلك ، وقد أوثقه غيره إذا أهلكه . ومنه قولهم : أوثق فلان دينه إذا ثلثه وأفسده . ويروى أويُوثقه^(٢) والمعنيان متقاربان .

٢٢٣ - ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام في كتاب كتبه لثَقِيف : « وإن ما كان لهم من دين إلى أجل فبلغ أجله فإنه ليأط مبرأ من الله » وهذه استعارة والمراد باللياط هاهنا الربا المضاف إلى رموس الأموال كأنه عليه الصلاة والسلام : شبهه بالشئ الملتصق بالشئ والمضاف إليه ، وكل شئ ألتصق بشئ فقد ليط به . ومنه لياط الخوض ، وهو ما يلصق به بعض

(١) الفعل كفرح في جميع تصرفاته .

(٢) أوثقه : أهلكه .

أحجاره إلى بعض عند بنائه أو إصلاحه من طين أو ما يقوم مقامه ، يقال :
 قد لاط فلان حوضه إذا رمه وأصلحه ، وفي حديث لأمير المؤمنين عليه
 السلام مع الفرزدق : إن أباه غالباً جاء به إليه صلى الله عليه وآله ، وهو
 يَلُوطُ حوضاً له ، وفي قوله عليه الصلاة والسلام : « مبرأ من الله » سرٌّ
 لطيف ، وهو أنه لما جعل الرباً ملصقاً إلى أموالهم على الوجه المذموم جعله
 مبرأ من الله سبحانه ، فكان ذلك الإلصاق بالأموال سبباً للتبرئة من الله
 تعالى . والمراد مبرأ من رضاء أو من دين الله أو من ثواب الله ، لا بدّ من
 تقدير واحد من هذه المضافات ، لأن الله سبحانه لا يجوز أن يتصل به
 شيء على الحقيقة ، لأن ذلك من صفات الأجسام المكيفة ، والأبعض
 المؤلفة التي يجوز عليها أن تقتلني فتلتصق ، وأن تنزاعني فتفترق ، تعالى الله
 عن ذلك علواً كبيراً . وليس هذا من مواضع استقصاء الكلام على هذا
 المعنى^(١) وقد يجوز أن يكون المراد باللياط هاهنا القشر ، يقال : ليّط
 وليّاط . قال الشاعر يصف قوساً عربية :

فَمَلَّكَ بِاللَّيْطِ الَّذِي تَحْتِ قَشْرِهَا كَعَرِيقٍ بِيضٍ كَنَّهُ الْقَيْضُ مِنْ عِلِّ
 فقوله ملك : أي شدد بترك قشر النبعة عليها ما تحته من عودها ، فقويت
 بانضمام القشر إليها . وذلك مأخوذ من قول القائل : مَلَكْتُ الْعَجِينَ ،
 أي أحكمت عجنه ، وموضع الذي هاهنا نصب ملك كأنه قال : فقوى

(١) المراد الكلام في نفي التجسيم عن الله سبحانه وتعالى وتأويل كل ماورد موها
 ذلك ، وللمعتزلة كلام طويل في هذا .

بالليط عود القوس ، والغريق : القشر الرقيق الذى بين جسم البيضة وبين قشرها الأعلى ، والقشر الأعلى هو القيض ، والليط أيضاً الجلد ، والجمع ألياط ، والليط أيضاً كون الشيء^(١) ، ذكر ذلك أبو عبيد فى الغريب المصنف ، فيكون الربا المضاف إلى رءوس الأموال على هذا القول شبيهاً بالقشر المضاف إلى العود فى أن العود هو القائم بنفسه ، والقشر كالتبع له والنوط به .

٢٢٤ — ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام : « إنَّ للشيطان نَشُوقاً وَلَعُوقاً وَدِسَاقاً » ، وهذه الكلمات الثلاث محمولة على الجاز ، لأنَّ النشوق ما استنشقه الإنسان بأنفه ، واللَّعُوق مالهقه بلسانه ، والدَّسَام هاهنا الشيء الذى يجعله سداداً لأذنه ، يقال منه دَسَمْتُ الشيء أدُسَمُهُ دَسَمًا: إذا سدَّدته . والمراد بهذه الكلمات قريب من المراد بالحديث الذى تقدَّم كلامنا عليه فى هذا الكتاب ، وهو استعاذته عليه الصلاة والسلام من هَمَزَاتِ الشَّيْطَانِ وَنَفَثِهِ وَنَفْخِهِ فَكَأَنَّهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ شَبَهَ مَا يَسُوقُهُ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ مِنَ الْمُجَبِّ بِنَفْسِهِ وَالْإِزْرَاءِ عَلَى غَيْرِهِ حَتَّى يَشْمَخَ بِأَنفِهِ وَيَتَنَأَى بِعِطْفِهِ بِالنَّشُوقِ الَّذِى يَنْشِقُّهُ إِيَّاهُ ، فَيَحْدُثُ لَهُ هَذَا الْخَلْقُ الذَّمِيمُ ، وَالطَّبِيعُ اللَّثِيمُ ، وَقَوَى ذَلِكَ بِذِكْرِ اللَّعُوقِ ، فَكَأَنَّ الشَّيْطَانَ يُلْمِقُهُ بِهَذَا التَّسْوِيلِ لَعُوقًا إِذَا وَصَلَ إِلَى جَوْفِهِ أَحْدَثَ لَهُ خِيَلًا الْكَبِيرَ ، وَمَدَّ لَهُ فِي غُلُوءِ الْمُجَبِّ . وَشَبَّهَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ صَرْفَ الشَّيْطَانِ لِلْإِنْسَانِ عَنْ

(١) أى وجوده .

مراشده وإصمائه عن سماع قول مرشده بالدَّسَام ، وهو الصَّام الذي تُسَدُّ به الأذن ، فتحجب عن سماع الأصوات وزواجِر العظام

٢٢٥ - ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام في مرضه الذي

مات فيه : « أَغْبَطْتُ عَلَى الْحُمَى » وهذه استعارة ، وربما قيل : أَغْمَطْتُ^(١) بالميم ، قال الواقدي في هذا الحديث : أصابته حمى مُغْمِطَةٌ بالميم ، وقال الأصمعي : أغبطت علينا السماء ، إذا دام مطرها ، وقال أبو عبيد : هما لغتان بالميم والباء قد سمعناهما . وهذا كقولهم : سَبَدَ الرجل رأسه وسَمَدَهُ إذا سَنَأَصَلَ خلقه ، وأشبه ذلك كثيرة ، وَأَغْبَطْتُ الحمى بالباء أكثر في كلامهم ، والأصل في ذلك إلزام الرجل ظهر البعير ، يقال : أغبط فلان رحله على مطيته ، أي أطال مكثه عليها وإلزامه لها . ومن ذلك قول الراجز : (إغباطنا اللبس^(٢) على أصلابه) وقول الآخر

وأزمته قتباً توسطه فقربت فهي علينا تغبطه

ومنه سمي التغبط ، وهو مركب من مراكب النساء ، فكأنه عليه الصلاة والسلام شبه لزوم الحمى له بلزوم القتب ظهر الراحلة لأنها إذا ألزم ظهرها عقره وأكثر دبره ، ويقال : قتب مُعْقِرٌ : إذا عض الغارب وأدمى المناكب ، فكذلك الحمى إذا دام لبثها على الإنسان هاضمت متنه وحسرت قوته

(١) هذه إحدى روايتي الحديث .

(٢) المراد باللبس : الرجل ، وأصله الشجر الذي تتخذ منه الزحاح

٢٢٦ - ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام : « خَيْرُ النَّاسِ فِي آخِرِ الزَّمَانِ الرَّجُلُ النَّوْمَةُ » وهذا مجاز ، والمراد بالنَّوْمَةُ هاهنا : الرجل الخامل الشأن الخفي المكان ، لا الكثير النَّوْمِ على الحقيقة . ومثله الحديث الآخر : « رَبِّ ذِي طِمْرَيْنِ لَا نَوْمَةَ لَهُ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لِأَبْرَأَ قَسَمِهِ ^(١) » . لأن الخاشع العابد ، والمنقطع الزاهد كثيراً ما يكون خامل الشخص مَيِّت الذِّكْرِ لخفائه على النواظر وانقطاعه عن المجامع ، ومن ذلك قولهم : نَامَ جَدُّ آلِ فُلَانٍ ، أَيْ خَمَلَ بَعْدَ اشْتِهَارِهِ ، وَسَقَطَ بَعْدَ ارْتِفَاعِهِ . قَالَ الشَّاعِرُ :

نَامَتْ جَدُودُهُمْ وَأَسْقَطَ نَجْمُهُمْ وَالنَّجْمُ يَسْقُطُ وَالْجُدُودُ تَنَامُ

٢٢٧ - ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام : « مَنْ خَالَفَ الْجَمَاعَةَ فَقَدْ خَلَعَ رِبْقَةَ الْإِسْلَامِ مِنْ عُنُقِهِ » وهذه استعارة ، والرَّبْقَةُ : حَبْلٌ يَرْبُطُ بَيْنَ عَوْدَيْنِ ثُمَّ تَجْعَلُ فِيهِ عُرَى فُتَرْبَقُ فِيهِ السَّخَالُ ^(٢) : أَيْ تَرْبُطُ فِيهِ ، وَيُقَالُ فِي إِبِلِ الصَّدَقَةِ : عِمَالٌ عَامٌ وَاحِدٌ لِأَنَّ الْإِبِلَ تُعْمَلُ ، وَفِي الْغَنَمِ رِبَاقٌ وَاحِدٌ لِأَنَّ الْغَنَمَ تُرَبَّقُ ، وَالْمُرَادُ بِذَلِكَ صَدَقَةُ عَامٍ مِنَ الْإِبِلِ أَوِ الْغَنَمِ ، فَشَبَّهَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مَا فِي عُنُقِ الْإِنْسَانِ مِنْ لَوَازِمِ الْإِسْلَامِ وَمُعَاقِدِ الْإِيمَانِ بِالرَّبْقَةِ الَّتِي فِي عُنُقِ السَّخَالِ لِأَنَّهَا تُصَدَّه إِذَا هُمْ بِالشُّرُودِ ، وَتُمْسِكُهُ إِذَا جَازَبَ إِلَى التَّزْوِجِ ، وَكَذَلِكَ الْإِسْلَامُ يَمْنَعُ صَاحِبَهُ مِنَ الْارْتِكَاسِ

(١) النومة : خول الشأن . الطمر (بالكسر) : الثوب الخلق . أبرأه نفسه :

أَيْ صَدَقَهُ بِتَحْقِيقِ مَا أَقْسَمَ عَلَيْهِ .

(٢) السخال : أولاد الضأن ما كانت .

في المحظورات ، والتهوُّك في الضلالات^(١)

٢٢٨ — ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام في حديث طويل :
« تُؤَخَّرُونَ الصلاة إلى شَرِّقِ الْمَوْتِ » وقد قيل في ذلك أقوال كلها بعيدة
عن المحجة ، ومع ذلك فيخرج الكلام من حيز الاستعارة غير قول واحد
وهو أن يكون المراد أنهم يؤخرون الصلاة إلى ألا يبقى من النهار إلا بقدر
ما بقى من نفس الميت الذى قد شَرِّقَ بريقه ، وغَرَّغَر^(٢) ببقية نفسه ،
فشبه عليه الصلاة والسلام تلك البقية بُشْفَافَةَ الدَّماء التى قد قُرُبَ
انقضاؤها ، وحان فناؤها .

٢٢٩ — ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام : « لَا تَرْفَعْ
عَصَاكَ عَنْ أَهْلِكَ » ، وهذا القول مجاز على أكثر الأقوال ، وذلك أنه
عليه الصلاة والسلام لم يرد الضرب بالعصا على الحقيقة لأن ذلك مكروه
عنده ومذموم فاعله ، ألا تراه عليه الصلاة والسلام يوصى أمته بأن يرفقوا
بِمَنْ مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ حَنُوءًا عَلَيْهِمْ ، ورَأْفَةً بِهِمْ ، ونظراً إِلَيْهِمْ ، فكيف
بالأحرار من الأهل والولد الذين حقهم أوجب والحنو عليهم أولى ؟ . وإنما
المراد لا ترفع التأديب عنهم ، وَلَا تَغْبِ التَّقْوِيمَ لَهُمْ ، فكفى عن ذلك بالعصا
حملاً للكلام على عرف العرب لأن المتعارف بينها أن التأديب في الأكثر

(١) الارنكاس : السقوط ، التهوك : التعبير ، والهواك (كشداد) : الساقط في

هوة الردى .

(٢) غرغر : جاد بنفسه عند الموت .

لا يكون إلا بقرع العصا وقد يجوز أن يكون المراد بذلك الاجتماع والائتلاف من قولهم : فلان قد شق عصا المسلمين إذا فرّق جماعتهم وبدّد ألقمتهم : ومنه قول صِلَة بن أَشِيم^(١) لأبي السَّلِيل^(٢) إياك وقتلَ العصا يقول : إياك أن تكون قاتلاً أو مقتولاً في شق عصا المسلمين .

ومنه قول جرير :

فلما التقى الحيّان أُلْقِيَتِ العصا ومات الهوى لما أُصِيبَتْ مَقَاتِلُهُ
يقول لما التقى الحيّان وقع الائتلاف والدنو وزال التمتع والنبوة ، فكأنه عليه الصلاة والسلام أراد بقوله : « لا ترفع عصاك عن أهلك » ، أى احنهم أبداً على الصلاح والائتلاف ، وامنعهم من الفساد والخلاف . ويقال للرجل : إذا كان رقيق السيرة جميل الإيالة^(٣) إنه للين العصا . قال معن ابن أَوْس المُرَزَيْيَّ :

عَلَيْهِ تَمْرِيْبٌ وَادِغٌ لَيِّنُ الْعَصَا يَسَاجِلُهُا حُمَاتِهِ وَتَسَاجِلُهُ^(٤)
وقد تكلمنا على نظير هذا الحديث فيما تقدّم .

٢٣٠ - ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام لبعض أصحابه :

(١) صِلَة (كعدة) وأشيم (كأحمد) ، والتركيب : اسم لرجل من التابعين .

(٢) أبو السليل : هو ضريب (بالتصغير) بن نقيز (بالتصغير) : نأبي .

(٣) الإيالة : الرئاسة .

(٤) الحُمَات (بضم الحيم) : جمع حمة ، وهو معظم الماء ، والضمير في عليه يعود إلى الحوض . الصريب : الساق .

« كَيْفَ تَصْنَعُ فِي فِتْنٍ تَنْجُمُ مِنْ أَطْرَافِ الْأَرْضِ كَأَنَّهَا صِيَاصِي بَقَرٍ »
 وفي هذا الكلام مجاز على بعض الأقوال ، وهو أن يكون المراد تشبيه الفتن
 الناجمة من أطراف الأرض بنجوم صياصي البقر وهي قرونها ، وإنما
 سميت صياصي تشبيها لها بالصياصي التي هي الحصون ، فكأنها تحتوى بقرونها
 كما تحتوى الرجال بحصونها ، فأراد عليه الصلاة والسلام أن الفتن تنجم صفاراً
 ثم تعظم وتبدو سحابة^(١) ثم تُبْرَم كنجوم قرون البقر لأنها تبدو هئات
 ضئيلات ، ثم تكون شككا ناكيات^(٢) ، وقد يجوز أن يكون المراد
 بتشبيه الفتن هاهنا بقرون البقر ، المبالغة في وصفها بالحدة والشدة وكثرة
 العديد والعُدَّة . وقد يجوز أيضاً أن يكون تشبيهاً بقرون البقر لكثرة
 ما يشرع فيها من الأسنة ، ألا ترى إلى قول بعض العرب : الأسنة قرون
 الخيل ، لأنها توضع منها مكان القرون من ذوات القرون وصَدْم الخيل
 بعواليها كنطح البقر بصياصيتها ، وليس موضع المجاز من هذا الكلام قوله
 عليه الصلاة والسلام كأنها صياصي بقر لأننا قد ذكرنا فيما تقدم أن دخول
 كاف التشبيه في الكلام يخرج منه من باب المجاز ، ولكن الموضع الذي
 يكون فيه هذا القول من حيز المجازات قوله عليه الصلاة والسلام في فتن

(١) السحيل : الحبل على قوة واحدة ، والمراد به الضعيف وضده المبرم ، وهو
 المحكم القتل .

(٢) الشكك : جمع شكة (بالكسر) وهي السلاح . الناكيات ، من قولهم : نكيت
 العدو ، وفيه نكاية : قتل وجرح .

تنجم من أطراف الأرض ، فجعلها بمنزلة النبات الذي يكون خافياً فيظهر والقرون الناشئة التي تكون صغاراً فتكبر .

٢٣١ - ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام في حديث يذكر فيه أشرط الساعة : « فعند ذلك تبقى الأرض أفلاذ كبدها » ، وهذه من الاستعارة العجيبة ؛ لأنه عليه الصلاة والسلام شبه الكنوز التي استودعها بطون الأرض بأفلاذ الكبد ، وهي شعبها وقطعها لأن شعب الكبد من شرائف الأعضاء الرئيسة ، فكذلك الكنوز من جواهر الأرض النفيسة ، ولما شبهها عليه الصلاة والسلام بأفلاذ الكبد من الوجه الذي ذكرناه جعل الأرض عند إخراجها كأنها تقيأت ودسعت^(١) بما استودعته منها . وفي قوله عليه الصلاة والسلام : « تبقى الأرض أفلاذ كبدها » زيادة فائدة في المعنى المراد ، وهو وصف الأرض بالمبالغة في إخراج كنوزها حتى لا يخفى منها خافية ولا يبقى باقية ، وذلك كما يقول القائل : قد تقيأ فلان كبده إذا أراد المبالغة في وصف باستيعاب جميع ما في جوفه . وذلك معروف في كلامهم ، وموضوع على قاعدة العرف بينهم .

٢٣٢ - ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام في حديث : « مَنْ قَالَ كَذَاً وَكَذَاً غُفِرَ لَهُ وَلَوْ كَانَ عَلَيْهِ ظِفَاحُ الْأَرْضِ ذُنُوباً^(٢) » وهذه

(١) الدسع (كالمنع) : الدفع والقيء .

(٢) عثرنا بهذا الحديث في النهاية لابن الأثير وفي الفائق للزمخشري ، وفي لسان العرب بهذا النص ، لم يذكر فيه المسكن عنه بلفظي كذا وكذا . ونسكتا وجدنا في التاج وفي البخاري حديثاً قريباً من لفظه وهو : « ما على الأرض

استعارة والمراد : ولو كان عليه ملء الأرض ذنوبا ، فجعل الأرض كالإناء الذى طنح ماؤه ، وبلغ الغاية امتلاؤه ، وفى قوله عليه الصلاة والسلام : « طنح الأرض » زيادة معنى على قوله : ملء الأرض أو طنح الأرض لأن الطنح ، والملء : يفيدان بلوغ الحد فى الامتلاء ، والطنح : يفيد مجاوزة الحد فى الامتلاء . وقد مضى الكلام على هذا المعنى فيما تقدم من هذا الكتاب .

٢٣٣ — ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام : « إِنَّ الْقُرْآنَ شَافِعٌ مُشَفَّعٌ ، وَمَا حِلٌّ مُصَدَّقٌ » وهذا القول مجاز ، والمراد أن القرآن سبب لثواب العامل به ، وعقاب العادل عنه ، فكأنه يشفع للأول فيشفع ويشكو من الآخر فيصدق ، والماسحلهاهنا : الشاكي . وقد يكون أيضاً بمعنى المناكر ، يقال : محل^(١) فلان بفلان : إذا مكربه^(٢) . قال الشاعر :
أَلَا تَرَى أَنَّ هَذَا النَّاسَ قَدْ نَصَحُوا لَنَا عَلَى طُولِ مَا غَشُّوا وَمَا مَحَلُّوا

٢٣٤ — ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام : « لَا يَكُونُوا مُغْوِيَاتٍ لِمَالِ اللَّهِ » وهذه استعارة ، والمغواة فى الأصل : زبية تخفر

أحد يقول لا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله إلا كفرت عنه خطاياه ولو كانت مثل زبد البحر . وفى الجامع الصغير : « من قال سبحان الله وبحمده فى يوم مائة مرة ولو متفرقة حطت عنه خطاياه وإن كانت مثل زبد البحر » .

(١) من باب قطع .

(٢) ونه أورد صاحب الصحاح هذا الحديث وقال : جملة يعمل بصاحبه إذا لم يتبع ما فيه : أى يسعى به إلى الله تعالى .

للسباع والذئاب ، ويمتوه رأسها ليخفي قعرها ، ويجعل فيها سخل يستدعى به السباع والذئاب إليها ، فتكون بها كمة له إذا وقع فيها ، فأواد عينه الصلاة والسلام بهذا القول لا يكونوا كالمهالك لمال الله بأن يأخذوها بالمرء والخداع ، وينفقوها في الفسوق والضلال ، فيكونوا لها كالمغويات التي تتخذ ظواهرها وتهلك بواطنها ، وقال رؤبة بن العجاج ، يعني الدهر : إلى مغواة الفتي بالمِرصاد . كأنه قال : يسوق الفتي إلى مهلكته تشبيهاً بالزبية التي ذكرنا حالها ووصفنا الحيلة فيها^(١)

٢٣٥ — ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام : «إياكم والمغمضات من الذنوب» وهذه استعارة ، والمراد بالمغمضات هاهنا على ما فسرهُ الثقات من العلماء الذنوب العظام يركبها الرجل وهو يعرفها ، فكأنه يغمض عينيه تعاشياً عنها وهو يبصرها ، ويتناكرها اعتماداً وهو يعرفها ، ومثل ذلك قول أبي النجم يصف ناقة :

• يَرْسِلُهَا التَّغْمِيزُ إِنْ لَمْ تُرْسَلِ •

وذلك أن الناقة إذا غَشِيَتْ الخوض الذي تزداد عنه حملتها شدة العطش على الاقتحام عليه ، فغَمَضَتْ عينها ، وحملت على عصي الزادة حتى تَرِدَهُ ،

(١) قال أبو عبيد : هكذا روى الحديث ، أي مغويات اسم فاعل من أغوى ، والذي تكلمت به العرب مغويات (بالواو المشددة المفتوحة) واحدها مغواة . وروى الحديث بصورة أخرى وهي : أن قريشاً تريد أن تكون مغويات لمال الله . قالوا : أي تريد أن تكون مصائد للمال وبها لك كمثل المغويات .

وربما روى هذا الخبر بفتح الميم من المقضات ، فيكون المراد به على هذا الوجه ضد المراد به على الوجه الأول ، لأن المقضات بالكسر كما قلنا : الذنوب العظام ، والمقضات بالفتح : الذنوب الصغار ، وإنما سميت مقضات لأنها تدق وتحنق ، فيركبها الإنسان بضرب من الشبهة ، ولا يعلم أنه عاصٍ بفعلها ، ولا معاقب من أجلها .

٢٣٦ - ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام وقد أتاه رجل فقال : « السلام عليك يا نبي الله ، فقال : وعليك ورحمة الله ، ثم أتاه رجل آخر ، فقال : السلام عليك يا نبي الله ورحمة الله وبركاته ، فقال : وعليك ، فقيل له : يا رسول الله لم لم تقل لهذا كما قلت للذي قبل ؟ فقال : إنه تشافها » ، فقوله عليه الصلاة والسلام : « إنه تشافها » استعارة ، والمراد استفرغ جميع التحية . فلم يدع منها شيئاً يراده على لفظه ويرد عليه جواباً عن قوله والأولان أبقيا من تحيتهما بقية^(١) ردت عليهما ، وأعيدت إليهما ، وأصل ذلك مأخوذ من التشاف ، وهو تتبع بقية الإناء والخوض حتى يستنفذ جميع ما فيه ، وتلك البقية تسمى الشفافة . قال الشاعر :

(١) يدل هذا على أن الذين حبوا رسول الله كانوا ثلاثة : الأول قال : السلام عليك فرد عليه الرسول : وعليك ورحمة الله وبركاته ، والثاني قال : السلام عليك ورحمة الله فكان رد الرسول عليك ورحمة الله وبركاته ، والثالث قال : السلام عليك ورحمة الله وبركاته فكان رد الرسول عليك . ولم نثر على الحديث

أخو فَمَرَاتٍ دَبَّتْ فِي عَظَامِهِ شُفَافَاتُ أَعْجَازِ الْكَرَى فَهُوَ أَخْضَعُ
يريد بقايا الكرى وصُباياته ، ودليل ذلك قوله : أَعْجَازِ الْكَرَى ، أَى
أواخره وعقاييله ؛ ومن أمثال العرب : ليس الرى عن التشاف . يقولون :
ليس يُرَوِّى العَطْشَانُ تَتَبِعُ بَقِيَّةَ الْمَاءِ حَتَّى يَسْتَفْرِغَ جَمِيعَ مَا فِي الْإِنَاءِ .

٢٣٧ — ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام : « سَيِّدُ الْأَيَّامِ
يَوْمُ الْجُمُعَةِ » وهذا القول مجاز ، والمراد أن ليوم الجمعة شرفا ونباهة يبين
بهما من سائر الأيام ، فيكون مقدما لها ، وعالياً عليها لما يختص به من صلاة
الجماعة التي ينشر ذكرها ، ويهظم أجرها كما يتقدم السيد على من دونه
بعلو القدر ، ونباهة الذكر .

٢٣٨ — ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام : « تَزَوَّجُوا
الشَّوَابَّ فَإِنَّهُنَّ أَغْرٌ أَخْلَاقًا » وفي هذا الكلام مجاز لأن وصف الخلق
بأنه أغر إنما يراد نياضه ، والبياض هاهنا عبارة عن الحسن كما أن السواد
في قولهم : فلان أسود الخلق عبارة عن القبح ، فكأنه عليه الصلاة
والسلام قال : « فَإِنَّهُنَّ أَحْسَنُ خُلُقًا كَمَا أَنَّ الْغُرَّ مِنَ الْخَيْلِ أَحْسَنُ خُلُقًا » .

٢٣٩ — ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام : وقد سمع ناساً
من أصحابه يتذاكرون القضاء واقدر : « إِنَّكُمْ قَدْ أَخَذْتُمْ فِي شِعْبَيْنِ
بَعِيدَيِ الْغَوْرِ » وهذا القول مجاز لأنه عليه الصلاة والسلام شبه القضاء
والقدر ، وحقيقة علمهما ، ومعرفة كنههما بالشعبين اللذين غورهما بعيد

واقترعاهما شديد ، وطالب غايتهم ما محمود . يقول عليه الصلاة والسلام :
« إن علمهما لا يدرك كالماء الغائر الذي لا يقدر عليه ولا يهتدى إليه »

٢٤٠ - ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام في حديث طويل :
« ثُمَّ يَكُونُ مُلْكٌ عِضٌّ يُسْتَحِلُّ الْفَرْجَ وَالْخَرِيرَ » وفي هذا الكلام مجازان
أحدهما قوله عليه الصلاة والسلام : « ملك عِضٌّ » والعِضُّ في الأصل :
هو الرجل الداهية المُتَكَرِّر . وربما سمي أيضاً بذلك الرجل السيء الخلق
التكبر . قال حسان بن ثابت :

وَصَلَتْ بِهِ رُكْنِي وَخَالَطَ شَيْبَتِي وَلَمْ أَكْ عِضًّا فِي النَّدَامَى مُلُومًا
فكأنه عليه الصلاة والسلام شبه الملك الذي أومأ إليه في السطوة والقسوة
والطماع والزَّوْءَ بذي الدهاء والتُّكْر . أو بذي الشموخ والكبر . والمجاز
الآخر قوله عليه الصلاة والسلام : « يستحل الفرج والخير » ، وإنما
أراد أن أهله يستحلون ذلك ، فحسنت بإضافته إلى الملك لما كان
الاستحلال واقعاً في الملك ، ونظائر ذلك كثيرة ، وقد جاء في رواية أخرى
لهذا الخبر ثم يكون : « مُلْكٌ عِضٌّ » ، وهذه أيضاً استعارة ، وذلك
كتقول القائل : قد عَضِيَ الدهر : إذا أثرت فيه نوائبه ، واشتدت عليه
مصائبه . فوصف هذا الملك بالعَضَاض لتأثيره في الناس بوفائع العُشْم ، وقوارع
الظلم . وقد جاء في أشعارهم من ذكر عَضَ الزمان وعَضَ الأيام ما هو أشهر
من أن يتكلف التنبيه عليه ، والإيماء إليه .

٢٤١ - ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام : « الصَّوْمُ جُنَّةٌ مالم يَخْرُقْهَا » وهذه استعارة وذلك أنه عليه الصلاة والسلام شبه الصوم الذى يُجِنُّ صاحبه من لواذع العذاب ، وقوارع العقاب ، إذا أخلص له النية وأصلح فيه السريرة ، فجعل عليه الصلاة والسلام من اعتصم فى صومه من الزال ، وتوقى جرأثر القول والعمل ، كمن صان تلك الجُنَّة وحفظها ، وجعل من أتبع نفسه هواها وأوردها رداها كمن خرق تلك الجُنَّة وهتكها ، فصارت بحيث لا تُجِنُّ من جارحة ، ولا تعصم من جانحة ، وذلك من أحسن التمثيلات ، وأوقع التشبيهات .

٢٤٢ - ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام : « إِنَّ الْمُسْلِمَ إِذَا تَوَضَّأَ ثُمَّ صَلَّى الْخَمْسَ تَحَاتَّتْ خَطَايَاهُ كَمَا يَتَحَاتُّ الْوَرَقُ » وهذه استعارة ، والمراد أن الله تعالى يكفر عنه خطاياهم بسرعة ، فتسقط عنه آصاها ، وتنحط أوزارها كما تنساقط الأوراق عن أغصانها إذا هَزَّ هَزَّتْهَا الرِّيحُ أَوْ زَعَزَعَتْهَا الرِّيحُ ، ولا بد أن يكون فى الكلام مضمَّرٌ مرادٌ جعلت الصلاة مخبرا عنه وعَلَمًا عليه ، وهو اجتناب الكبائر ، والقيام بسائر الفرائض ، فاكفى عليه الصلاة والسلام بذكر الصلاة عن ذكر جميع ذلك ، لأن الصلاة أفضل شعائر الإسلام ، وأظهر معالم الإيمان ، وليس لسائر الأوامر والعبادات والفرائض الواجبات من التأكيد ما لها . وذلك لأن من الفرائض ما أوجبته تعالى على الأغنياء دون الفقراء ، ومنها ما ينوب عنه غيره ، ومنها ما ينوب عن كله بعضه ، وجميع العبادات تختص إما بالفعل ، أو بالذكر . والصلاة قد

جعت أفعالاً وأذكاراً من القيام والقعود والركوع والسجود والقراءة والتسبيح،
والثناء على الله سبحانه والصلاة على الرسول وعلى آله والاستغفار للمؤمنين،
ولأنها واجبة في اليوم واللييلة خمس مرات على كل عاقل بالغ قادر عليها
لا يؤديها عنه غيره، ولا يسقطها عنه قهره ولا يتولاها وليه. وباقي العبادات
يتعلق بزمان مخصوص، ووقت معلوم، كالصوم الذي يفعل في السنة دفعة.

والزكاة التي تجب في الحول مرة، والحج الذي في العمر دفعة واحدة
ولهذا كانت عامة وصية النبي عليه الصلاة والسلام لما حضره الموت
بالصلاة، وفي حديث أنس: أنه عليه الصلاة والسلام مازال يكرر قوله:
«الصلاة وما ملكت أيمانكم حتى جعل يُغَرَّغُ بِهَا صدره وما يكاد يفيض»
أى يبين، وفي الأكثر أن الإنسان إذا أدى الصلاة على شرائطها. وفعلها
في أوقاتها، وقام بجميع واجباتها، وهي التي تكرر في الليل والنهار، وتفعل
على الدوام والاستمرار كان أجدر بتأدية الفروض في سائر العبادات، والقيام
ببواقي الطاعات التي هي أخف محملاً وأسهل متحملاً، فأراد عليه الصلاة
والسلام أن من قام بهذه الواجبات التي عددناها، واجتنب الكبائر التي
توعد بالعقاب عليها سقط عنه عقاب معاصيه الصغائر كما يتساقط الورق
المتناثر، ويقال: انحطت الورق وتحات إذا انسلت من أغصانه، وانحسر
عن أفئاته.

٢٤٣ - ذلك قوله عليه الصلاة والسلام لرجل أقبل إليه ممن
يُتَّهِمُ في دينه: «أَرَى عَلَيْهِ سُفْعَةً مِنَ الشَّيْطَانِ» وهذا القول مجاز،

والسُّفْعَةُ : السَّوَادُ ، وقيل هو السَّوَادُ الْمَشْرَبُ حُمْرَةً ، فكأنه عليه الصلاة والسلام رأى بوجهه أثراً يدل على نَقْلِ الضَّمِيرِ وفساد اليقين ، فنسب ذلك إلى الشيطان لأنه مُسَوِّلُ الْعَاصِي وَمُطَرِّقٌ ^(١) الْمَغَاوِي ، وفي الأكثر أن يقال لمن خبثت عقيدته وساءت سريرته : وجه فلان مسودَّ : يراد لعظم كفره ، وفساد سره . وقد يجوز أن تكون السُّفْعَةُ هاهنا بفتح السين مأخوذة من قول القائل : سَفَعْتُ رَأْسَ فُلَانٍ : إذا ضربه بالعصا فأثرت فيه ، فكأنه عليه الصلاة والسلام قال : « أرى عليه أثراً من الشيطان » وقد يكون السُّفْعُ أيضاً بمعنى الأخذ والقبض ؛ ومنه قوله تعالى : « لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ » أى لناخذن بها ولنقبضن عليها ، فإن حمل على ذلك قوله عليه الصلاة والسلام : « أرى عليه سَفْعَةً من الشيطان » حاز وجميع الوجوه المذكورة في هذا الكلام قريب بعضها من بعض .

٢٤٤ — ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام : « خَيْرُ النَّاسِ مَنْزِلَةُ رَجُلٍ أَخَذَ بَعْدَانٍ قَرَسِهِ يَطْلُبُ الْمَوْتَ مَطْأَنَهُ » وهذا القول مجاز وذلك أنه عليه الصلاة والسلام جعل الرجل المجاهد في سبيل الله الذي يتبع قراء الأعداء ومواطن اللقاء ، كطائب الموت في معادنه ، والمنقب عنه في مكانه ، وإن كان غير طالب له على الحقيقة ، وإنما يطلب نُصْرَةَ الدِّينِ وَوَقْمَ الْخَادِينَ ، ولكن ذلك لما كان في الأكثر مفضياً إلى الموت القاصي ،

والأجل الداني ، كان كأنه انتجع . مظنة حتفه ، وتقرب عن هلاك نفسه ، والمظان : الأماكن التي إذا طلب الرجل وجد فيها ، يقال موضع كذا مظنة من فلان : أي معلم منه ومكان يوجد فيه . قال الشاعر :

وإن يك عامرٌ قد قال جهلاً فإنَّ مظنةَ الجهلِ الشبابُ

كأنه قال : إن الشباب موضع للجهل . فيه تشرح سارحته ، وفيه تشدد ضائقته . وأراد عليه الصلاة والسلام : يطأ الموت في مظانته . فلما خلع الجار وصل الفعل إلى المظان فمصبها ، وذلك أقرب في الفصاحة ، وأضرب في مذاهب البلاغة .

٢٤٥ — ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام : «أعوذ بك من شرِّ الجوعِ فإنه يَنْسُ الضَّجِيعُ» وهذا القول مجاز ، وإنما جعل عليه الصلاة والسلام الجوع بمنزلة الضجيع ، لأن الإنسان إذا بات طويلاً كان كأنه مضاجع للجوع في مهاده ، ومبايته على فراش ؛ لأنه يخلو في الليل به ، وينفرد بمفاته ومكابدته .

٢٤٦ — ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام : «تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ والدَّرْهَمِ ، تَعِسَ عَبْدُ الْحُلَّةِ وَالْحَمِيصَةِ ، إِنْ أُعْطِيَ رَضِي ، وَإِنْ مُنِعَ سَخِطَ . تَعِسَ فُلَانٌ ، أَنْتَعَشَ وَإِذَا شَيْكَ فَلَا أَنْتَعَشَ^(١)» ، وفي

(١) رواية الفائق الزمخشري : «تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ والدَّرْهَمِ الَّذِي إِنْ أُعْطِيَ مَدَحٌ وَضَبَحَ وَإِنْ مَنَعَ قَبِيحٌ وَكَلَحَ ، تَعِسَ فُلَانٌ ، وَشَيْكَ فَلَا أَنْتَعَشَ» .

هذا الكلام مجاز . وذلك أنه عليه الصلاة والسلام جعل الرجل القوي الطمع الشديد الجشع، الذي يرضى بإعطاء ما سأل، ويسخط بمنع ما طلب بمنزلة العبد للدينار والدرهم، والثوب والعرض؛ لأنه بإعطاء هذه الأشياء يُسْتَرَقَ ويُمْلَكُ، وَيُمْتَهَنُ وَيُسْتَبْدَلُ . فجعله عليه الصلاة والسلام عبدا لها على المجاز، وهو في الحقيقة عبد لباذنها . ومن معروف كلامهم : فلان عبد الطمع، وخادم الأمل إذا كان ذليلا لمن وجه أمله إليه، وضارعا لمن علق طمعه به وقوله عليه الصلاة والسلام : « وإذا شريك فلا انتقش » من صلة الدعاء عليه . يقول : وإذا دخلت في قدمه شوكة ، فلا قدر على منقاش ينشقها حتى يدوم مكثها في أخمصه ، فيكون ذلك أطول لآله .

قال: ضبح بمعنى صاح : من ضباح الثعلب . شبه صوته في خاصته : من مطبه ومجادله عنه بالضباح . ومعنى قبح قال لمن منعه : قبح الله وجهك . وكلع : عبس انتقش الشوك ونفشها : أخرجها من جسمه

ورواية البخاري : « تعس عبد الدينار وعبد الدرهم وعبد الخيصة إن أعطى رضى، وإن لم يعط سخط ، تعس وانتكس ، وإذا شيك فلا انتقش ، طوبى لعبدا أخذ بعنان فرسه في سبيل الله ، أشعث رأسه ، مقبرة قدماء إن كان في الحراسة كان في الحراسة، وإن كان في الساقة كان في الساقة ، إن استأذن لم يؤذن له وإن شفع لم يشفع » .

الخيصة : كساء أسود له أعلام . انتكس : أى إذا عوفى مما ألم به عاوده ذلك فهو دعاء عليه بالخيبة والخسران . الحراسة : مقدم الجيش . الساقة : مؤخره . والمراد أى موضع اتفق له كان فيه ، إن استأذن . الخ : أى تعلق دونه الأبواب ، ولاتقبل شفاعته لازدراجه في أعين المترفين ، وهو عند الله عظيم .

٢٤٧ — ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام : « لا حَرَجَ إِلَّا عَلَى رَجُلٍ اقْتَرَضَ عِرْضَ أَخِيهِ بِظُلْمٍ » وهذه استعارة ، والمراد بالاقتراض هاهنا : القَدْحُ في العرض ، والحَزُّ فيه والنيل منه ، فهو افتعال من القرض الذي هو القطع ، ومنه قول ذى الرُّمة :

إِلَى ضَمْنٍ يَقْرِضُنْ أَقْوَارَ مُشْرِفٍ شِمَالاً وَعَنْ أَيْمَانِهِ الْفَوَارِسُ^(١)
يقول : يقطن أوساط هذا الموضع المذكور بطى شُقَّتْه ، وتجاوز مسافته ، وقولهم : أقرض فلان فلانا مالاً راجع إلى هذا المعنى ، والمراد أنه اقتطع له من ماله قطعة فسلمها إليه ، وقوله عليه الصلاة والسلام في أول الخبر : « لا حرج إلا على رجل اقترض عِرْضَ أَخِيهِ بِظُلْمٍ » لا يدلّ على أن من فعل غير ذلك من الأفعال التي يستحقّ عليها الذمّ ، ويعظم بها الإثم لا حرج عليه في الحقيقة ، ولكنه عليه الصلاة والسلام كأنه قال : « لا حرج في فعل ما لا إثم فيه إلا على رجل اقترض عرض أخيه » ، وهذا التقدير في الكلام كأنه معلوم بفحواه ومفهوم بمعناه . وإن كان ظاهر اللفظ غير دالّ عليه .

٢٤٨ — ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام : « إِنْ السَّقَطُ لَيَجْرُؤُ أُمَّهُ إِلَى الْجَنَّةِ بِسَرَرِهِ » وهذا القول مجاز ، والمراد أن المرأة إذا أسقطت الولد عن حادث أصابها ، واتفق أن يكون ذلك الإسقاط سبب

(١) الأقواز : جمع قوز ، وهو المستدير من الرمل أو الكتيب المشرف . ومشرف كمنحرف : رمل بالدهناء . الفوارس : حبال رمل بالدهناء .

منيتها كان لها بذلك أجر تستحق به دخول الجنة إذا كانت سليمة من الكبائر الموبقة، والمعاصي المرهقة، فلما كان ذلك السقط سبباً لوصول أمه إلى دار النعيم والبقاء المقيم، حسن أن يقول عليه الصلاة والسلام: «إنه يجرّها إلى الجنة بسرّره» وهو الجلد الرقيق المتصل منها به. يقال: قطع سره وسرّره، والسرة: اسم لما يبقى بعد القطع منه.

٢٤٩ - ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام: «لا يَمْنَعُكُمْ من سَحُورِكُمُ الْفَجْرُ حَتَّى يَسْتَطِيرَ» وفي هذا القول استعارة، والمراد حتى ينتشر ضوء الفجر، فيكون كتحليق الطائر، وكالشرر المتطاير، والفجر عندهم فجران: مستطيل، ومستطير؛ فأما المستطيل فهو الأول، ولا يُحَرِّم على الصائم الطعام والشراب. وأما المستطير فهو الثاني، ويُحَرِّم الشراب والطعام، ويسمى الأول ذنب السرّحان لدقة خيطه وغموض سمته. قال الكُمَيْتُ بْنُ زَيْدٍ:

ولما علا شمطه المضبّائِنِ من ليلة الذّنْبِ الأشْعَلِ

وأطلع منه الياحُ الشَّمِيطُ خدوداً كما سلّت الأنْصُلُ

فجعله أشعل لكثرة البياض فيه. والمضبّائِن: ثنية مضباً، وهو المكان الذي يضب الإنسان به: أي يلزمه ويلطأ فيه. والياح: الأبيض، ويقال: بكسر اللام وفتحها. والشميط: الكثير البياض، يقال: ذنب شميطة إذا كان كذلك، وهو بمعنى الأشعل، والمراد هاهنا الصبح وجعل له خدوداً بارزة على طريق الاستعارة كما يقال: طرّة الصُّبْح، وحاجب الشمس،

ويسمى الفجر الثاني المستطير لانتشاره ووضوحه . قال الشاعر :

لهان على سرّاةِ بنى لُؤيٍّ حَرِيقٌ بالنُّويرةِ مستطير

أراد حريقاً قد انتشر شراره ، وعظم أواره ، وفي حديث آخر : أنه عليه الصلاة والسلام قال : « ليس الفجر المستطيل الأبيض ولكنه المعترض الأحمر » .

٢٥٠ - ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام في صفة أهل الموقف يوم القيامة : « يَبْلُغُ الْعَرَقُ هُنَاكَ مَا يُأْجِمُهُمْ » ، وفي هذا القول مجاز ، وله وجهان [أحدهما] أن يكون المراد أن العرق يزيد بهم يومئذٍ حتى يعضفوا عن الكلام فلا يُحِيرُوا جواباً ، ولا يبتدئوا مقلاً كما يقول القائل : حاجبت فلانا فالجته بالحجة إذا أسكتته بها عن مراجعته ، وقطع لسانه عن مناقته . فشبه عليه الصلاة والسلام إضعاف العرق لهم وبلوغه إلى أن يملك عليهم نطقهم باللَّجْم التي تملأ أفواه الخيل فتمنعها من تحريك ألسنتها تطقاً بالمشرب ، أو تلمظاً بالمطعم . [والوجه الآخر] : أن يكون المراد أن العرق يكثر منهم حتى يَحُوضُوا فيه فيبلغ إلى أن يدخل أفواههم ، فيكون بمكان اللَّجْم لهم . ومن روى هذه الكلمة بالتشديد فقال : ما يَلْجَمُهُمْ ، فالمراد بذلك أن العرق يبلغ اللَّجْم من كل واحد منهم ، وهو ما يلي الرأس من الرقبة ، وقيل له : اللَّجْم لأنه مكان اللحم من رأس الفرس كما

قيل : المُقَلَّدَ والمُسَوَّرَ والمُخَلَّخَلَ والمُوَزَّرَ لموضع القلادة والسَّوَارَ والمِيزَرَ والخالخال .

٢٥١ — ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام لما قسم غنائم حُنَيْنٍ فَأَعْطَى الْمُؤَلَّفَةَ قُلُوبُهُمْ وَلَمْ يَعْطِ الْأَنْصَارَ فِي كَلَامٍ طَوِيلٍ : « يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ أَوْجِدْتُمْ فِي قُلُوبِكُمْ مِنْ لُعَاعَةٍ مِنَ الدُّنْيَا تَأَلَّفَتْ بِهَا قَوْمًا لِيُسَلِّمُوا وَوَكَّلْتُمْ إِلَى إِيْمَانِكُمْ^(١) » ، وهذه استعارة . واللُّعَاعَةُ : البقل أول ما يبدو وهو ناعم رقيق ، وقيل : هي بقلة ناعمة تعرف بعينها^(٢) ذكر ذلك

(١) لما اجتمع الأنصار برسول الله ليكلموه في شأن غنائم حنين التي فرقها في أهل مكة وغيرهم ولم يعط الأنصار منها شيئا ، قام فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ثم قال : يا معشر الأنصار ما قاله بلغتنى عنكم وجدد وجدتموها على في أنفسكم ألم آتكم ضلالا فهداكم الله ، وعالة فأغناكم الله ، وأعداء فألف الله بين قلوبكم ؟ قالوا بل الله ورسوله أمن وأفضل ، ثم قال ألا تحبون يا معشر الأنصار ؟ قالوا بماذا نجيبك يا رسول الله ؟ لله ورسوله المن والفضل ، قال صلى الله عليه وسلم : أما والله لو شئتم لقتلتم بالصدقة ولصدقتكم : أتيتنا مكذبا فصدقناك ، ومغذولا فنصرناك ، وطريدا فأويناك ، وعائلا فأسيناك ، أوجدتم يا معشر الأنصار في أنفسكم في لعاعة من الدنيا تألفت بها قوما ليسلموا ، ووكلتكم إلى إسلامكم ألا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاء والبعر وترجعوا برسول الله إلى رحالكم ؟ فوالذي نفس محمد بيده لولا الهجرة لكنت امرأ من الأنصار . ولو سلك الناس شعبا وسلكت الأنصار شعبا لسلك شعب الأنصار . اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار . قال فبكي القوم حتى أخضلوا لحامهم وقالوا رضينا برسول الله فسا وحظا ، ثم انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم وتفرقوا .

(٢) هي الهندباء كما ذكره صاحب القاموس .

أبو عبيد في الغريب المصنف ومن قول الغريب ، خرجنا نتلّع^(١) : أى نتبع هذه البقلة في منابتها ونجنتها من مقاطعها . قال الشاعر :

رَعَى غَيْرَ مَذْذُورٍ بَيْنَ وِراقِهِ لُعَاعٌ تَهَادَاهُ الدَّعَادِعُ وَاعِدُ^(٢)

يريد بواعدها هنا : أن هذا النبات كثير يعد راعيه الشبع منه والاكتفاء به . فشبّه عليه الصلاة والسلام حلاوة المال المبذول ، وتعلق القلوب به ، وتتبع النفوس له بهذه البقلة الناعمة التي تستطاب مجانيها ، ويتبعها جانباها ، ويجرى ذلك مجرى قوله عليه الصلاة والسلام في الخبر الآخر لحكيم بن حزام : إن هذا المال حلوة خِصْرَة ، وقد ذكرناه فيما تقدم من كتابنا هذا

٢٥٢ — ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام : « تحفّة المؤمن الموت » ، وهذه استعارة ، وأصل التّحف : طُرْفُ الفواكه التي يتهاداها الناس بينهم ، فكأنّه عليه الصلاة والسلام جعل الموت الوارد على المؤمن كالنّخلة المهداة إليه ، لأنّه يسرّ بتعجيل مماته كما يسر الكافر بتنقيس

(١) في القاموس المحيط . تلعى : تناول اللعامة ، ولا شك أن حرف الة في تلعى

مبدل من العين الأخيرة في تلعم ، كما هو الشأن في تظنى وتظنن وتمطى وتمطط .

(٢) اللعاع (بضم اللام) نبت ناعم في أول ما يبدو ، الدعادع ، والدكادك في رواية

لسان العرب : الأرض .

حياته ، لأن المؤمن يخرج من عقل إلى مجال ، والكافر يخرج من مجال إلى عقل .

٢٥٣ - ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام : « إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ لِعَبْدِهِ مَا لَمْ يَقَعِ الْحِجَابُ » ، وهذا القول مجاز . والمراد أن الله سبحانه يقبل توبة العبد من جميع المعاصي ما دام في نفس الرجاء ، وفسحة البقاء ، فإذا بلغ حال انقطاع التكليف ، ووقوع الأمر الخوف ، لم تنفعه التوبة ، ولم تنقذه الإنابة . فكأنه قد حجب عن طريق الاستغفار ، وأخذ على حال الإصرار . وقد يجوز أن يكون المراد بالحجاب هاهنا ضد المراد بالوجه الأول ، وهو أن يكون وقوعه بمعنى انكشافه وسقوطه كما يقول القائل : وقع الستر المضروب ، وسقط الغمام الممدود^(١) ، أى زال ، وانتهك وانكشف وانقرج ، والمراد بانكشاف الحجاب : أن تظهر للمرء أشرط الآخرة التي لا تضام التكليف ، فيراها بادية بعد أن كانت خافية وظاهرة بعد أن كانت باطنة ، فيكون الحجاب هناك على ضربين : حجاب مهتوك عما كان خافيا من أعلام الآخرة ، وحجاب مضروب دون ما كان ممكناً من أحوال التوبة^(٢)

(١) الغمام : شئ تشده العجم والمجوس على أفواهها عند السقي . والغمامة :

الغمامة ، وهي خريطة يغم البعير ونحوه يمنع بها الطعام ونحوه

(٢) وفي النهاية تنمة للحديث وهي : قيل « يا رسول الله وما الحجاب ؟ » فقال : أن

تموت النفس وهي مشركة ، كأنها حجبت بالوثع عن الإيمان .

٢٥٤ - ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام : « الْمَعْرُوفُ
وَالْمُنْكَرُ خَلِيفَتَانِ يُنْصَبَانِ لِلنَّاسِ فَيَقُولُ الْمُنْكَرُ لِأَهْلِهِ : إِلَيْكُمْ
إِلَيْكُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُ إِلَّا لُزُومًا » . وهذا القول مجاز ، والمراد أن
الله تعالى جعل للفعل المعروف علامات وعلى الفعل المنكر أمارات ، ووعد
على فعل المعروف حلول دار النعيم ، وأوعد على فعل المنكر خلود دار الجحيم .
فكان بين الأمرين الحجازُ البين والقرنان النير فكان المعروف يدعو
إلى فعله لما وعد عليه من الثواب ، وكأن المنكر ينهى عن فعله لما وعد
عليه من العقاب . فذلك قال عليه الصلاة والسلام « فَيَقُولُ الْمُنْكَرُ
لِأَهْلِهِ إِلَيْكُمْ إِلَيْكُمْ ^(١) » . على طريق الاتساع والمجاز ، وقوله عليه
الصلاة والسلام من بعد : وما يستطيعون له إلا لزوما ، المراد به أنهم مع
قوارع النذر ، وصواعع الغير ، وزواجر التحذير ، وبوالغ الوعيد يتنازعون
إلى فعله ، ويتسارعون إلى ورده ، وليس المراد أنهم لا يستطيعون له إلا لزوما
على الحقيقة . وإنما قيل ذلك على طريق المبالغة في صفتهم بالزوع إليه
والإصرار عليه كما يقول القائل : ما أستطيع النظر إلى فلان أو لا أستطيع
الاجتماع مع فلان : إذا أراد المبالغة في نفسه بشدة الإيغاض لذلك الإنسان ،
والاستئثار لرؤيته ، والنفور من مقاعدته ، وإن كان على الحقيقة مستطيعا

(١) قوله إِلَيْكُمْ إِلَيْكُمْ : أى ابتعدوا عني ، يقال إليك عني بمعنى تنح . فكان
الناس لحب المنكر يندفعون إليه مع تفصيه منهم ، أقام الإنذار والزجر مقام
الصرف والنفهم عن المنكر .

لذلك بصحة أدواته ، والتمكن من تصريف إراداته ، ولولم يكن هؤلاء المذكورون في الخبر قادرين على الانفصال من فعل المنكر لما كانوا على مواقفه مذمومين ، ويجري رته مطالبين^(١) ، وذلك أوضح من أن نستقصي الكلام فيه ، ونستكثر من الحجاج عليه .

٢٥٥ — ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام : « أُمِرْتُ بِقَرْيَةٍ تَأْكُلُ الْقَرْيَ تَنْفِي الْحَيْثَ كَمَا يَنْفِي الْكَبِيرُ خَبَثَ الْحَدِيدِ » يريد عليه الصلاة والسلام الهجرة إلى المدينة فقوله : « أُمِرْتُ بِقَرْيَةٍ تَأْكُلُ الْقَرْيَ » مجاز ، والمراد أن أهلها يقهرون أهل القرى فيملكون بلادهم ويغنمون أموالهم ، فكانهم لهذه الأحوال يأكلونهم ، وخرج هذا القول على طريقة للعرب معروفة ، لأنهم يقولون : أكل فلان جاره إذا عدا عليه ، فاتهم حرمة واصطفى حرите ، وعلى ذلك قول علقمة بن عَقِيلِ ابن عُلُقَةَ لأبيه في أبيات :

أَكَلْتَ بَنِيكَ أَكْرَ الضَّبِّ حَتَّى وَجَدْتَ مَرَاةَ الْكَلَالِ الْوَيْلِ
ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام في غزوة الحُدَيْبِيَّةِ : « وَبِحَقِّ قُرَيْشٍ لَقَدْ أَكَلْتَهُمُ الْحَرْبُ » يريد أنها قد أفنت رجالهم ، وانهبت أموالهم ،

(١) يشير بذلك إلى مذهب المعتزلة في قولهم إن المرء يخلق أفعال نفسه وأنه من أجل ذلك يثاب ويُعاقب وهذا ما يسمونه بالعدل فيقولون عن أنفسهم أنهم أهل العدل لقولهم بذلك ، والمؤلف يرى هذا الرأي كما يفهم من كلامه وليس التشيع بمانع من الاعتزال .

فكانت من هذا الوجه كأنها آكلة لهم . قال ذلك عليه الصلاة والسلام في حديث طويل ، والمراد بقوله عليه الصلاة والسلام : « تنفى الخبيث كما ينفي الكير خبث الحديد » أن أهلها يَتَمَحَّصُونَ فينتفى عنها الأشرار ويبقى فيها الأخيار ، ويفارقها الأخلاط والأوشاب^(١) ، ولا يصبر عليها إلا الصميم واللباب ، فتكون بمنزلة الكير الذي ينفي الأخباث والأدران ، ويُخْلَصُ الْمَصَاصُ^(٢) والنُّضَارُ^(٣) . وهذا أيضاً مجاز ثان ، وقد ورد هذا الخبر بلفظ آخر ذكره عمر بن عبد العزيز . قال : سمعنا عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال « الْمَدِينَةُ تَنْفِي خَبَثَ الرَّجَالِ كَمَا يَنْفِي الْكِيرُ خَبَثَ الْحَدِيدِ » والمعنى في اللفظين واحد .

٢٥٦ — ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام : « الرَّحِمُ لَهَا حُجْنَةٌ كَحُجْنَةِ الْمِغْزَلِ » وهذه استعارة ، والحُجْنَةُ : هي الحديدَةُ الْمُعْتَقَّةُ في رأس المِغْزَلِ ، ومنه المِخْجَنُ وهي العصا المَوْجَّه الرأس . فأراد عليه الصلاة والسلام أن الرحم لها علائق يعلّق بها وشوابك تجتذب بوصلها فكأنها تستعطف المعرض عنها وتردّ الشارد إليها كما يجتذب الإنسان الشيء بالمحجن إلى جهته أو يستثنى به الذاهب عن وجهته .

(١) الأوشاب : الأوباش والأخلاط ، وم رفال الناس والواحد وشب . (بالكسر)

(٢) المصاص (بضم الميم) : خالص كل شيء .

(٣) النضار : الجوهر الخالص .

٢٥٧ - ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام : « مَنْ قُتِلَ تَحْتَ رَايَةٍ عِمِّيَّةٍ تَغْضَبُ لِفَضِيهِ وَتُقَاتِلُ لِعَصْبَتِهِ قَتَلْتَهُ جَاهِلِيَّةً » ، وفي رواية أخرى : « يَغْضَبُ غَضْبَتَهُ وَيُقَاتِلُ عَصْبَتَهُ » . قوله عليه الصلاة والسلام « تَحْتَ رَايَةٍ عِمِّيَّةٍ » ، مجاز لأنه جعل الراية عِمِّيَّةً ، والمراد الحرب التي رفعت تلك الراية فيها ، وإنما حسن وصفها بالعمى وهو في الحقيقة للحرب ، لأن الراية علم لها ، ودليل عليها ، والحرب العِمِّيَّة هي المشبهة التي لا يهتدى فيها إلى القصد ، ولا يتبين فيها وجه الرشد ، فهي كالعمياء التائهة ، والعشواء الخاطئة ، ومن ذلك قولهم : نحن في عمياء إذا كانوا في أمر مختلط ، أو على رأي مشتبه ، وربما روى لفظ الخبر على الإضافة ، وذلك قوله عليه الصلاة والسلام : « تَحْتَ رَايَةٍ عِمِّيَّةٍ » كأنه قال : تَحْتَ رَايَةٍ حَرْبٍ عِمِّيَّةٍ ^(١) والمعنيان متقاربان .

٢٥٨ - ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام : « مَنْ أَرَادَ أَهْلَ الْمَدِينَةِ يَكِيدُهُمْ أَمَّا عَ كَمَا يَمَّاعُ الْمَلْحُ فِي الْمَاءِ » . وهذه استعارة ، والمراد أنه ينحق كيده ويضمحل أمره ، فيكون كالهباء المتلاشي والبناء المتداعي ، فلا يثبت له عماد ولا يدَّعمه سناد . فعبّر عليه الصلاة والسلام عن هذه الحال بالامتياع ، لأنه لا يَمَّاع إلا الجسم المتخلخل الذي لم تَسْخِصِفْ جبلته ، ولا استعجرت طينته . وتوصف أيضاً الأجسام

(١) وبعضهم يضم العين من كلمة عمية .

الرقيقة بمثل ذلك ، فيقال ماع الماء إذا جرى على وجه الأرض ، وكذلك الدم ، واماع السمن : إذا ذاب ، وكذلك الرُّبَّ ويفرق بينهما بأن يقال للجسم الذى لا يتماسك إذا خلى عنه ماع كالماء والدم . ويقال للجسم الذى إذا أطلق عنه تماسك بعض التماسك اماع كالسمن والرُّب قال الشاعر :

كَأَنَّهُ ذُو لِبَدٍ دَلْهَمَسٍ بِسَاعِدِيهِ جَسَدُ مَوْزَسٍ

* من الدماء مائع وتلبس *

والجسد هاهنا اسم من أسماء الدم .

٢٥٩ — ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام : « لَسَلْمَانُ الْفَارِسِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ : سَلْمَانُ ابْنُ الْإِسْلَامِ ، سَلْمَانُ جِلْدَةٌ بَيْنَ عَيْنَيْ » . وفى هذا الكلام مجازان : أحدهما قوله عليه الصلاة والسلام : « سلمان ابن الإسلام » ولهذا القول وجهان : [أحدهما] أن يكون المراد به أن سلمان يتعرف بالإسلام كما يتعرف الناس بأبائهم ، وينتمون إلى أجدادهم لأنه كان عبداً غير معروف الأب ولا مشهور النسب ، وإنما بالإسلام سمي وإليه انتهى . [والوجه الآخر] : أن يكون المراد أن الإسلام دعم ظهره وشد أزره ، فقام له مقام الخاضن الكافل والأب العائل . والمجاز الآخر قوله عليه الصلاة والسلام : « سَلْمَانُ جِلْدَةٌ بَيْنَ عَيْنَيْ » وجلدة بين العينين هاهنا كناية عن الأنف ، فكأنه عليه الصلاة والسلام جعله فى

العزة والقرب منه كالأنف الكريم على صاحبه والعزير على مفارقة ، وهذا القول أصح معنى من قول الشاعر :

* وَجِلْدَةُ بَيْنِ الْعَيْنِ وَالْأَنْفِ سَالِمٌ *

لأنه لاجلدة بين العين والأنف مذكورة يقصد قصدها ، ويشار نحوها كما قلنا في جلدة بين العينين إنها الأنف الكريم موقعه والمشهور موضعه .

٢٦٠ — ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام : « مُعْتَرِكُ الْمَنَآيَا

بَيْنَ السَّتِينِ وَالسَّبْعِينَ » وهذا القول مجاز ، والمعترك موضع الحرب وسمى معتركاً لالتفاف الرجال ، واعتراك الأبطال ، وقد قال عليه الصلاة والسلام في خبر آخر: أعمار أمتي بين الستين والسبعين ، وقال صلى الله عليه وآله : لَا خَيْرَ لِمُؤْمِنٍ فِي عُمْرٍ يَتَجَاوَزُ عُمْرِي ، فكأنه عليه الصلاة والسلام شبه هذا العمر لكثرة الداهيين فيه ، وقلة المجاوزين له بمعترك المنايا تكافح فيه الأرواح ، وتصطم الأجال ، فلا يُفْلِتُ من ذلك المقام إلا من أشده حائلها وتخطأه نائلها .

٢٦١ — ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام : « لَا تَسْبُوا الْإِبِلَ

فَإِنَّهَا رَقُوءُ الدَّمِ » . وهذا القول مجاز ، لأن الإبل على الحقيقة ليست برقوء الدم ، وإنما المراد أنها إذا أعطيت في الديات كانت سبباً لانتقطاع الدماء المطلوبة والثارات المطلوبة . فشبه عليه الصلاة والسلام تلك الحال

بالعرق العاند^(١) والدم السائل الذي إذا ترك لج واستشرى وإذا عولج انقطع
وَرَقَاءً، وعلى هذا المعنى قول الكُمَيْت بن زَيْدٍ :
ولكنِّي رَقَوْتُ دَمٍ وراقٍ لأَذْوَاء الضغائنِ والدُّحُولِ
ويروى هذا الخبر على لفظ آخر وهو قوله عليه الصلاة والسلام : فَإِنْ فِيهَا
رَقَوْتُ الدَّمَ

٢٦٢ - ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام : « إِنَّ ذَا
الْوَجْهِينِ لَخَلِيقٌ أَلَّا يَكُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا » ، وهذا القول مجاز لأنه
عليه الصلاة والسلام لم يرد تشنية الوجه الذي هو العضو المخصوص على الحقيقة
لأن استحالة ذلك في الإنسان معلوم ضرورة ، وإنما أراد ذم المنافق
الذي ظاهره يخالف باطنه وحاضره يضاد غائبه ، فكأنه يلقي أخاه في مشهده
بصفحة المودة ، ويتناوله في مغيبه بلسان الدم والعصبية ، فشبه عليه الصلاة
والسلام هاتين الحالتين لا اختلافهما بالوجهين المختلفين لتباين ما بينهما .

٢٦٣ - ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام : « الْإِيمَانُ يَمَانٍ
وَالْحِكْمَةُ يَمَانِيَّةٌ » وهذا قدر ما أورده أبو عبيد في كتابه من هذا الخبر
وقد ذكر غيره فيه زيادة كثيرة وهي قوله عليه الصلاة والسلام بعد
الكلام المتقدم « راحا الإسلام دائرةٌ في قَحْطَانٍ ، حَمِيرُ رُءُوسِ الْعَرَبِ
وَبَهَاؤُهَا ، وَالْأَسَدُ كَاهِلُهَا وَجُجْمَتُهَا ، وَمَذْجُ هَامَتِهَا وَغَلَصَمَتُهَا » . في

(١) . العرق العاند : هو الذي سال ولم يرقأ

حديث طويل ، وفي هذا الحديث عدة مجازات : أحدها قوله عليه الصلاة والسلام : الإِيمَانُ يَمَانٌ والحِكْمَةُ يَمَانِيَّةٌ ، والمراد أهل الإيمان وأهل الحكمة يَمَانُونَ^(١) وأمثال ذلك في الكلام معروف كثير . ويدخل في هذا الوصف أهل مكة وأهل المدينة ، فأما مكة فهي جهة من جهات اليمن وَمَقْصَى إلى ذلك الشَّقُّ والسَّمْتُ ، وأما المدينة فمعظم أهلها الأنصار وهم من أهل اليمن بالأصل وإن كانوا من أهل الحجاز بالدار ، وقد قيل إنه عليه الصلاة والسلام قال هذا الكلام بَبُوك وهي من أرض الشام وكانت مكة والمدينة حينئذ بينه وبين اليمن فأشار إلى جهة اليمن وهو يريد مكة والمدينة . والمجاز الآخر قوله عليه الصلاة والسلام : رَحَا الإِسْلَامِ دَائِرَةٌ فِي قَحْطَانٍ . والمراد أن أمر الإسلام يدور عليها كما تدور الرحا على قطبها ، وقد مضى في صدر هذا الكتاب من الكلام على رحا الإسلام ما فيه كفاية ، والمجاز الآخر قوله عليه الصلاة والسلام : حمير رءوس العرب وبهاؤها ، والأسد كاهلها وَجُجْمَتُهَا ، وَمَذْحِجُ هَامَتِهَا وَغَلَصَمَتِهَا . والمراد أن حمير في التقدم كالرءوس الأعظم ، والأسد في الاشتداد والاجتماع كالكواهل والجماجم ، وَمَذْحِجُ في السموة ، والدنوب كالهوامات . والغلاصم

(١) يقال رجل يَمِي وَيَمَانِي وَيَمَانِي (النصر) : منسوب إلى بلاد اليمن .

بسم الله الرحمن الرحيم

٢٦٤ — ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام : « يُنَادِي مُنَادٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لِتَلْحَقَنَ كُلُّ أُمَّةٍ بِمَا كَانَتْ تَعْبُدُ ، فَلَا يَبْقَى أَحَدٌ كَانَ يَعْبُدُ صَنَمًا إِلَّا ذَهَبَ حَتَّى يَقَعَ فِي النَّارِ وَيَبْقَى غُفَرَاتُ أَهْلِ النَّارِ » ، فقوله عليه الصلاة والسلام : غُفَرَاتُ أَهْلِ النَّارِ استعارة ، والمراد عقابيلهم وبقاياهم . وذلك مأخوذ من غُفَرِ اللَّبَنِ وَغُبْرِهِ بالتشديد والتخفيف ، وهو بقيته في الخلف والضرع ، وغُفَرِ اللَّيْلِ : آخره ، مأخوذ من ذلك . قال الطَّرِمَّاحُ ابن حَكِيمٍ فِي الْغُبْرِ مُتَقَلًّا

فِيَا صُبْحُ كَمْشَ غُبْرَ اللَّيْلِ مُضْمِدًا بِبِمِ وَنَبَّهَ ذَا الْعِفَاءِ الْمَوْشِحُ^(١)
يريد الديك ، وقال آخر في الغُبر مخففاً .

متفلق أنساؤها عن قاني كالقَرْظِ صافٍ غُبْرُهُ لَا يُرْضَعُ^(٢)
قال الأخفش : هو بالتخفيف لا غير ، وأنشد هذا البيت شاهداً على قوله .

٢٦٥ — ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام : « الرَّؤُؤُ يَا عَلَيَّ الرَّجُلِ طَائِرُهُ مَا لَمْ تُعَبَّرْ ، فَإِذَا غُبِّرَتْ وَقَعَتْ فَلَا تُحَدَّثَنَّ بِهَا إِلَّا حَبِيبًا أَوْ

(١) م : اسم موضع . العفاء (بالكسر) : الوبر والشعر . والعافى : الطويل

الشعر . ويقال للشعر إذا طال وفي عفاء . وناقاة ذات عفاء : كثيرة الوبر

وديك موشح : إذا كانت له خطتان كالوشاح .

(٢) الأنساء : جمع نساء ، وهو العرق في باطن الورك . القَرْظُ : ورق السلم أو ثمر

السنط . الغبر : بقية اللبن في الضرع .

لَبِيبًا » روى هذا الخبر عن النبي صلى الله عليه وآله أبو رُزَيْنِ
 الْمُقْتِلِي ، وهو لَقِيط بن عامر بن الْمُنتَفِق ، وفي هذا الكلام مجاز . والمراد
 بالطائر هاهنا الأمر الذي يُتَطَيَّرُ ، ومنه قوله تعالى : « وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ
 طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ » يريد ما يتطير منه ، ويخاف وقوعه به من جزاء أعماله
 السيئة وأوزاره المثقلة ، وذلك مأخوذ من زجر الطير على مذاهب العرب
 وكانوا يقيمون بآيائها ويتشاءمون بأشائها ، وعلى ذلك قول الشاعر

وَلَقَدْ غَدَوْتُ وَكُنْتُ لَا أَغْدُو عَلَى وَاقٍ وَحَاتِمٍ
 فَإِذَا الْأَشْأَمُ كَالْأَيَّامِ وَالْأَيَّامُ كَالْأَشْأَمِ

والواق : بكسر القاف الصُّرْدُ ، كأنهم سموه بحكاية صوته . قال الشاعر :
 وَلَسْتُ بِهَيَّابٍ إِذَا شَدَّ رَحْلَهُ يَقُولُ عَدَانِي الْيَوْمَ وَاقٍ وَحَاتِمُ
 والحاتم : الغراب ، فكأنه عليه الصلاة والسلام جعل رؤيا الإنسان التي
 يتروّع لها ، ويخاف ضررها بمنزلة الشيء الذي يتطير به ، وقد يجوز أن
 يكون ويجوز ألا يكون ، فإذا عبرها فعبرت له على ما يكره وقع متوقعها ،
 وخلص للشر مجوزها . ويشبه ذلك ما حكى عن بعض المتقدمين أنه قال :
 علم النجوم فال فلكى ، كأنه يشير إلى أن يتفادى بالسعود تعرضا لها ويتطير
 بالنمحوس تباعدا منها . وجميع ذلك ما يجوز أن يقع ، ويجوز ألا يقع ، ولما
 جعل عليه الصلاة والسلام الرؤيا بمنزلة الطائر المتطير به جعل تعبيرها على
 الأمر المكروه بمنزلة وقوع الطائر موافقة بين أنحاء الكلام حتى يقع مواقعها

وتطبق مفاصلها ، وقوله عليه الصلاة والسلام من بعد : فلا تُحَدِّثَنَّ بِهَا إِلَّا حَبِيباً أَوْ لَيْبِياً ، يريد به النهي عن قصتها إلا على محب ناصح أو لبيب راجح ، لأن المحب للإنسان يتعمد حمل أموره على أجملها ، ويتوخى مسرته بتحسين ما يحسن منها . وبخلاف ذلك يكون المبعض المباعد ، والكاشح الموارب . وأما اللبيب وهو العاقل فهو يعبرها على الوجه الصحيح الذي لا يوطئ فيه عَشْوَةٌ ولا يطلب مضرة . وبخلاف ذلك يكون الآخرق الجاهل والغبي الغافل .

٢٦٦ — ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام . « إِنَّ الشَّيْطَانَ ذَنْبُ الْإِنْسَانِ كَذَنْبِ الْغَنَمِ يَأْخُذُ الْقَاصِيَةَ وَالشَّاذَةَ » . وفي رواية أخرى ، « فَإِيَّاكُمْ وَالشَّعَابَ وَعَلَيْكُمْ بِالْجَمَاعَةِ وَالْعِمَامَةِ » . وهذه من أحسن الاستعارات . وذلك أنه جعل الشيطان للإنسان بمنزلة الذئب للشاة يأخذ البعيدة المتفردة ، ويختلس الشاذة الشاردة ، ويكون لجماعتها أهيب ولفرأدها أقرب . وكذلك الشيطان يقوى طمعه في الفذ الفريد والشارد الوحيد ، فيستهويه بهواجسه ، ويجعله غرضاً رجباً لوساوسه ، ويكون في جماعة الناس أضعف طمعاً وبهم أقل تَوَكُّلاً . وفي هذا الكلام حث للناس على لزوم الجماعة في طاعة السلطان العادل والإمام الفاضل ، ويجوز أيضاً أن يكون فيه حثٌ لهم على لزوم الدين القويم والصراط المستقيم وترك الانفراد بالمذاهب وسلوك الولائج والعوادل^(١)

(١) يريد بالولائج : الأزقة ، وبالعوادل : الطرق المنحرفة عن الجادة

٢٦٧ - ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام : « لَيَنْقُضَنَّ
 الْإِسْلَامُ عُرْوَةَ عُرْوَةٍ كَمَا يَنْقُضُ الْحَبْلُ قُوَّةَ قُوَّةٍ » هذه رواية فيروز
 الدبلي^(١) وفي رواية أبي أمامة الباهلي : عُرِيَ الْإِسْلَامُ عُرْوَةَ عُرْوَةٍ ،
 فكلما انتقضت عروة كان تشبث الناس بالتى تليها ، فأولهن نقضا الحكم
 وآخرهن لتنقضن الصلاة ، وهذه استعارة . والمراد لتتروكن العمل
 بشرائع الإسلام التى أحكم عقدها ووكد العمل بها حتى تكاد تنمحي
 مواسمها وتمغومعالمها ، فيكون الإسلام كالحبل المنتقض من أطرافه والمنتكث
 بعد استحصافه . والقوى : الطاقات التى يفتل منها الخيط ، والواحدة قوة ،
 وجعل عليه الصلاة والسلام شرائع الإسلام كالعرى له من حيث كانت
 رِبْقاً للرقاب وكان التعلق بها أماناً من العذاب ، ونظير هذا الخبر الخبر الآخر
 الذى رواه البراء بن عازب^(٢) عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال : أئى
 عُرِيَ الْإِسْلَامُ أَوْثَقُ ؟ فعدّد الحاضرون شيئاً شيئاً من شرائع الدين ، فقال
 عليه الصلاة والسلام : أَوْثَقُ عُرِيَ الْإِسْلَامُ أَنْ يُحَبَّ فِي اللَّهِ وَيُبْغَضَ
 فِي اللَّهِ .

٢٦٨ - ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام : « مَا مِنْ آدَمِيٍّ

(١) فيروز الدبلي : هو قاتل الأسود العنسي .

(٢) البراء بن عازب الأوسى الأنصارى : يكنى أبا عمارة نزل الكوفة ، له ثلثائة حديث

وخمسة اتفق البخارى ومسلم على اثنين وعشرين منها وانفرد البخارى بخمسة

عشر ومسلم ب ستة ، وعنه روى كثيرون .

إِلَّا وَقَلْبُهُ بَيْنَ إِصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ اللَّهِ . وهذا النوع من جملة الأخبار التي توهم التجسيم وتقتضى التشبيه ، قد ذكرنا في أول كتابنا هذا أنا نغفل الكلام عليها لأن جماعة من علماء الشريعة واللغة قد سبقونا إلى استقصاء القول فيها ، وإنما نذكر منها ماله دخول في باب الاستعارة بجهة من الجهات ، إلا أنا نتكلم على هذا الخبر هاهنا لضرب من الاستظهار ، فنقول : إن كان نقله صحيحاً فله وجه في كلام العرب يَسُوغُ حمله عليه ورده إليه مما يوافق صفات الله سبحانه الذي لا يشبه الخلق التي خلقها والبرايا التي براها وصورها ، وهو : أن الإصبع في كلام العرب اسم للأثر الحسن التي تظهر سِمَتُهُ وتشهر علامته ، يقال لفلان في ماله إصبعٌ حسنة أى قيام محمود وأثر جميل وعلى ذلك قول الراعى يصف راعياً لإبله .

ضَعِيفُ الْعَصَا بَادِي الْعُرُوقِ تَرَى لَهُ عَلَيْهَا إِذَا مَا أُجْدَبَ النَّاسُ إِصْبَعًا

أى ترى له عليها أثراً حسناً ، وقد قيل أيضاً : إن المراد بذلك إشارة الناس إليها بالأصابع لحسنها وشارتها . وقوله : ضعيف العصا ، يريد أنه لا يكثر ضربها ولا يعتنف^(١) بها وذلك أجدر بأن تشحّم أبدانها وتغزّر ألبانها ومثل هذا قول الشاعر الآخر وقد تقدم ذكره :

عليها شريب وادع لين العصا يساجلها جمانه وتساجله

وأنشد الخليل بن أحمد في كتاب العين لبعض العرب :

(١) يقال اعتنف الأمر : إذا أخذه بعنف .

أَغْرَهُ كَضَوْءُ الْبَدْرِ فِي كُلِّ مَنْكِبٍ مِنَ النَّاسِ نَعْمَى يَحْتَذِرُهَا وَإِصْبَعُ
يَحْتَذِرُهَا هَاهُنَا : يَعْطِيهَا كَأَنَّهُ يَفْتَعِلُهَا مِنَ الْحُذَى ^(١) كَمَا تَقُولُ يَصْطَنَعُهَا
وَالْمَنْكِبُ عِنْدَهُمْ : اسْمٌ لِكُلِّ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ عِرَافَةً ^(٢) ، وَيُسَمَّى الرَّجُلُ الَّذِي
يَلِي ذَلِكَ مَنْكِبًا ، وَهُوَ مَنْ يَدَبُرُ هَذِهِ الْعِدَّةَ مِنَ الْعِرَفَاءِ ، وَقَالَ شَاعِرٌ آخَرُ
فِي مَعْنَى الْإِصْبَعِ أَيْضًا :

مَنْ يَجْعَلِ اللَّهُ عَلَيْهِ إِصْبَعًا لِلْخَيْرِ وَالشَّرِّ يُصَادِفُهُ مَعَا
أَيُّ مَنْ يَجْعَلُ اللَّهُ عَلَيْهِ أَثَرًا يَسْتَدِلُّ بِهِ عَلَى أَنَّهُ مِنْ أَهْلِ الْخَيْرِ ، أَوْ مِنْ أَهْلِ
الشَّرِّ يَصَادِفُ الْجَزَاءَ عَلَى كَلَا الْفَعَالِينَ مِنْ ثَوَابٍ أَوْ عِقَابٍ ، وَنَعِيمٍ أَوْ
عَذَابٍ ، وَذَلِكَ الْأَثَرُ الَّذِي يَجْعَلُهُ اللَّهُ عَلَيْهِ هُوَ اسْتِحْقَاقُ الْحَمْدِ مِنَ النَّاسِ
إِنْ كَانَ مُحْسِنًا ، أَوْ اسْتِحْقَاقُ الذَّمِّ مِنْهُمْ إِنْ كَانَ مُسِيئًا .

فَإِذَا تَهَدَّتِ الَّتِي قَرَرْنَاهُ كَانَ مَعْنَى لَفْظِ الْخَيْرِ : مَا مِنْ آدَمَى إِلَّا
وَقَلْبُهُ مِنَ اللَّهِ سَبْحَانَهُ بَيْنَ نَعْمَتَيْنِ حَسَنَتَيْنِ : إِحْدَاهُمَا مَا مِنْهُ بِهِ عَلَيْهِ مِنْ
مَعْرِفَةِ خَالِقِهِ وَرَازِقِهِ ، وَالْأُخْرَى الْغُبْطَةُ بِمَا أَنْعَمَ بِهِ عَلَيْهِ مِنْ تَحْسِينِ خَلْقِهِ

(١) فِي أَسَاسِ الْبَلَاغَةِ : أَحَدِيَّتُهُ حَذِيًّا أُعْطِيَتْهُ عَطِيَّةٌ .

(٢) يُقَالُ عَرَفْتُ عَلَى الْقَوْمِ أَعْرَفَ ، مِنْ بَابِ قَتْلِ عِرَافَةٍ بِالْكَسْرِ فَأَنَا طَرَفٌ : أَيُّ
مَدِيرِ أَمْرٍ وَقَائِمِ بَسِيَّاسَتِهِمْ .

وَالْعَرِيفُ يَكُونُ عَلَى نَعِيرٍ (وَهُوَ الْجَمْعُ مِنْ ثَلَاثَةِ إِلَى عَشْرَةٍ) وَالْمَنْكِبُ يَكُونُ
عَلَى خَمْسَةِ عِرَفَاءَ ، وَقِيلَ عَلَى اثْنَتَيْ عَشْرَةَ عِرَافَةً كَمَا أَتَتْهُ الْمَوْزُونَةُ . ثُمَّ الْأَمِيرُ
فَوْقَ هَؤُلَاءِ .

وتوسيع رزقه ، وذلك يوجب عليه الخروج إليه تعالى من حق الشكر على مننه ، وإحسان الجوار لنعمه ، وقد عبر بعضهم عن هذا المعنى بعبارة أخرى قال : المراد بذلك تقلب القلوب بين حسن آثار الله عليها ، وهذا القول مُجْمَلٌ ، والقول الذي ذكرناه من قبل مُفَصَّلٌ .

فأما ما تذهب إليه المشبهة من الإصبع هاهنا على حقيقتها ، وأن الله سبحانه أصابع ويداً وساقاً وقدمًا إلى غير ذلك ، فهو من الجهالات التي تدفعها العقول بأوائلها ، وتقضى بفسادها قبل إعمال النظر فيها ، وكيف يصح هذا القول لهم ، ويقوم في عقولهم مع اعتقادهم أن الله سبحانه مستور على العرش كاستواء القاعد في مقعده ، والتمهد على مهاده ، وأن بينه وبين المخلوقين من بني آدم سبع سموات ، وما بين كل سماء وسماء مسيرة خمسمائة عام ، وسمك كل سماء مثل ذلك ، فكيف يسوغ أن تكون أصابعه (تعالى عن ذلك علواً كبيراً) واصله إلى قلوب خلقه مع هذا البعد العظيم ، والمدى الطويل ، ولو كان ذلك على حقيقته لوجب له أن يكون من الأصابع ما لا نهاية له حتى يختص قلب كل عبد من عبده بإصبعين من أصابع يده . هذا لعمر الله القول المتفاسد ، والظن المتكاذب ، وبمثل هذا الجواب نجيب من سأل عن قوله تعالى : « مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ » الآية . فنقول : أراد سبحانه أنه

معه بالعلم والإحاطة لا بالدنو والمقاربة ، لأن الأمر لو كان على ذلك لكان المعنى مستحيلاً ، وذلك أنه تعالى لا يجوز أن يكون مع كل ثلاثة ولا مع كل خمسة في حال واحدة على الحقيقة ، لأن الجسم لا يصح أن يكون في مكانين في حال واحدة ، تعالى الله عن تنقل الأمكنة وتقلب الأزمنة علواً كبيراً .

ومما يبين كذب قولهم وفساد تأويلهم ما رواه أبو معاوية الضريز وغيره عن الأعمش عن إبراهيم عن علقمة عن عبد الله بن مسعود قال : « أتى النبي عليه الصلاة والسلام رجل من أهل الكتاب ، فقال : يا أبا القاسم أبلغك أن الله يحمل السموات على إصبع ، والأرض على إصبع ، والشجر على إصبع ، والثرى على إصبع ، والخلائق على إصبع ؟ فضحك صلى الله عليه وآله من قوله ، وأنزل الله سبحانه عقيب ذلك - وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ - الآية ، وقد روى أيضاً في حديث عبد الله بن عباس أن من زعم أن لله خِنْطَرًا وَبِنْصَرًا فقد أشرك بالله سبحانه ، ومجال كتابنا هذا أضيق من أن نسير في أقطار الكلام على هذا الخبر أكثر من هذا المسير وقد استقصينا ذلك في كتاب حقائق التأويل .

٢٦٩ — ومن ذلك قوله ، عليه الصلاة والسلام : « يَهْرُمُ ابْنُ آدَمَ وَيَشْبُ مِنْهُ اثْنَتَانِ : الْحِرْصُ عَلَى الْحَيَاةِ ، وَالْحِرْصُ عَلَى الْمَالِ » وفي رواية أخرى : « الْحِرْصُ وَالْأَمَلُ » . وهذه استعارة ، كأنه عليه

الصلاة والسلام جعل زيادة هاتين الخلتين في الإنسان مع نقصان عمره ،
وتداني أجله بمنزلة الشباب المتقبل ، والعمر المستقبل ، فكلما ازدادت
حوامل جسمه ضعفاً وانقضاء زادت جواذب أمله قوة واستحصافاً ، فيكون
أضعف ما كان بدناً وشخصاً ، أقوى ما يكون أملاً وحرصاً . وروى هذا
الخبير أبو هريرة على خلاف هذه الرواية قال : قال عليه الصلاة والسلام :
« قَلْبُ الْكَبِيرِ شَابٌّ عَلَى حُبِّ اثْنَتَيْنِ : حُبِّ الْحَيَاةِ وَحُبِّ الْمَالِ »

٢٧٠ -- ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام : « مَنْ سَرَّهَ أَنْ
يَقْرَأَ الْقُرْآنَ غَضًا كَمَا أَنْزَلَ فَلْيَقْرَأْهُ عَلَى قِرَاءَةِ ابْنِ أُمِّ عَبْدِ » وهذه
استعارة والغض في كلامهم صفة للشر ، أو النبت الذي لم يطل مكثه بعد
مجتناه ، فيؤثر فيه الزمان ، ويدخله التغير والفساد . ويقولون : غَضٌ
وغضيض بمعنى واحد ، والغضيض أيضاً عندهم اسم من أسماء الظلم ، فأراد عليه
الصلاة والسلام أن من يأخذ القرآن عن ابن أم عبد ، وهو عبد الله بن مسعود
رحمة الله عليه أو يسلك في القراءة نهجه ، ويطلع فجه فقد أخذه سليماً
من الفساد والتغير ، وبرئاً من التحريف والتبديل فهو كالنبات الغض
لم يطل عهد جانيه ، ولا دب الفساد فيه ، وقد روى هذا الخبر على وجه
آخر ، وهو قوله عليه الصلاة والسلام : من سره أن يقرأ القرآن رطباً كما
أنزل ، والمعنى في الروایتين واحد ، وروى أبو هريرة : من أحب أن يقرأ
القرآن غريضاً كما أنزل ، والغريض : الطرى ، وهو أيضاً في معنى
الروایتين الأوليين .

٢٧١ - ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام لأصحابه
 « لَتَأْمُرُنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ أُوْلِيَّ لُحَمَائِكُمْ اللَّهُ كَمَا
 كَانَتْ عَصَايَ هَذِهِ » لعود في يده . وفي هذا الكلام موضع استعارة وهو
 قوله عليه الصلاة والسلام : لِيُلْحِمَنَّكُمْ اللَّهُ ، والمراد لِيَتَقَصَّصَكَ اللَّهُ
 في نفوس والأموال ، وليصينكم بالمصائب العظام فتكونون كالأغصان
 التي جُرِّدت من أوراقها وعزيت من لحيتها وألياطها^(١) فسارت قضباناً
 مجردة وعيداً مفردة ، وهم يقولون لمن جَفَّ^(٢) الزمان حاله أو سلبه أولاده
 وأعضاده قد لحاد الدهر لحى العصا ، لأن ما كان ينضم إليه من ولده
 وحفدته ويسمى عليه من جلايب نعمته بمنزلة الأخاء للفضيب والورق
 للغصن الرطيب ، فإذا أخرج عن ذلك أجمع ، كان كالعود العارى ،
 والقضيب الداوى .

٢٧٢ - ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام : « إِنَّ مِنْ
 أَرْبَى الرَّبَا أُسْطِطَالَةَ الْمَرْءِ فِي عَرِضِ أَخِيهِ الْمُسْلِمِ » وهذه استعارة ، لأنه
 عليه الصلاة والسلام شبه تناوُل الإنسان من عرض غيره بالذم والوقعة
 والطعن والعصية^(٣) أكثر مما تناوله منه ذلك الذي قدح في عرضه

(١) الألباط : جمع ليطه (بالسكسر) وهي قشر القصبه ، أو أى عود كالثقاة

والنفوس . والألحى : جمع لحاء (ككتاب) وهو بمعنى البطة .

١١ جف الزمان ماله : ذهب به بحرف . والجافة : السنة تذهب بالأموال .

(٣) العصية : الكذب والنية

وأغرق في ذمه ، بالربا في الأموال ، وهو أن يعطى الإنسان القليل ليحجر
الكثير فإنه يستر في المال بذلك الفعل : أي يطلب ثمانية وزيادته ، وأصل
الربا عندهم مأخوذ من الزيادة يقولون ربا الشيء في الماء إذا زاد ، وانتفخ
ومنه الرِّبَاوة والرِّبوة ، وهي ماعلا من الأرض وارتفع . ومن ذلك قوله
تعالى : « وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ
وَرَبَّتْ » أي رطب ترابها ونبات وكثر نباتها واتصل .

٢٧٣ — ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام « في صفة الخوارج
والخبر طويل : يقرءون القرآن يحسبون أنه لهم وهو عليهم
لا يجاوز حناجرهم ^(١) » ، وهذا القول مجاز . والمراد أنهم لا يعملون
بأحكام القرآن وفرائضه ولا ياتمررن لأوامره ولا ينزعرون بزواجره
وكانهم ليس لهم منه إلا الصوت الخارج من حناجرهم . يقول عليه
الصلاة والسلام لا يعرف القرآن عندهم إلا سنده وتلاوته دون العمل

(١) الحديث في بعض رواياته كما ورد في الناج عن أبي سعيد عن النبي صلى الله
عليه وسلم قال « يخرج فيكم قوم يخفون صلاتكم مع صلاتهم وصيامكم مع
صيامهم وعمركم مع عملهم » وقرءون القرآن لا يجاوز حناجرهم يقرءون من
الدين كما يقرء السهم من الرمية ينظر في النصل فلا يرى شيئا وينظر في القدح
فلا يرى شيئا ، وينظر في الريش فلا يرى شيئا ويتأرى في الفوق .
فقوله ينظر : أي الرامي ، والنصل حديدة السهم . والقدح : السهم قبل أن
يراش . والفوق : مدخل الوتر من السهم . والمتأرى الشك .

والنبي أنه يريد أن يشبههم في بعدهم عن الدين بالسهم إذا نفذ من الرمية
بسرعة فينظر الرامي في النصل والقدح والريش فلا يرى فيها أثرا إلا صابة .

بأحكامه وواجباته ، وقد روى أيضاً لا يجاوز تَرَاقِيهِمْ ، والمعنى واحد .

٢٧٤ — ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام : « لِمُخَاطَبِينَ مِنْ أَهْلِهِ سَأَلَاهُ فِي حَدِيثٍ طَوِيلٍ : وَاللَّهِ لَا أُعْطِيكُمْ كَمَا وَأَدْعُ أَهْلَ الصُّفَّةِ تَنْطَوِي بِطُونُهُمْ لَا أَجِدُ مَا أُنْفِقُ عَلَيْهِمْ » . وفي هذا القول مجاز ، وأهل الصُّفَّة هم فقراء المهاجرين ، فكأنه عليه الصلاة والسلام شبه بطونهم من الخُمَصِ والمُهَضَمِ لقلة الزاد والطعم بالأوعية الفارغة التي تنطوي لفراغها وتنضمّ لخلو أجوافها . وقد يجوز أيضاً أن يكون إنما شبهها بالنُّرُودِ المُنْدِيَةِ ، والخاص المطوية لا نضمام بعضها على بعض من خلوة الأحشاء وبعد العهد بالغذاء . وقد يجوز أيضاً أن يكون تنطوي بطونهم هاهنا تنفعل من الطوى وهو الجوع ، فكأنه عليه الصلاة والسلام قال تتجوع بطونهم وهذا القول يخرج الكلام من حيز الاستعارة ويدخله في باب الحقيقة .

٢٧٥ — ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام : « الْإِيمَانُ قَيْدُ الْفَتَكِ » وهذه استعارة . والمراد بذلك أن الإنسان المؤمن يمتنع لإجل إيمانه أن يسفك الدم الحرام طاعة لأمر الحميّة وركوباً لسنن الجاهلية فكان إيمانه قيّد فتكه فتماسكه وضبط تهالكه . ومثل ذلك قوله عليه الصلاة والسلام لِحَوَاتِ بْنِ جُبَيْرٍ الْأَنْصَارِيِّ وَكَانَ خَلِيفَةً^(١) قَبْلَ

(١) كانوا في الجاهلية إذا كثرت جنائيات الفانك منهم حتى أعيا أهلهم وجر عليهم المداوات والمغارم خرج أبوه إلى جماعات القبائل في لأسواق فقال هذا ابني قد خلعت يريده قد نفيت من ولايتي . فكان لا يؤخذ بعد بغيره . فذلك المتبرأ منه يسمى خليفاً ومخلوعاً .

إسلامه ما فعل شَرَّادَ بَعِيرِكَ يَا خَوَاتُ؟ فَقَالَ قَيْدَهُ الْإِسْلَامُ يَا رَسُولَ اللَّهِ. أَلَا نَرَى كَيْفَ شَبَّهَ عَلَيْهِ الصَّلَاةَ وَالسَّلَامَ فِي رِيْعَانِ خِلَاعَتِهِ وَعَنْقَوَانِ نِزَاقَتِهِ بِالْبَعِيرِ الشَّارِدِ الَّذِي قَدْ فَارَقَ مَرَّاحَهُ^(١) وَتَبَعَ ارْتِيَا حَهُ. وَكَيْفَ أَجَابَ هَذَا الْإِنْسَانُ عَنْ كَلَامِ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بِمَا هُوَ مِنْ جَنْسِهِ وَمَاضٍ عَلَى نَهْجِهِ فَقَالَ قَيْدَهُ الْإِسْلَامُ، لِأَنَّهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لَمَّا جَعَلَهُ بِمَنْزِلَةِ الْبَعِيرِ الشَّارِدِ جَعَلَ هُوَ مَا رَدَّهُ عَنْ ذَلِكَ الشَّرَادِ وَعَكَّسَهُ عَنْ تِلْكَ الْحَالِ بِمَنْزِلَةِ الْقَبْدِ وَالْعِقَالِ. وَهَذَا الْقَوْلُ مِنَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ أَيْضًا دَاخِلٌ فِي بَابِ الْمَجَازِ.

٢٧٦ — وَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «الصَّبْرُ عِنْدَ الصَّدْمَةِ الْأُولَى». وَفِي رِوَايَةٍ أُخْرَى: الْأَجْرُ عِنْدَ الصَّدْمَةِ الْأُولَى. وَهَذَا الْقَوْلُ مَجَازٌ، وَالْمُرَادُ بِالصَّدْمَةِ أَوَّلُ مَا يَطْرُقُ الْإِنْسَانُ مِنَ النَّوَائِبِ وَيُبْدِيهِ مِنَ الْمَصَائِبِ، فَشَبَّهَ ذَلِكَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فِي شِدَّةِ وَقَعَتِهِ وَعَظِيمِ رُوعَتِهِ بِصَدْمَةِ الْجَسِيمِ الشَّدِيدِ، أَوْ صَكَّةِ الْحَجَرِ الثَّقِيلِ فِي أَنَّهُ يُوهِنُ وَيُحْطَمُ وَيُرْمِضُ وَيُؤْلِمُ. فَإِذَا صَبَرَ الْإِنْسَانُ لِتِلْكَ الْوَاقِعَةِ وَتَمَاسَكَ تَحْتَ تِلْكَ الرُّوعَةِ وَسَلَّمَ لِلْأَقْصِيَّةِ النَّازِلَةِ وَالْأَقْدَارِ الْغَالِبَةِ وَلَمْ يَنْفُذْ فِي جَوَاذِبِ الْجَزَعِ وَتَرَكَضَ فِي مَضْمَارِ الْقَلْقِ أُعْطِيَ الْأَجْرَ بِرُمَّتِهِ وَقِيدَ إِلَيْهِ بِأَزِمَّتِهِ، لِأَنَّهُ مَا يَطْرُقُ الْإِنْسَانُ وَهُوَ ذَاهِلٌ وَيَنْفَجُوهُ وَهُوَ غَافِلٌ أَعْظَمَ نَكَايَةً لِقَلْبِهِ وَإِجْمَاعًا لِنَفْسِهِ مِمَّا يَطْرُقُ وَقَدْ أَخَذَ لَهُ أَهْبَتَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عُذَّتَهُ.

(١) المَرَّاحُ: اسم مكان من رَاحَ يروح. والمعنى فارق معطنه ومبركه.

٢٧٧ - ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام : « وَالَّذِي
نَفْسِي بِيَدِهِ لَا يُسْلِمُ عَبْدٌ حَتَّى يُسْلِمَ قَلْبُهُ وَلِسَانُهُ » . في حديث طويل
وهذه استعارة ، والمراد بإسلام قلبه سلامته من الإخبات ، وإسلام لسانه
تسلعه من الآفات . فلا يعتقد قلبه شرا ولا يقول لسانه هُجْرًا . والدليل
على إرادته عليه الصلاة والسلام هذا المعنى قوله في تمام الكلام : ولا يؤمن
حتى يَأْمَنَ جَارَهُ بَوَائِقَهُ ، وقوله عليه الصلاة والسلام في حديث آخر :
« الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ النَّاسُ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ » ، وكأنه عليه الصلاة والسلام
جعل تمام إسلام العبد : أن يكفَّ قلبه عن اعتقاد القبائح ، ويده عن
فعل المحظورات ، ولسانه عن قول المقدعات .

٢٧٨ - ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام : « إِنْ أَلَّهِ
سُبْحَانَهُ لَمْ يُحَرِّمْ حُرْمَةً إِلَّا وَقَدْ عَلِمَ أَنََّّهُ سَيَطْلُعُ مِنْكُمْ مُطْلَعٌ » ،
وهذا القول مجاز ، وذلك أنه عليه الصلاة والسلام شبه ما حرّمه الله تعالى
من محارمه ونهى عباده عن تقحّمه بالحمى الذى يُحْمَى رِغْيُهُ وَيُمْنَعُ رِغْيُهُ ^(١) ،
وشبه عليه الصلاة والسلام المتعرّض لحرمة من تلك الحرمات بمن هجم
في الحمى مُقْدِمًا واطْلَعَ فَجْأَةً مُتَفَحِّمًا . وقد مضى الكلام على نظير هذا
الخبر فيما تقدم من كتابنا هذا .

٢٧٩ - ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام في كلام طويل

(١) الرعى (بالكسر) الكلاء . الرعى (بالفتح) : تناول الماشية للرعى
وأكله منه .

ذكر فيه بنى إسرائيل : « نَهَاَهُمْ عُلَمَاؤُهُمْ عَنِ الْمَعَاصِي فَلَمْ يَنْتَهُوا
فَجَاسُواهُمْ فِي مَجَالِسِهِمْ ، وَوَاكَلُوهُمْ وَشَارَبُوهُمْ ، فَضَرَبَ اللَّهُ قُلُوبَ
بَعْضِهِمْ بِبَعْضٍ وَلَعَنَهُمْ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى بْنِ مَرْيَمَ » ، فقوله عليه
الصلاة والسلام ^(١) : فَضَرَبَ اللَّهُ قُلُوبَ بَعْضِهِمْ بِبَعْضٍ استعارة والمراد
بالضرب هاهنا خلط القلوب بعضها ببعض كأنه تعالى خلطها بأن شهد على
جميعها بالضلال ولم يتميز بين قلوب العلماء والجهال إذا كان الضلال شاملا
لهم والغواية ضاربة بسياجها عليهم . ومن ذلك قول القائل ضربت بعض
بنى فلان ببعض إذا ألقى بينهم حربا يختلطون فيها ، أو عداوة يتناوشون
عليها ، ونظير ذلك الخبر مروي عنه عليه الصلاة والسلام وهو قوله : أَيْهَذَا
أَمَرْتُمْ أَنْ تَضْرِبُوا كِتَابَ اللَّهِ بَعْضُهُ بِبَعْضٍ : أى أن تجعلوا حرامه حلالا
وحلاله حراما فكأنكم قد خلطتموه فجعلتم أعلاه أسفله ، ومفهومه مبهومه
٢٨٠ — ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام : « الْأَيْدَى ثَلَاثٌ :
فَيْدُ اللَّهِ الْعَلِيِّ ، وَيَدُ الْمُعْطَى بَلَّغَ قَبَالًا الْوُسْطَى ، وَيَدُ السَّائِلِ السُّفْلَى »

(١) في مسند أحمد : عن ابن مسعود رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « لما وقعت بنو إسرائيل في المعاصي ونهتهم علماءهم فلم ينتهوا
فجاسوا في مجالسهم (قال يزيد أحسبه قال وأسواقهم) وواكلوهم وشاربوهم
فضرب الله قلوب بعضهم ببعض ولعنهم على لسان داود وعيسى بن مريم ذلك بما
عصوا وكانوا يعتدون . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم متكئا فجلس
وقال والذي نفسى بيده حتى تأطروهم على الحق أطرا . »

(٢) لم نجد الحديث بهذا النص فيما رجعنا إليه من كتب الحديث ولسنا وجدناه في
الناس : « الأيدي ثلاثة : فيد الله العليا ويد المعطى التي تليها ، ويد السائل السفلى

وقد مضى هذا الخبر فيما تقدم إلا أن فيه هاهنا زيادة لأجلها أعدنا الكلام عليه
وهي قوله عليه الصلاة والسلام: قَيِّدُ اللَّهِ الْعَلْيَا . وهذا القول مجاز ويد الله
سبحانه هاهنا نعمته ، وهي أعلى النعم لأنها أصل لها وأم لجميعها لأن كل من
أعطى عطء أوحى حياء فإنما أعطى مما خوله الله سبحانه وتعالى ، ولولا ذلك
لكانت كفه جامدة وريح أُرْ يَحْيِيَّتِهِ را كدة ، ولأجل ذلك يقول في الحياة
إنها أول النعم ويزيد بذلك أنها أول في الرتبة لافتقار كل نعمة إليها وصحة
وجودها متفردة بنفسها غير مفتقرة إلى غيرها فصارت أولى في الرتب وإن
جاز أن يوجد معها غيرها من النعم ، وفيما علقته عن قاضي القضاة أبي الحسن
عبد الجبار بن أحمد فيما قرأته عليه من أوائل كتابه المعروف بشرح الأصول
الخمس أن النعمة هي المنفعة إذا قصد بها فاعلها وجه الإحسان، فإن قيل : فما
المنفعة ؟ قيل : اللذات والمسار وما أدى إليها إذالم يعقب ضرراً أعظم منها،
فإن قيل : فما اللذات ؟ قيل : ما يعلمه كل أحد من نفسه في إدراك
ما يشتهي من مأكله ومشاربه ومناظره وملابسه إلى غير ذلك من الأمور
التي يدعو العلم بها إلى التوصل إليها فأما السرور فهو اعتقاد ذلك أو الظن
له ، وليس بمعنى سوى ما ذكرناه ، وما يؤدي إلى اللذات في كونه نعمة
كاللذات . ولذلك نعد من مكن غيره من الوصول إلى الملاذ بالدنانير
والدراهم منعماً ، وإن كانت أعيان الدراهم والدنانير لا لذة فيها ، ولهذا

فأعط الفضل ولا تعجز عن نفسك» ومعنى أعط الفضل: أى انفاضل عن حاجتك
وأولادك . ولا تعجز عن نفسك : أى عن مجاهدتها

الوجه نعد المتكئين من هذه الأمور نعمة حتى نقول إن الله سبحانه منعم
بالتكليف الذي هو صلة إلى النعيم المقيم والثواب العظيم ، ولأجله أيضاً
قلنا في المصحح للنعيم إنه نعمة كما نقول في الحياة والشهوة ، وإن كانا
يترتبان ، وقد عدّ في ذلك أيضاً دفع المضار والغموم ، وما يؤدي إليهما .
ولذلك نقول : إن الله سبحانه لو عفا عن العصاة كان منعماً عليهم ولوسهل
فهم السبيل إلى القرار من النار كان محسناً إليهم . وليس يحتمل كتابنا
هذا أكثر من القدر المذكور في هذا المعنى ، وكأنه عليه الصلاة والسلام
جعل يد الله العليا لليلة التي ذكرناها ، وجعل يد المعطى الوسطى لأنها تليها
وجعل يد السائل السفلى ، لأنها مصب فضلها وقرارة سيلها ، وقد تقدمت
الإشارة إلى جملة هذا المعنى فيما تقدم من الكلام .

٢٨١ - ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام : « لَيْلَةُ الْجُمُعَةِ
غُرَّةٌ وَيَوْمُهَا أَزْهَرُ » . وهاتان استعارتان . والمراد أن ليلة الجمعة متميزة
من سائر الليالي بتعظيم قدرها وتشريف العمل فيها ، فقد صارت لأجل
ذلك كأمّس الغراء التي تبين من البُهم والشهباء التي يميز عن الدُهم .
وكذلك المراد يكون يومها أزهر ، والأزهر : الشديد البياض كأنه لتميزه
من الأيام بعظم القدر وشرف الذ كر قد زاد عليها اتضاحاً وكثراً^(١)
غُرراً وأَوْضاحاً .

(١) كثراً : غلبها .

٢٨٢ - ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام في كلام طويل :
 « أَلَا إِنَّ عَمَلَ الْجَنَّةِ حَزْنٌ بِرَبَوَةٍ . أَلَا إِنَّ عَمَلَ النَّارِ سَهْلٌ بِسَهْوَةٍ ، وَمَا
 مِنْ جُرْعَةٍ أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ مِنْ جُرْعَةٍ غَيْظٍ يَكْظُمُهَا عَبْدٌ »
 وفي هذا الكلام مجازان [أحدهما] قوله عليه الصلاة والسلام : أَلَا إِنَّ عَمَلَ
 الْجَنَّةِ حَزْنٌ بِرَبَوَةٍ . أَلَا إِنَّ عَمَلَ النَّارِ سَهْلٌ بِسَهْوَةٍ ^(١) ، فجعل عليه الصلاة
 والسلام عَمَلَ الْجَنَّةِ كالحزن من الأرض ، وهو ما غلظ منها ، لأنه يصعب
 تجشمه فكذلك عمل الجنة يشق تكافئه ، وزاد عليه الصلاة والسلام
 الكلام إيضاحاً بقوله حزن بربرة فلم يرض بأن جعله حزناً حتى جعله
 بربرة ، وهي الأكمة العالية ليكون تجشمه أشق وتكافئه أصعب ولم يرض
 عليه الصلاة والسلام بأن جعل عمل النار سهلاً وهو ضد الحزن حتى جعله
 بسهوة ليكون أخف على فاعله وأهون على عامله . [والمجاز الآخر] قوله
 عليه الصلاة والسلام : وما من جُرْعَةٍ أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ مِنْ جُرْعَةٍ
 غَيْظٍ يَكْظُمُهَا عَبْدٌ فكأنه عليه الصلاة والسلام جعل كظم الغيظ بمنزلة
 الجرعة المؤثرة التي يجرعها الإنسان فيجد مذاقها مرّاً ويمجد غيبتها حلواً .
 ولهذا المعنى شبهوا ما يمجده الإنسان من حرارة حزن وحرارة هم بالشجا
 المعارض في الخلق وشبهوا ما يلحقه من منظر ياباه وملحظ لايهواه بالتقدي
 المعارض في الطرف ، لأن الأول يحبس مجارى أنفاسه والثاني يمنع
 مجال الحاظه .

(١) السهوة : الأرض اللينة التربة .

٢٨٣ — ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام : « شِفَاءُ الْعِيِّ السُّؤَالُ » ، وهذا القول مجاز . والمراد أن الشيء إذا عَيَّ الإنسان به ولم يُثَلِّجْ صدره بمعرفته كان في السؤال عنه بيان التباسه وسَرَّاحُ احتباسه ، فأقام عليه الصلاة والسلام العيَّ بمعرفة الأمر مقام الداء المطاول والسكرَب الماثل وأقام السؤال عنه إذا أدى إلى العلم به مقام الشفاء المزيج والفرح المريح .

٢٨٤ — ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام . في كلمات قالهن لعبد الله بن عباس : « احْفَظِ اللَّهَ يَحْفَظْكَ ، احْفَظْهُ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ » ، وفي رواية أخرى « تَجِدْهُ أَمَامَكَ » . وهذا مجاز ، لأنَّ الله سبحانه أمامنا وخلفنا وعن أيمننا وعن شمائلنا من طريق الحفظ لنا والاحاطة بنا ، فليس يختص ذلك مناهجةً دون جهة وبجالة دون حالة إلا أنَّ المراد بتجاهك وأمامك هاهنا أنك تجد حفظه ومعونته حيث توجهت وأى طريق سلكت . وذلك كقول الشاعر في التخويف بالله تعالى وهو نظيرٌ للحال التي كلامنا عليها :

* وَاللَّهُ يُصْبِحُ مِنْ أَمَامِ الْمُدَّجِرِ *

أى لا يفوته هارب ، ولا يضل عنه شارد .

٢٨٥ — ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام : « الْعَيْنُ حَقٌّ تَسْتَنْزِلُ الْحَالِقَ » . وهذا مجاز ، والمراد أن الإصابة بالعين من قوة تأثيرها

وتحقق أفاعيلها كأنها تستهبط العالى من ارتفاعه ، وتستقلق الثابت بعد استقراره ، والحاتق الممكان : المرتفع من الجبل وغيره ، فجعل عليه الصلاة والسلام العين كأنها تحط ذروة الجبل من شدة بطشها وحدة أخذها ، وقد تناصرت الأخبار بأن الإصابة بالعين حق ، والذي يقوله أصحابنا أن الله سبحانه يفعل المصالح بعباده على حسب ما يعلمه من الصالح لهم فى تلك الأفعال التى يفعلها والأقدار التى يُقدِّرُها . وإذا تقررت هذه القاعدة فغير ممتنع أن يكون تغييره تعالى نعمة زيد مصلحة لهم ، وإذا كان تعالى يعلم من حال عمرو أنه لو لم يسلب زيدا نعمته ، ويخفّض منزلته أقبل على الدنيا بوجهه ، ونأى عن الآخرة بعظمه ، وأقدم على المغاوى وارتكس فى المهاوى ، وإذا سلب سبحانه نعمة زيد لليلة التى ذكرناها عوضه عنها وأعطاه بدلا منها عاجلا أو آجلا ، وإذا كان ذلك كما قلنا ، وقد روى عنه صلى الله عليه وآله ما يدل على أن الشئ إذا عظم فى صدور العباد وضع الله قدره ، وصغر أمره لم ينكر تغيير حال بعض الأشياء عند نظر بعض الناظرين إليه ، واستحسنه له وعظمه فى صدره وفخامته فى عينه كما روى أنه عليه الصلاة والسلام قال : لما سُبِقَتْ ناقته العضباء ، وكانت إذا سوبق بها لم تسبق : ما رفع العباد من شئ إلا وضع الله منه ، فيمكن أن يتأول قوله عليه الصلاة والسلام : العين حق على هذا الوجه ، ويجوز أن يكون ما أمر به المستحسن للشئ عند رؤيته له من إعادته بالله

والصلاة على رسول الله قائماً في المصنعة مقام تغيير حالة الشيء المستحسن فلا تغير عند ذلك لأن الرأي قد أظهر الرجوع إلى الله سبحانه والإخبارات له ، وأعاد ذلك المرئ به ، فكانه غير راكن إلى الدنيا ، ولا مفترقاً بها ، ولا واثق بما يرى عليه أحوال أهلها . ولعمرو بن بحر الجاحظ في الإصابة بالعين مذهب انقرد به ، وذلك أنه يقول : إنه لا ينكر أن ينفصل من العين الصائبة إلى الشيء المستحسن أجزاء لطيفة فتؤثر فيه وتنجي عليه ، ويكون هذا المعنى خاصاً ببعض الأعين كالحواص في الأشياء ، وعلى هذا القول اعتراضات طويلة ، وفيه مطاعن كثيرة لا يقتضى هذا الكتاب استيفاء ذكرها ، واستقصاء شرحها .

٢٨٦ — ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام : « الْإِسْلَامُ ذُلُولٌ لَا يَرَهُ كَبُّ إِلَّا ذُلُولًا » . وهذه استعارة ، والمراد أن الإسلام سهل القياد لمن اقتاده وطمى الظهر لمن اقتعده لا يتوقَّص^(١) براكبه ، ولا يتقاعس على جاذبه ، فهو كالبعير الذلول الذي يسهل مرامه . ويطوع^(٢) زمامه ، وقوله عليه الصلاة والسلام : لَا يَرَهُ كَبُّ إِلَّا ذُلُولًا : أى لا يستجيب من الناس إلا من لانت للدين عرائكه ، وقربت عليه مآخذه ، وطاعت نفسه باحتمال أعبائه ، والصبر على لأوائه . فأشبه المسلم من هذا الوجه أيضاً الفرس الذلول الذى يمكن راكبه ويطاوع فارسه ، وإنما جعل عليه

(١) التوقَّص : شدة الوطء في المشي كأنه يقص ماتمته (يدقه وبكسره)

(٢) طاع يطوع : اقاد .

الصلاة والسلام الإسلام في الثاني بمنزلة الراكب بعد أن وصفه في الأول بصفة المراكب ، لأن الإسلام كالمالك على الإنسان أمره ، والمبتاع منه نفسه ، فهو يقوده بزمامه ويصرفه على أحكامه ، وكان من هذا الوجه كأنه راكب لظهره لما كان مالكا لأمره .

٢٨٧ - ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام : « مَنْ تَقَرَّبَ إِلَى اللَّهِ شِبْرًا تَقَرَّبَ إِلَيْهِ ذِرَاعًا ، وَمَنْ تَقَرَّبَ إِلَى اللَّهِ ذِرَاعًا تَقَرَّبَ إِلَيْهِ بَاعًا ، وَمَنْ أَقْبَلَ إِلَى اللَّهِ مَاشِيًا أَقْبَلَ اللَّهُ إِلَيْهِ مُهْرًا وَلَا » . وهذا القول مجاز ، والمراد أن من فعل الشيء القليل من البر عوضه الله الشيء الكثير من الأجر ، فجعل عليه الصلاة والسلام التقرب من استحقاق الثواب كأنه تقرب من فاعل الثواب على طريق المجاز والاتساع ، وعلى هذا المعنى يحمل كل ما جاء في القرآن والكلام من ذكر التقرب إلى الله سبحانه لأنه تعالى جَدَّه لا يوصف بالتقرب من طريق الدنو بالمسافة ، ولكن من حيث كان قريب الثواب من مستحقه ، وذات الإحسان من راجيه ، ومؤمله ، فكانت صفة التقرب متعلقة بإحسانه وثوابه لا بنفسه وذاته ، فأما قوله عليه الصلاة والسلام : ومن أقبل إلى الله ماشياً أقبل الله إليه مهرولا ، فالمراد به أن من تقرب إليه سبحانه بطاعة ، وإن فعلها بطيئاً متضرعاً فإنه تعالى يجعل جزاءه عليها مُعَدًّا مسرعاً ، فالمشي هاهنا كناية عن الطاعة البطيئة ، والمهرولة كناية عن المثوبة المسرعة . فذكره عليه الصلاة والسلام

على طريق ضرب المثل لفضل ما يفعله الرب تعالى على ما يفعله العبد ، وإن كان لا يجب في كل طاعة أن يكون جزاؤها عاجلاً ، وثوابها مبادراً .

٢٨٨ — ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام « مَا لِلشَّيْطَانِ مِنْ سِلَاحٍ أْبْلَغَ فِي الصَّالِحِينَ مِنَ النَّسَاءِ » . وهذا القول مجاز ، وذلك أنه عليه الصلاة والسلام أقام النساء لحكمهن على النفوس وتأثيرهن في القلوب مقام السلاح للشيطان الذي يقارع به قلوب الصالحين وَيَقْرَعُ بِحِذَائِهِ خُمُورَ الْمُتَّقِينَ ، فيملك به أزيمة رقابهم وينتقمهم به إلى طاعته عن طاعة ربهم . ونظير ذلك قوله عليه الصلاة والسلام : النساء حَبَائِلُ الشَّيْطَانِ . وقد مضى كلامنا عليه فيما تقدم من هذا الكتاب .

٢٨٩ — ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام ، وقد سئل عن ضالة الإبل فقال للسائل : « مَا لَكَ وَلَهَا ، مَعَهَا حِذَاوُهَا وَسِقَاوُهَا ، تَرِدُ الْمَاءَ وَتَرْعَى الشَّجَرَ ، حَتَّى يَجِيءَ رَبُّهَا فَيَأْخُذَهَا » . وهاتان استعارتان ، كأنه عليه الصلاة والسلام جعل خُفَّ الضالة بمنزلة الحذاء ، ومستقرَّها بمنزلة السقاء ، فليس يضرَّ بها التردد في القيافي ، والتنقل في المصايف والمشاتي ، لأنها صابرة على قطع الشقة ، وتكلف المشقة ، لاستحصال مناسمها واستغلاظ قوائمها ، ولأنها بطول عنقها تتمكن من ورد المياه الغائصة^(١) ،

(١) في الأصل الغائصة ، وفي كتب اللغة : اعتلص منه شيئاً أخذ علفه وهي إلى الفلة ما هي ، فيصح أن تكون المياه الغائصة : أي القليلة ولكننا رأينا أن الأظهر جعلها الغائصة لتناسبة طول العنق .

والتناول من أوراق الشجر الشاخسة ، فهي لهذه الأحوال بخلاف الضالة من الشاة ، لأن تلك تضعف عن إدمان السير ، والضرب في أقطار الأرض لضعف قوائمها ، وقلة تمكنها من أكثر المياه والمراعى بنفسها ، ومع ذلك فهي فريسة للذئب إن أحس حسها ، واستروح ريحها ، ولأجل ذلك قال عليه الصلاة والسلام للسائل عنها : خذها^(١) ، فإنما هي لك أو لأخيك أو للذئب .

٢٩٠ — ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام في كلام طويل : « فَإِذَا طَلَعَ حَاجِبُ الشَّمْسِ فَلَا تُصَلُّوا حَتَّى تَبْرُزَ ، وَإِذَا غَابَ حَاجِبُ الشَّمْسِ فَلَا تُصَلُّوا حَتَّى تَغِيبَ » . وهذه استعارة ، والمراد بحاجب الشمس أول ما يبدو من قرصها ، فكأنه عليه الصلاة والسلام شبه الشمس عند صعودها من حُدْبَةِ الأرض بالطالع من وراء ستر يستره ، أو غيب يَطْمُرُهُ^(٢) ، فأول ما يبدو منه وجهه ، وأول ما يبدو من مخاطيط وجهه حاجبه ، ثم بقية وجهه ، ثم سائر جسده شيئاً شيئاً وجزءاً جزءاً ، فكأنه عليه الصلاة والسلام نهى عن الصلاة عند ظهور بعض الشمس للعيون حتى يظهر جميعها ، وعند مغيب بعضها حتى تغيب جميعها ، وقال القطامي في حاجب الشمس ، ومراده جانبها :

تَرَاءَتْ لَنَا كَالشَّمْسِ تَحْتَ غَمَامَةٍ بَدَأَ حَاجِبُهَا مِنْهَا وَضَنَّتْ بِحَاجِبِ

(١) أى الشاة .

(٢) طمره : دفنه وخبأه .

أى ظهر منها جانب ، وغاب منها جانب . وقد يجوز أن يكون الحاجب الشمس هاهنا معنى آخر ، وهو أن يراد به ما يبدو من شعاعها قبل أن يظهر جرمها ، وكذلك ما يغيب من شعاعها قبل أن يغيب قرصها ، فأقام ذلك عليه الصلاة والسلام لها مقام الحاجب لأنه يدل عليها ، ويظهر بين يديها ، فكأنه عليه الصلاة والسلام نهى عن الصلاة قبل أن يظهر قرص الشمس ، وبعد الشعاع الغائب أمامه ، والصلاة المرادة هاهنا صلاة التطوع دون صلاة الفرض . ألا ترى أن أول ما يظهر قرص الشمس ليس بوقت لشيء من الصلاة المفروضات ، وفي أول هذا الخبر ما يحقق القول الذى قلناه ، وهو قوله عليه الصلاة والسلام : لا تَنَحَّرُوا^(١) بصلاتكم طلوع الشمس ولا غروبها ، فإنها تطلع بين قرني شيطان . وقد اختلف الفقهاء فى ذلك ، فقال أبو حنيفة : لا يجوز أن يتطوع بعد صلاة الصبح حتى تطلع الشمس ، ولا بعد صلاة العصر حتى تغرب الشمس ، وقال الشافعى يجوز أن يصلى فى هذين الوقتين النفل الذى له سبب مثل تحية المسجد ، ولا يصلى النفل المبتدأ الذى لا سبب له .

٢٩١ — ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام : « الْمُؤْمِنُ يَأْكُلُ فِي مِعَاءٍ^(٢) وَاحِدٍ ، وَالْكَافِرُ يَأْكُلُ فِي سَبْعَةِ أُمْعَاءٍ » ، وهذا

(١) نحَرَ فى الصلاة : انتصب ونهَد صدره ، والمراد لا تقيموا صلاتكم وقت طلوع الشمس وغروبها .

(٢) المِى (بالفتح وكألى) مفصَّور ويمد والقصر أشهر ، وهو واحد الأمعاء لصارين البطن .

القول مجاز ، والمراد أن المؤمن يقنع من مطعمه بالبلغ التي تمسك الرَّمَق ،
وتقيم الأود دون المآكل التي يقصد بها وجه اللذة ويقضى بها حق
الشهوة ، فكأنه يأكل في معاء واحد لفرط الاقتصار وكراهة الاستكثار .
وأما الكافر : فإنه لتبججه في المآكل ، وتنقله في المطاعم ، وتوخييه ضد
ما يتوخاه المؤمن من إحراز حطام الدنيا التي يطلب عاجلها ولا يأمل آجلها ،
فهو عبد فيها لذته وكادح في طاعة شهوته كأنه يأكل في سبعة أمعاء ،
لأن أكله للذة لا للبلغة ، وللهمة لا للمسكنة .

٢٩٢ — ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام : « جِيئُوا بِكَبْشٍ
أَقْرَنَ يَطَأُ فِي سَوَادٍ وَيَنْظُرُ فِي سَوَادٍ فِي حَدِيثٍ طَوِيلٍ ، فَأُتِيَ بِهِ فَضَحَّى
بِهِ وَذَبَحَهُ بِيَدِهِ » ، وهذه استعارة . والمراد بقوله عليه الصلاة والسلام :
يَطَأُ فِي سَوَادٍ أن أظلافه سود ، فكأنه يَطَأُ منها في سواد : أى ليس بينها
وبين الأرض منها إلا ما هو أسود ، وهذه من محاسن الاستعارات
والمراد بقوله عليه الصلاة والسلام : وينظر في سواد أن حدقته سوداء أو
مطارح نظره منها فكأنما ينظر في سواد ، وهذا المعنى أراد كُثَيْرٌ بقوله :
وَمِنْ نَجْلَاءَ تَدْمَعُ فِي بَيَاضٍ إِذَا دَمَعَتْ وَتَنْظُرُ فِي سَوَادٍ
فالمراد بقوله تدمع في بياض أن دمعها يقطر على خدها وهو أبيض فيصير
الدمع واقعاً في بياض ، والمراد بقوله وتنظر في سواد المعنى الذي قدمنا ذكره
من وصف الحدقة بشدة الاسوداد ، وإذا كان النظر منها فكأن النظر
في سواد

٢٩٣ — ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام وقد ذكر له امرأة استحيضته : « لَيْسَتْ هَذِهِ بِالْحَيِضَةِ وَلَسِيكُمَا رَكْضَةٌ مِنَ الرَّحِمِ » ، وهذه استعارة ، والمراد بقوله عليه الصلاة والسلام : ركضة من الرحم أن الرحم نَفَحَتْ^(١) بهذا الدم من غير حيضة . ولكن من حدث علة فأشبهت رَحْمَةَ الفرس إذا رمح بحافره ، أو ركضة البعير إذا ركض بمنْسِمِهِ وهم يسمون الطعنة إذا عَنَدَ^(٢) عَرَقَهَا وفار دما رَمَاحَةً وَرَمُوحًا ، ويقولون رَحِمَتْ بِالْدم إذا كَانَ فَرَعُهَا رَغِيًا^(٣) وجرحها رحيبًا ، وذلك موجود في أشعارهم ومتعارف في لسانهم .

٢٩٤ — ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام : « إِنْ أُلِّهَ لِرَبِّي لِأَحَدِكُمُ التَّمْرَةَ وَاللَّقْمَةَ كَمَا يُرَبِّي أَحَدُكُمْ فُؤُوهُ وَفَصِيلَهُ حَتَّى يَكُونَ مِثْلَ أَحَدٍ » ، وهذه استعارة . والمراد أن الله سبحانه يجمع القليل إلى القليل من صدقاتكم والنزر إلى النزر من قُرْبِكُمْ وطاعاتكم حتى يعظم سيرها وَيَكْبُرُ صَغِيرُهَا ، فيكون عظيم الجزاء بحسبه وجزيل الثواب على قدره ، فجعل عليه الصلاة والسلام ذلك كترية الفُلُو^(٤) والفصيل وتربية الطفل الصغير ، لأنه تنقيل من حال الضعف والصغر إلى حال الاشتداد والكبر .

(١) نفح العرق : نرى منه الدم .

(٢) عند العرق : لم يرقأ دمه .

(٣) الفرغ (بالفتح) : مخرج الماء من الدلو ، والمراد هنا شجرة الطعنة .

الرغيب : الواسع .

(٤) الفلو (بالكسر) وكعدو وسمو : الجحش والمهر بلغا السنة .

٢٩٥ — ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام : « مَنْ عَادَ مَرِيضًا لَمْ يَزَلْ يَحْوِضُ الرَّحْمَةَ حَتَّى يَجْلِسَ فَإِذَا جَلَسَ اغْتَمَسَ فِيهَا » ، وهذه استعارة . والمراد العبارة عن كثرة ما يختص به عائد المريض من الأجر الوافر ، والثواب الغامر ، فشبهه عليه الصلاة والسلام لهذه الحال بخائض الغمر في مشيته ، والمغتمس فيه عند جلسته .

٢٩٦ — ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام في كلام طويل : « لَا تُرْسِلُوا فَوَاشِيَكُمْ وَصَبِيَّانَكُمْ إِذَا غَابَتِ الشَّمْسُ حَتَّى تَذْهَبَ فَحَمَةُ الْعِشَاءِ » ، فقولاه عليه الصلاة والسلام : حمة العشاء ، والمراد ظلمة العشاء ، إلا أنه عليه الصلاة والسلام شبه الظلمة في هذا الوقت بالفتحمة ، وهي الهنة السوداء التي أحرقت النار أجزاءها وأحلتها عن هيئتها والجمع فحَم كسعة وسَعَف^(١) فكأنه عليه الصلاة والسلام أقام شمس النهار مقام النار المتوقدة فإذا انطفأ جاحها وحمد متضررٌ منها أعقب منها الحُمُ وخلفها الفَحَم ، والقواشي في هذا الخبر : اسم لما ينتشر من الحيوانات في الحى : كالإبل ، والغنم ، والحير ، والبقر ، وما يجرى هذا الجرى ، وسميت فاشية لا تتشارها وظهورها ، ومنه قولهم فشا الحديث إذا ظهر وانتشر . ومن كلام العرب : ضَمُوا فَوَاشِيَهُمْ ، وَرَدُّوا مَوَاشِيَهُمْ .

٢٩٧ — ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام : « أَعْطُوا الطَّرِيقَ حَقَّهَا . قِيلَ : وَمَا حَقُّهَا يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ قَالَ : غَضُّ الْبَصَرِ ، وَكَفُّ الْأَذَى ،

(١) السعف : جريد النخل .

وَالْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ ، وَالنَّهْيُ عَنِ الْمُنْكَرِ . وفي حديث آخر : لَا تَقْعُدُوا عَلَى الصَّعَدَاتِ إِلَّا مَنْ أَعْطَاهَا حَقَّهَا ، والصَّعَدَاتُ : الطرق . وهذه استعارة ، كأنه عليه الصلاة والسلام جعل للطرق على القاعدين عليها حقا يجب عليهم الخروج إليها منه ، والإعفاء لها به ، وهو مجموع الخلال المذكورة في أول الحديث ، فمن خرج من ذلك الحق الواجب ، وقام بذلك الفرض اللازم جازله القعود على الطرق ، ومن لم يقم بذلك الحق ، ويؤد ذلك الفرض كان جلوسه عليها محظورا . وكان بمخالفة الأمر مذموماً .

٢٩٨ — ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام : « الْمَجَالِسُ ثَلَاثَةٌ سَالِمٌ وَغَانِمٌ وَشَاجِبٌ » . وهذا القول مجاز ، والمراد أن أهل هذه المجالس الثلاثة سالمون ، وغانمون ، وشاجبون ، والشاجب الهالك ، والشجَب الهلاك ، فجعل عليه الصلاة والسلام هذه الصفات للمجالس ، وهي على التحقيق لأصحاب المجالس ، ولكنها لما كانت مشتملة على أهلها حسن إجراء صفاتهم عليها . ومعنى هذا الخبر المجلس الذي لا يذكر فيه الجليل ، ولا القبيح ، ولا المنكر ، ولا المعروف ، فأهله سالمون ، والمجلس الذي يذكر فيه الحسن من الأقوال ويتحاض من فيه على جميع الأفعال فأهله غانمون ، والمجلس الذي لا يسمع فيه إلا القبيح ، ولا يفعل فيه إلا المحذور فأهله هالكون .

٢٩٩ — ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام : « إِنَّ ابْرَاهِيمَ أَبْنِي مَاتَ فِي النَّدْيِ وَإِنَّ لَهُ لَطِطْرَيْنِ يُكْمَلَانِ رِضَاعَهُ فِي الْجَنَّةِ » .

فقوله عليه الصلاة والسلام مات في الثدي مجاز . والمراد أن الموت أصابه وهو يرضع ، فكأنه عليه الصلاة والسلام قال : مات وهو في الرضاع ، وذلك كقول القائل : ابن فلان في الصياغة ، أو ولد فلان في التجارة إذا أراد أنه قد دفع إلى من يعلمه هذه الصناعة ، فهو مقصور على ذلك ، ومأخوذه ولم يفرغ بعد من تعلمه ، ومثل ذلك أيضاً قولهم ابن فلان بعد في أبجد أو في ألف باتائنا: أى هو بعد في تعلمه هذه الحروف المخصوصة ، ولم يستكمل علمها فينتقل عنها إلى غيرها ، ولا بد من حمل الكلام على تقدير مضاف محذوف ، وهو رضاع الثدي ، فيكون المعنى صحيحاً ، فكأنه عليه الصلاة والسلام قال : مات وهو في رضاع الثدي ، ولذلك نظائر كثيرة ، وأمثال مشهورة ، وبابه ما جاء في التنزيل من قوله تعالى - وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ - والمراد أهل القرية ، وما في معنى ذلك .

٣٠٠ - ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام : « إِذَا وَقَعَتِ الْحُدُودُ وَصُرِفَتِ الطُّرُقُ فَلَا شُفْعَةَ » ، وهذا القول مجاز والمراد وحيزت الطرق فخرجت عن حال الاشتراك ، وطريقة الاختلاط فشبه عليه الصلاة والسلام ذلك بصرف الإنسان عن وجهته وعكسه عن جهته ، وهذا الخبر مما يستشهد به من قال : إن الشفعة إنما تجب للشريك المخالط دون الجار المجاور ، وقال أهل العراق : إنما تجب للشريك المخالط ثم للجار المجاور .

٣٠١ - ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام : « وَسَيَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ يُثَقِّفُونَ الْقُرْآنَ كَمَا يُثَقِّفُ الْقِدْحُ » في حديث طويل أخرجه

مُخَرَّج التَّمِّ لِأَهْلِ ذَلِكَ الزَّمَانِ ، وَهَذِهِ اسْتِمَارَةٌ ، وَلِإِمْرَادِ أَنَّهُمْ يُعْنَوْنَ بِإِصْلَاحِ أَلْفَافِ الْقُرْآنِ حَتَّى تَقُومَ عَلَى الْمُنْهَاجِ ، وَتَقُومَ بَعْدَ الْإِعْوَاجِ فَتَكُونُ كَالسَّهْمِ الْمُتَمِّفِ الَّذِي يَسْرِعُ فِي الْإِنْبِاطِ ، وَيُقَرِّطُ فِي الْأَغْرَاضِ ^(١) وَلَا يَتَدَرُّونَ مَا وَرَاءَ تِلْكَ الْأَلْفَافِ مِنْ حُكْمٍ وَاجِبٍ ، وَأَمْرٍ لَازِمٍ ، وَفَرْضٍ مُتَعَيِّنٍ ، وَحَقٍّ مُبَيَّنٍّ

٣٠٢ — وَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فِي كَلَامٍ أُطْلِقَ الشُّرْبُ فِي الْأَوْعِيَةِ بَعْدَ أَنْ كَانَ حَظَرُهُ : « وَنَهَيْتُكُمْ عَنِ الشُّرْبِ فِي الْأَوْعِيَةِ فَأَشْرَبُوا مَا شِئْتُمْ إِلَّا مَنْ أَوْكَى سِقَاءَهُ عَلَى إِيْثْمٍ » . وَهَذَا الْقَوْلُ مُجَازٌ . وَلِإِمْرَادِ إِطْلَاقِ الشُّرْبِ فِي الْأَوْعِيَةِ الَّتِي وَقَعَ النَّهْيُ عَنْهَا كَالِدُّبَاءِ ^(٢) وَالْحَنْتَمِ وَالنَّقِيرِ وَالْمَزَقَةِ إِذَا كَانَ مَا فِيهَا مِنَ الْأَشْرِبَةِ الْمَطْلُوقَةِ غَيْرَ الْمَنْعُوعَةِ وَالْمُبَاحَةِ غَيْرَ الْمَحْظُورَةِ ، وَمَوْضِعُ الْمَجَازِ قَوْلُهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ : إِلَّا مَنْ أَوْكَى سِقَاءَهُ عَلَى إِيْثْمٍ . يَقُولُ : إِلَّا مَنْ رَبَّطَ سِقَاءَهُ عَلَى مَشْرُوبٍ مُحَرَّمٍ فَإِنَّ ذَلِكَ خَارِجٌ مِنْ بَابِ الْإِطْلَاقِ وَالْإِبَاحَةِ ، وَدَاخِلٌ فِي بَابِ الْحَظَرِ وَالْكَرَاهَةِ ، وَأَرَادَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ إِلَّا مَنْ أَوْكَى سِقَاءَهُ عَلَى مَشْرُوبٍ يُوْدِي إِلَى الْإِيْثْمِ ، فَأَقَامَ الْإِيْثْمَ مَقَامَهُ لِأَنَّهُ عَاقِبَةُ أَمْرِهِ وَوَبَالَ فَعْلُهُ ^(٣)

(١) أَنْبَضَ قَوْسَهُ : جَعَلَهَا تَصَوَّتْ بِتَحْرِيكِ وَتَرْهَأِ . قَرَّطَ أَصَابَ الْفَرَطَاسَ . وَهُوَ كُلُّ أَدِيمٍ تَنْصَبُ لِلنِّضَالِ .

(٢) الدُّبَاءُ : الْفَرْعُ . الْحَنْتَمُ : جَرَارٌ مَدْهُونَةٌ خَضِرٌ . النَّقِيرُ : أَصْلُ النَّخْلَةِ يَنْقَرُ وَسَطُهُ . الْمَزَقَةُ : الْمَطْلِيُّ بِالْمَزَقَةِ ، وَهُوَ نَوْعٌ مِنَ الْقَارِ .

(٣) كَانَ الْعَرَبُ يَنْتَبِذُونَ فِي هَذِهِ الْأَوْعِيَةِ فَيَشْتَدُّ النَّبِيْذُ فِيهَا ، فَلَمَّا نَهَى النَّبِيُّ عَنْ شُرْبِ النَّبِيْذِ وَحَرَمَهُ حَرَّمَ اسْتِعْمَالَ هَذِهِ الْأَوْعِيَةِ ثُمَّ عَادَ فِي هَذَا الْحَدِيثِ فَأَحْلَلَ اسْتِعْمَالَهَا مَا دَامَ الشَّرَابُ الَّذِي فِيهَا غَيْرَ مُحَرَّمٍ .

٣٠٣ — ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام : « حُفَّتِ الْجَنَّةُ بِالْمُكَارِهِ وَحُفَّتِ النَّارُ بِالشَّهَوَاتِ » . وهذا القول مجاز ، والمراد أن جميع الأفعال التي توصل إلى الجنة يتجشم فعلها على الكره والمشقة ، لأن طريقها وعُرٌّ ، ومذاقها مُرٌّ . فلما كانت الطرق المُقْضِيَّة إلى الجنة كلها كما ذكرنا شاقة المسالك صعبة على السالك حسن أن يقال : الجنة حُفَّتْ بِالمُكَارِهِ على طريق المجاز ، وسعة الكلام ، ولما كانت الأفعال المُقْضِيَّة إلى دخول النار في الأغلب الأكثر كثيرة الملاذ ملائمة للطباع لا تأتي من طريق مشقة ولا يُقَرَّع لها باب كُلفه ، حسن أن يقال إن النار حُفَّتْ بِالشَّهَوَاتِ على طريق الاتساع والمجاز .

٣٠٤ — ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام « وقد سئل عن رجل كانت تحته امرأة فطلقها ثلاثاً ، فزوّجت بعده رجلاً فطلقها قبل أن يدخل بها هل تحلّ لزوجها الأول ؟ فقال عليه الصلاة والسلام : لَا حَتَّى يَكُونَ الْآخِرُ قَدْ ذَاقَ مِنْ عُسَيْلَتِهَا ، وَذَاقَتْ مِنْ عُسَيْلَتِهِ » . وهذه استعارة كأنه عليه الصلاة والسلام كنى عن حلاوة الجماع بحلاوة العسل وكأنه يُخَبِّرُ المرأة ويُخَبِّرُ الرجل كالعسلة المستودعة في ظرفها فلا يصح الحكم عليها إلا بعد الذوق منها . وجاء عليه الصلاة والسلام باسم العسلة مصغراً لسرطيف في هذا المعنى ، وهو أنه أراد فعل الجماع دفعة واحدة وهو ما تحلّ المرأة به للزوج الأول ، فجعل ذلك بمنزلة الذواق القابل من العسلة من غير استكثار منها ولا معاودة لأكلها فأوقع التصغير على الاسم ، وهو

في الحقيقة للفعل وذلك بالعكس من التصغير في البيت المشهور وهو من أبيات الكتاب وأنشدناه الشيخان أبو الفتح عثمان بن جني وأبو الحسن علي بن عيسى الرِّبَعِيُّ^(١) وذلك قول الشاعر :

يَا مَأْمُوحَ غَزَلْنَا شَدَنَّا لَنَا مِنْ هَاؤُلِيَاءِ تُكَنَّ الضَّالِّ وَالسَّامِرِ
فأوقع الشاعر التصغير على الفعل في الظاهر وذلك غير جائز وإنما أراد به على الحقيقة تصغيراً لاسم المصدر الذي هو الملاحه، فهذا الشاعر كما ترى صغر الفعل وأراد الاسم، وهو عليه الصلاة والسلام في الخبر صغر الاسم وأراد الفعل^(٢)

٣٠٥ - ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام : « لَا يَتَطَهَّرُ الرَّجُلُ فَيُحْسِنُ طَهْرَهُ ، ثُمَّ يَأْتِي الْجُمُعَةَ فَيُنْصِتُ حَتَّى يَقْضِيَ الْإِمَامُ صَلَاتَهُ إِلَّا كَانَ ذَلِكَ كَفَّارَةً لَهُ مِمَّا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجُمُعَةِ الْمُقْبِلَةِ ، مَا أُجْتَنِبَ

(١) الربيعي (يفتح الراء والباء ثم عين مكسورة وياء مشددة) نسبة إلى ربيعة وهي إحدى قبائل العرب . كان نحويًا من أكابر النحويين شرح كتاب سيبويه ثم غسله على أثر جداله غضب فيه وقيل : أعلم أولاد البغايين النحوي ؟ وكان صديقاً لابن جني وكان بعقله دخل توفي سنة ٤٣٥ هـ .

(٢) لنا في هذا الحديث فهم لم نجد أحداً قال به ولكننا نجد اللغة تساعدنا عليه . وذلك أن العسلة هي القضب . ومنها ذكرت كتب اللغة أن العسلة (كـ كفسه) . نقضب الفيل والفحل . وعلى ذلك أتى المثل المشهور ، وهو : ما أعرف لفلان مضرب عدله ، كأن القائل يريد أنه لا يعرف له أما لأن مضرب العسلة هو الرحم أرادوا بذلك أنه متناه في ضياع النسب فلم يأتف أن يجهل أبوه حتى جهلت أمه . ويكون نصغير العسلة في الحديث للتقليل على ما ذكر المؤلف وعلى ذلك يكون الكلام وارداً على الحقيقة ، وليس ذلك بنافس قدره في البلاغة .

الْمُقْتَلَةَ» ، فقوله عليه الصلاة والسلام ما اجتنب المقتلة مجاز ، والمراد ما لم يواقع الخطيئة الكبيرة التي تكون سبباً لهلاكه ، وطريقاً إلى بواره ، فشبها عليه الصلاة والسلام بالمقتل من مقاتل الإنسان الذي إذا أُتِيَ منه فقد أُتِيَ عليه ، وإنما أنت عليه الصلاة والسلام المقتل لأنه جعله في هذا الموضع عبارة عن الخطيئة ، وهي مؤنة فأنه حملاً على المعنى ، ولذلك في كلامهم نظائر كثيرة .

٣٠٦ — ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام : « إِنَّهُ لَيُغَانُ عَلَى قَلْبِي حَتَّى أَسْتَغْفِرَ اللَّهَ مِائَةَ مَرَّةٍ » . وهذا القول مجاز ، والمراد أن الغم يتغشى قلبه عليه الصلاة والسلام حتى يستكشف غمته . ويستفرج كُرْبته بالاستغفار ، فشبه ما تغشى قلبه من ذلك بغواشى الغيم التي تستر الشمس ، وتجلل الأفق ، والغيم والغين اسمان للسحاب . وسواء قال : يغان على قلبي أو قال يُغَام على قلبي

٣٠٧ — ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام : « الْقُلُوبُ أَوْعِيَةٌ بَعْضُهَا أَوْعَى مِنْ بَعْضٍ » ، وهذه استعارة . والمراد تشبيه القلوب بالأوعية ، وهي الظروف والعياب التي تحوز فيها الأمتعة وغيرها من الأشياء المحفوظة ، وهي كالآنية لا يداع الأشياء المائعة إلا أن الأوعية تختص بالجامدات كما أن الآنية تختص بالمائعات ، فالقلب من حيث حفظ ووعى كالوعاء من حيث جمع وأوعى ، وربما نسب هذا الكلام إلى أمير

المؤمنين عليه السلام على خلاف في لفظه ، وقد ذكرناه في جملة كلامه
لكُمَيْل بن زياد النَّخَعِيّ في كتاب نهج البلاغة .

٣٠٨ — ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام « مَا يُخْرِجُ
رَجُلٌ شَيْئًا مِنَ الصَّدَقَةِ حَتَّى يَقُلَ عَنْهُ لِحَيِّ سَبْعِينَ شَيْطَانًا » ، وهذا
القول مجاز ، والمراد تعظيم الأمر في مجاهدة الإنسان نفسه عند إخراج
الصدقة لشدة تتبع النفس لها ، وكثرة الصوارف عنها ، ووساوس الشيطان
بما يقتضى الامتناع منها ، فإذا غلب الإنسان بإخراجها نوازع جنانه ، ونوازع
شيطانه كان كأنه قد افتلها من أيدي الجاذبين ، وقلَّ عنها لحي الشياطين
وإنما ذكر عليه الصلاة والسلام هذا العدد الخصوص من الشياطين وهو
السبعون على طريقة للعرب مشهورة في ذكر ذلك إذا أرادت التكثير ،
وقد ورد التنزيل بسلوك هذا النهج ، والوقوف عند هذا القدر . قال
سبحانه : « أَسْتَغْفِرُ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرُ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً
 فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ » ، وقال تعالى : « ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ
 ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ » .

٣٠٩ — ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام : « يَدُ اللَّهِ مَعَ
الْقَاضِي حِينَ يَقْضِي » ، وَيَدُ اللَّهِ مَعَ الْقَاسِمِ حِينَ يَقْسِمُ » ، وهذا القول
مجاز . والمراد أن علم الله سبحانه ومعرفة لا يغيبان عن الحاكم إذا حكم
وعن القاسم إذا قسم فيعلم سبحانه عدل القاضي إذا تحرى العدل ، وظلمه
إذا اعتمد الظلم ، ولا يخفى عليه حيف القاسم وميله أو إنصافه وعدله

وذلك كما يقول القائل : يد فلان مع فلان إذا كان مشاركاً له في ولاية
 يليها أو مشارفاله في أمور يضيها . وفي هذا القول تحوير شديد للحاكم
 والقاسم من مفارقتهما مقام الحق ومقابل الصدق، وحث لهما على سلوك النهج
 الأبلج ، وتجنب الطريق الأعوج . ونظير هذا الخبر قوله عليه الصلاة
 والسلام : « إِنَّ اللَّهَ عِنْدَ لِسَانِ كُلِّ قَائِلٍ » ، والمراد أنه تعالى يحيط
 علماً بمقاصد كلامه ومصارف لسانه كما يعلم ذلك منه من سمع حوارته وشهد
 خطابه . ومثل ذلك أيضاً قوله عليه الصلاة والسلام وأراد الله سبحانه :
 « إِنَّهُ أَقْرَبُ إِلَيْكُمْ مِنْ رُيُوسِ رِكَابِكُمْ » .

٣١٠ — ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام لعبد الله بن زيد
 ابن عبد ربّه الأنصاري وقد رأى الأذان في نومه : « أَلْقِهِ عَلَى بِلَالٍ فَإِنَّهُ
 أَنْدَى مِنْكَ صَوْتًا » ، وهذا القول مجاز ، والمراد أنه أمدّ صوتاً منك
 تشبهاً بالشئ الذي يمتد وينبسط وهو بالضد من اليابس الذي
 الذي يجتمع وينقبض وعلى ذلك قول الشاعر :

فَقُلْتُ أَدْعُوْ وَأَدْعُوْ إِنْ أَنْدَى لِيَصَوْتُ أَنْ يُنَادِيَ دَاعِيَانِ

٣١١ — ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام : « مَنْ قَالَ حِينَ
 يُصْبِحُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ ، يُحْيِي
 وَيُمِيتُ ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ عَشْرَ مَرَّاتٍ كَتَبَ اللَّهُ لَهُ بِكُلِّ
 وَاحِدَةٍ قَالَهَا عَشْرَ حَسَنَاتٍ ، وَحُطَّ عَنْهُ بِهَا عَشْرَ سَيِّئَاتٍ ، وَرَفَعَهُ بِهَا
 عَشْرَ دَرَجَاتٍ ، وَكُنَّ لَهُ مَسَلَحَةً مِنْ أَوَّلِ نَهَارِهِ إِلَى آخِرِهِ مَا لَمْ يَعْمَلْ

يَوْمَئِذٍ عَمَلًا يَقْهَرُهُنَّ» ، وفي هذا الكلام استعارتان [إحداهما] قوله عليه الصلاة والسلام : وكنّ له مسلحة من أول نهاره إلى آخره . والمراد بالمسلحة هاهنا مجتمع السلاح الكثير، يقال هاهنا مسلحة للسلطان ، ويراد به الموضع الذي فيه جماعة من أعوانه قد كثرت أسلحتهم ، واشتدت شوكتهم ، كما يقال مأسدة للأرض الكثيرة الأسد ، ومكناة للأرض الكثيرة الكمأة ومفعاة ونحوها للأرض الكثيرة الأفاعي والحيات ونظائر ذلك كثيرة ، فجعل عليه الصلاة والسلام هذه الكلمات لقائلهن بمنزلة السلاح الكثير الذي يدفع عنه المخاوف ، ويرد الأيدي البواطش [والاستعارة الأخرى] قوله عليه الصلاة والسلام : مالم يعمل يومئذ عملاً يَقْهَرُهُنَّ ، والمراد مالم يعمل من الأعمال السيئة في يومه ما يغلب إثم أجر هذه الكلمات إذا قالها على الوجه المحدود فيها ، وينبغي أن يكون المراد بذلك الذنوب الصغار دون الذنوب الكبار لأن عقاب الكبيرة يعظم فيكون كالتقاهر لتلك الحسنات التي ذكرها ، والدرجات التي أشار إليها ولما أقام عليه الصلاة والسلام تلك الكلمات مقام السلاح لقائلها جعل ما في مقابلتها من إثم مؤلغ^(١) ، وذنوب موبق بمنزلة القاهر لها والتالم فيها ملاحظة بين صفحات الألفاظ ومزاوجة بين فرائد الكلام ، وهذا موضع الحجاز الثاني الذي أفضنا في ذكره ، وكشفنا عن سره

(١) إثم مؤلغ : أى موجب للذم والشم ، ومنه قولهم : رجل مستولغ : أى مايبالى أن يذم ويشتم

٣١٢ — ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام : لما أمر برجم اليهودي الذي زنا بعد أن وافق اليهود على أن حد الزاني المُحصنَ عندهم الرّجمُ دون الجلد ، وكانوا أنكروا ذلك ثم أقرّوا به . فقال عليه الصلاة والسلام : « اللَّهُمَّ إِنِّي أَوَّلُ مَنْ أَحْيَا أَمْرَكَ إِذَا أَمَاتُوهُ » . وهذه استعارة ، والمراد أني أول من أظهر أمرك إذ ستروه وأذاعه إذ كتموه . فأقام عليه الصلاة والسلام الإظهار مقام الإحياء والإخفاء مقام الإماتة ، لأن الحى ظاهر منتشر والميت خاف مستتر . وقد مضى الكلام على نظير هذا الخبى فيما تقدم من هذا الكلام .

٣١٣ — ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام ، فيما رواه شَدَّادُ^(١) بن الهَادِ قال « سجد رسول الله صلى الله عليه وآله سجدة أطال فيها فقال الناس عند انقضاء الصلاة يا رسول الله إنك سجدت بين ظهرانيّ صلاتك سجدة أطلتها حتى ظننا أنه قد حدث أمر أو أنه أتاك وحى ، فقال عليه الصلاة والسلام : كُلُّ ذَلِكَ لَمْ يَكُنْ وَلَكِنَّ ابْنِي هَذَا ارْتَحَلَنِي فَكَرِهْتُ أَنْ أُعْجِلَهُ حَتَّى يَقْضِيَ حَاجَتَهُ » ، وكان الحسن أو الحسين عليهما السلام قد جاء النبي عليه الصلاة والسلام في سجدة فامتطى ظهره وهذا الحديث مشهور ، وهو حجة لمن يجوز انتظار الإمام بركوعه إذا سمع خفق النعال حتى يدخل الواردون معه في الصلاة وهو قول الشافعى ، وقد

(١) شداد بن الهاد ، واسم الهاد عمرو بن أسامة : صحابي نزل الكوفة وعنه

كرهه أهل العراق ، ولا خلاف في أن الإمام يجوز له أن ينتظر حضور الجماعة إذا لم يخش فوت الوقت قبل أن يدخل في الصلاة ، فانتظاره عليه الصلاة والسلام ابنه حتى يقضى منه حاجته يدل على أن من فعل هذا الفعل وأشباهه لا يخرج به من الصلاة ، وقوله عليه الصلاة والسلام : « ولكنَّ ابني هذا ارتحلني » استعارة ، والمراد أنه جعل ظهره كالراحلة له والمطية التي تحمله ، ويقال من ذلك : رَحَلْتُ الناقةَ وارتحلتم إذا امتطيتها لتسيورها ، وعلى ذلك قال الشاعر :

وَلَكِنْ رَحَلْنَاهَا نَفُوسًا كَرِيمَةً تَحْمِلُ مَا لَا يُسْتَطَاعُ فَتَحْمِلُ

ألا ترى أن الشاعر لما جعل هذه النفوس بمنزلة المطايا المذلة ، والظهور المحملة استحسَن أن يقول رحانها مقابلة بين أجزاء اللفظ وملاحظة بين المعجز والصـدر . وليس هناك على الحقيقة ظهور تحمل الرجال وتحمل الأنفال ، وإنما أراد صفة تلك النفوس بالصبر على عَضِّ البلاء ، وعَرَكِ الأدواء ، ونوازل القدر ، وجواذب الغير .

٣١٤ — ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام في كلام كلم به بعض أصحابه : « لَنْ تَبْرَحُوا مُبْتَلَيْنَ مَا كُنْتُ بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ ، فَإِذَا أَنَا هَلَكْتُ أَقْبَلْتُ إِلَيْكُمْ الدُّنْيَا وَأَقْبَلْتُمْ إِلَيْهَا وَاضْطَمَّتْكُمْ ^(١) الدُّنْيَا

(١) اضطمه : جمعه إلى نفسه .

اضْطَمَامَ الْوَالِدَةِ وَلَدَهَا » وهذه استعارة . والمراد أن الدنيا بعده عليه الصلاة والسلام تكثر فوائدها ، وتتصل مراغدها ، فشبه نفعها لأهلها بحفاوة الوالدة بولدها إذ كانت ترضعه دَرَّها ، وتمهده حبرها ، وتشبل عليه جُهْدَهَا ، وذلك كقولهم : قد ضمَّ فلان فلانا إلى كنفه ، يريدون أنه قد قام بأمره وأغناه عن غيره .

٣١٥ — ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام : « لَا تَعَادُوا الْأَيَّامَ فَتَعَادِيَكُمْ » . وهذا القول مجاز لأن الأيام على الحقيقة لا يصح أن تعادى ولا تعادى ، وإنما المراد لا تخصوا بعض الأيام بالكراهية له والتطير به ، فربما اتفق عليكم فيه من طوارق القدر ، وبواطن الغيب ما يقوى في ظنونكم أنه يختص ذلك اليوم دون غيره من الأيام ، وليس كما ظننتم لأن الأيام تمضي في ذلك على عاداتها ، وتجرى إلى غاياتها ، فتكونون كأنكم قد عاديتم ذلك اليوم باستشعاركم وصول الضرر إليكم منه ، ويكون ذلك اليوم كأنه قد عاداكم باتفاق المضرة عليكم فيه ، وخرج القول مخرج المجاز والاتساع ، ومناديج^(١) الكلام .

بسم الله الرحمن الرحيم

٣١٦ — ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام وقد سمع أعرابياً يقول في مسجده صلى الله عليه وآله بعقب صلاة صلاتها : اللهم ارحمني

(١) المندوحة : المنسم . فناديج الكلام : مجالاته المنسمة وطرقه المنسبة .

وَمُحَمَّدًا ، ولا ترحم معنا أحداً ، فقال عليه الصلاة والسلام : « لَقَدْ تَحَجَّرَتْ وَاسِعًا » ، وهذه استعارة . وأصل التحجر أن يختط الإنسان خُطَّةً ، ويضرب عليها سياجاً ليحوزها به ويُعلم أنها في قبضته . ومنه الحجرة ، وهو البيت المضروب ، وجعلت بعد ذلك أسماً لبناء مخصوص وجمعها حُجَرٌ ومن ذلك قولهم : حَجَرَ الحاكم على فلان إذا منعه من التصرف في ماله ، فكأنه ضرب عليه حظاًراً^(١) يحبس فيه ويقصر خطوه دونه ، فأراد عليه الصلاة والسلام بقوله للأعرابي : « لَقَدْ تَحَجَّرَتْ وَاسِعًا » تشبيهه بمن ضرب سياجه على قاعة واسعة لحازها ، ومنع غيره من المشاركة فيها لأنه دعا ربه أن يرحم النبي عليه الصلاة والسلام ويرحمه معه خصوصاً ، وحَظَرَ رحمته سبحانه على الناس عموماً ، وكان ذلك تحجراً على الرحمة ، وسيطرة على النعمة ، وخلافاً لقوله تعالى : « وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ » ؛ وفي رواية أخرى أنه عليه الصلاة والسلام قال لما سمع قول الأعرابي : « مَنْ هَذَا لَقَدْ اخْتَضَرَ واسِعًا » . والمعنى في اللفظين واحد لأن الأول مأخوذ من الحجرة ، والثاني مأخوذ من الحظيرة ، وقد يجوز أن يكون المراد لقد ضيقُ أمراً واسعاً في الجملة ، وقد يجوز أن يكون لقد وسع على نفسه فضيق على غيره .

٣١٧ — ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام : « مَنْ أَبْطَأَ بِهِ

(١) الحظار (ككتاب) الحائط ، وما يعمل للإبل من شجر ليقىها البرد .

عَمَلُهُ لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ» ، وهذه استعارة والمراد أن من تأخر بسوء عمله عن غايات الفضل ومواقف الفخر لم يتقدم إليها بشرف نسبه وكريم حسبه ، فجعل عليه الصلاة والسلام الإبطاء والإسراع مكان التأخر والتقدم ، لأن المبطل متأخر والمسرع متقدم وأضاهما إلى العمل والنسب وهما في الحقيقة لصاحبهما لا لهما ، ولكن العمل والنسب لما كانا سبب الإبطاء والإسراع حسن أن يضاف ذلك إليهما على طريق المجاز والانتساع .

٣١٨ — ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام : « رَحِمَ اللَّهُ حَمِيراً أَفْوَاهُهُمْ سَلَامٌ وَأَيْدِيهِمْ طَعَامٌ أَهْلٌ أَمْنٌ وَإِيمَانٌ » ، وهذا القول مجاز . والمراد للمبالغة في صفتهم بإفشاء السلام وإطعام الطعام ، فلما كثرت لفظ السلام من أفواههم ، وبذل الطعام من أيديهم جاز على طريق المبالغة أن يقول : أفواههم سلام ، وأيديهم طعام كما يقول القائل : ما فلان إلا أكل ونوم ، وما فلان إلا صلاة وصوم إذا كثرت الأكل والنوم من الأول ، والصلاة والصوم من الآخر وعلى هذا قول الخنساء في صفة الظبية الفاقدة ولدها :

تَرْتَاعُ مَا نَسِيتَ حَتَّى إِذَا ذَكَرْتُ فَأَيْمًا هِيَ إِقْبَالٌ وَإِدْبَارُ
تريد صفتها بكثرة الإقبال والإدبار والتحمل والاضطراب . ومن هذا الباب أيضاً قولهم : فلان عدل ، فوصفوه بالمصدر الذي فعله عدل يَعْدِلْ عَدْلًا لكثرة وقوعه منه وتظاهره به ، ونظائر ذلك كثيرة .

٣١٩ — ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام ، ويعنى الموت
 « أَكْثَرُوا ذِكْرَ هَادِمِ اللَّذَاتِ » ، وهذه استعارة ، والمراد أن اللذات
 بالموت تتلاشى وتبطل وتمحق ، وتضمحل كما يضمحل البناء بهدمه
 ويبطل بتعفية رسمه ، والهدم في الأصل هو الإبطال للشيء ، فإذا قالوا :
 هدم فلان البناء ، فإنما يريدون أنه أزاله وأبطله ، ومن ذلك الحديث
 المروى عنه عليه الصلاة والسلام للأنصار لیسلة العقبة بعد مراجعة كلام
 طويل : « الدَّمُ الدَّمُ وَالدَّمُ الدَّمُ » . وأصبح ما قيل في تفسير ذلك أنه
 عليه الصلاة والسلام أراد إنكم إن طلبتم بدم طلبته وإن هدمتموه هدمته ،
 وأقام الهدم هاهنا مقام الطل ، يقول إن طَلَّتُمُوهُ طَلَّتْهُ ، بمعنى إن
 أبطلتموه أبطلته ، وقال يعقوب بن السكيت في كتاب الألفاظ : يقال
 دماؤهم هَدَمٌ بينهم : أى هَدَرَ . ويقال هَدَمَ بتحرك الدال أيضا .

٣٢٠ — ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام في ذمة أقوام من
 المناققين : « حُسْبٌ بِاللَّيْلِ جُدْرٌ بِالنَّهَارِ » ، في كلام طويل وهذه
 استعارة . والمراد أنهم ينامون الليل كله من غير قيام لصلاة ، ولا استيقاظ
 لمناجاة ، فهم كالخشب الواهية التي تدغم نثلا تنهافت ، وتُسَكُّ
 لنثلا تتساقط .

٣٢١ — ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام : « إِنَّ الْمُؤْمِنَ
 إِذَا أَذْنَبَ كَانَ الذَّنْبُ نَكْنَةً سَوْدَاءَ فِي قَلْبِهِ ، فَإِنْ تَابَ وَتَزَعَّ واستغفرَ

صُقِلَ قَلْبُهُ ، فَإِنْ زَادَ زَادَتْ حَتَّى تَغْمُرَ قَلْبَهُ » ، فقوله عليه الصلاة والسلام : « صقل قلبه » استعارة ، والمراد إزاله تلك النكتة السوداء عن قلبه ، ولكنها لما كانت بمنزلة الدَرَن في الثوب أو الطَّبَع^(١) على السيف حسن أن يقال : صقل قلبه منها كما يُصْقَل السيف من طَبَعه ، أو يغسل الثوب من دَرَنه .

٣٢٢ — ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام في كلام طويل : « وَلَا يَشْرَبُ أَحَدُكُمْ الْخُدُودَ وَهُوَ حِينَ يَشْرَبُهَا مُؤْمِنٌ » ، وهذا القول مجاز ، والمراد بالحدود هاهنا الخمر ، وإنما عبر عليه الصلاة والسلام بهذا الاسم عنها ، لأن إقامة الحدود تستحق بشرها ، وليس هاهنا معصية ربما اجتمعت في الإقدام عليها حدود كثيرة غيرها ، لأن السكران في الأكثر يقدم على استحلال الفروج ، واستهلاك النفوس ، وسب الأعراض ، وقذف المَخَصَّنات ، فيجتمع عليه حد السكر ، وحد القتل ، وحد الزنا ، وحد القذف ؛ ولذلك قال أمير المؤمنين عليه السلام وقد سأله عمر بن الخطاب عن حد السكران ، فقال : أقم عليه حد المفترى ، لأن الشارب إذا سكر لَفَا^(٢) ، وإذا لفا افترى

٣٢٣ — ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام في أطفال المسلمين : « هُمْ دَعَامِيصُ الْجَنَّةِ » وهذه استعارة ، والدُّعْمُوص : دويبة صغيرة تكون

(١) الدرن : الوسخ . الطبع (بالكسر أو التحريك) : الصدا .

(٢) لفا يلفو : قال اللفو ، وهو الباطل .

في مياه العميون . يقال : إنها ضفدع ، فكأنه عليه الصلاة والسلام شبههم
للعصم في أنهار الجنة ومياهها بالدعاميص التي تعوم في قرارات الغدران
ورجاءها^(١)

٣٢٤ — ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام : « إذا أُضِيعَتِ
الْأَمَانَةُ فانتظروا السَّاعَةَ . قيل : وما إضاعتها يا رسول الله ؟ قال : إذا
تَوَسَّدَ الْأَمْرُ إِلَى غَيْرِ أَهْلِهِ » وفي رواية أخرى : « إذا وُسِّدَ الْأَمْرُ إِلَى
غَيْرِ أَهْلِهِ » وهذه استعارة ، والمراد إذا استند الأمر إلى غير أهله فأقام
الوساد هاهنا مقام السناد ، لأن المتوسد للشيء مستند إليه ومعتمد ، وإنما
جعل عليه الصلاة والسلام الأمر مستنداً لهم ، لأنهم القائمون بأحكامه ،
والمقيمون لأعلامه ، فهم له كالسك والسناد ، والدعائم والعماد ، ويكون
المراد بقوله عليه الصلاة والسلام على الرواية الأخرى : « إذا وُسِّدَ الْأَمْرُ
إِلَى غَيْرِ أَهْلِهِ » على فعل مالم يسم فاعله .

٣٢٥ — ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام : « حَسُّ لَيْسَ
لَهُنَّ كَفَارَةٌ : الشِّرْكُ بِاللَّهِ سُبْحَانَهُ ، وَقَتْلُ نَفْسٍ بِغَيْرِ حَقٍّ ، أَوْ بَهْتُ
مُؤْمِنٍ ، أَوْ الْفِرَارُ يَوْمَ الزَّحْفِ ، أَوْ يَمِينُ صَابِرَةٍ يُقَتَّلُ بِهَا مَالٌ بِغَيْرِ
حَقٍّ » وهذا مجاز ، والمراد أويمن مصبورة : أي مكرهة على الكذب
من قوتهم : فلان مصبور على السيف : أي محبوس على القتل مع إكراه

(١) جام الغدران : ما جمع فيها من ماء .

عليه واضطرار إليه . ومن ذلك الخبر المروى أنه عليه الصلاة والسلام نهى عن صَبْر البهائم ، وصَبْرها حبسها ، وترك تغذيتها إلى أن تموت مكرهة على تلك الحال المكروهة ، ومن ذلك قولهم : قُتِلَ فلانٌ صَبْرًا ، فكأنه عليه الصلاة والسلام جعل تلك اليمين الكاذبة لبعدها عن الصدق ومخالفتها جهة الحق بمنزلة المكروهة على ركوب تلك المحجة الضلّاء^(١) والوقوف عند تلك السوءة السوءاء ، فهي كالمصبورة على السيف ، والمحمولة على الخسف ؛ ومما يقوى ما قلنا رواية عُمَران بن حُصَيْن^(٢) الخَزَاعِيّ لهذا الخبر قال : قال صلى الله عليه وآله : « من حلف بيمين كاذبة مَصْبُورَةً فليتبوأ مقعده من النار » ، فقد صرح عليه الصلاة والسلام في هذه الرواية بأن اليمين الصابرة في الرواية الأولى بمعنى المصبورة .

٣٢٦ - - ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام : « إِذَا دَخَلَ الْبَصْرُ فَلَا إِذْنَ » وهذه استعارة ، والمراد أن من استأذن على بيت فَوَجَّحَ فيه بَصْرَهُ قبل أن يُلِجَ فيه بدنه فقد بطل إذنه ، لأن الإذن إنما يكون من قبل أن يقع البصر على ما يشتمل عليه البيت ، فأما إذا كان ذلك فكأن المستأذن قد وصل قبل أن يؤذن له في الوصول ،

(١) المحجة : الطريق . الضلّاء : العوجة كالضلع ، قال في الأساس : وضع الشيء .

ضلعا : اعوج حتى صار كالضلع .

(٢) هو ابن عبيد بن خاف الخَزَاعِيّ أبو نَجِيد (بصيغة التصغير) أسلم أيام خبير ، له

مائة وثلاثون حديثا اتفق الشيخان « البخارى ومسلم » على ثمانية ، وانفرد

البخارى بأربعة ، ومسلم بتسعة ، وكان من علماء الصحابة ، وعنه أخذ ابنه .

ودخل قبل أن يؤمر بالدخول ، ويقوى ما قلناه من ذلك الخبر الآخر ، وهو قوله عليه الصلاة والسلام : « من اطلع من صير باب فقد دمر » ، ومعنى دمر : دخل ، والدامر : الداخل ، والصير هاهنا : الشق أو القرعة تكون بين البابين . ذكر ذلك أبو عبيد في غريب الحديث . وموضع المجاز من هذا الكلام تصييره عليه الصلاة والسلام البصر بمنزلة الداخل على القوم ، وإنما أراد عليه الصلاة والسلام رؤيته لهم ونفوذه إلى ما وراء بابهم .

٣٢٧ — ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام : « الجرسُ مِرْمَارُ الشَّيْطَانِ » وهذه استعارة ، وذلك أنه لما كان كل صوت مكروه ينسب إلى الشيطان ، كضروب الفناء ، وعويل النساء ، وكان صوت الجرس من الأصوات المكروهة بدليل قوله عليه الصلاة والسلام في الخبر الآخر : « لَا تَضْحَبُ الْمَلَانِكَةُ رُقَّةً ^(١) فِيهَا جَرَسٌ » حسن أن يضاف صوته إلى الشيطان على طريق المجاز والاتساع .

٣٢٨ — ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام : « إِنَّ الْمُؤْمِنَ لَيُنْضَى شَيْطَانُهُ كَمَا يُنْضَى أَحَدُكُمْ بِعَيْرِهِ فِي السَّفَرِ » وهذه استعارة ، والمراد أن المؤمن يصعب قياده على الشيطان فلا يصغى إلى وساوسه ، ولا يجعل له واجسه سبيلا إليه أعتصاما منه بدنه ، واستلاما ^(٢) عليه في

(١) الرقعة (مثلثة) : الجماعة .

(٢) يقال استلأم المحارب : إذا لبس لأمنه ، وهي سلاحه فالاستلأم مصدر ذلك الفعل

جُنَّةٌ يَقِينُهُ ، فشيطانه أبداً مكدود معه لطول منازعته القياد ومفالتته الزمام ، فشبهه عليه الصلاة والسلام لإتباعه الشيطان في الاحتجاز عن إضلاله ، والامتناع من أتباعه بالمنصبي بعيره في السفر ، إذا أطل شقته^(١) واستفرغ قوته . وحسن عريكته

٣٢٩ — ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام في كلام طويل : « لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَكْثُرَ الْمَالُ وَيَفِيضَ إِلَى أَنْ يَخْرُجَ الرَّجُلُ بِزَكَاةٍ مَالِهِ فَلَا يَجِدُ أَحَدًا يَقْبَلُهَا مِنْهُ » ، فقوله عليه الصلاة والسلام : « حتى يكثر المال ويفيض » استعارة ، كأنه شبهه بالماء الطامى الذى يفيض من قرارته ، ويسيح من كثرته . ونظير هذا الخبر ما روى من قوله عليه الصلاة والسلام في خبر آخر : « وَرُبَّ مُتَحَوِّضٍ فِي مَالِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ فِيمَا اشْتَهَتْ نَفْسُهُ ، لَهُ النَّارُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » كأنه عليه الصلاة والسلام جعل كثرة المال عند هذا الإنسان بمنزلة الغمرة الطامية والجمّة^(٢) الطافحة ، وجعل إنفاقه منه وتقلبه فيه بمنزلة الحوض في الجمام الغزار ، واللجج الغمار .

٣٣٠ — ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام : « إِنَّ لِلْمَسَاجِدِ أَوْتَادًا ، الْمَلَائِكَةُ جُلَسَاؤُهُمْ ، إِذَا غَابُوا افْتَقَدُوهُمْ ، وَإِنْ مَرَضُوا عَادُوهُمْ ، وَإِنْ كَانُوا فِي حَاجَةٍ أَعَانُوهُمْ » وهذه استعارة ، كأنه عليه الصلاة والسلام شبه المقيمين في المساجد ، والملازمين لها ، والمنقطعين إليها

(١) الشفة : السفر البعيد .

(٢) الجمّة (بالضم) : معظم الماء ، والجمع جمام .

بالأوتاد المضروبة فيها ، وذلك من التمثيلات العجيبة الواقعة موقعها والمقرطسة غرضها^(١) ، ويقال : فلان وتد المسجد ، وحمامة المسجد : إذا طالت ملازمته له وانقطاعه إليه ، وتشبيهه بالوتد في الملازمة أبلغ من تشبيهه بالحمامة ، لأن الحمامة تنتقل وتزول ، والوتد مقيم ولا يريم^(٢)

٣٣١ — ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام في حديث طويل : « ورجل تصدَّقَ بصدقةٍ أخفَّاهَا لَا تَعْلَمُ شِمَالَهُ مَا تُنفِقُ يَمِينُهُ » وهذا مجاز ، والمراد المبالغة في صفة بكتمان نفقته وإخفاء صدقته ، فإذا كانت شِمَالَهُ لَا تَعْلَمُ بِمَا تُنفِقُهُ يَمِينُهُ وَهِيَ سَرِيحَتُهَا^(٣) وقسيمتها وجارتها واصيقتها ، فأجدر ألا يعلم بذلك غيرها ممن شَطَّ داراً وبعد جواراً .

٣٣٢ — ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام وقد ذكر لوطاً عليه الصلاة والسلام ، وقوله لقومه : « لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةٌ أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ » . قال عليه الصلاة والسلام : « فَمَا بَعَثَ اللَّهُ بَعْدَهُ نَبِيًّا إِلَّا فِي ذِرْوَةِ قَوْمِهِ » وهذه استعارة ، والمراد فما بعث الله بعده نبياً إلا في أعلى شرف قومه لئلا يُغْمَضَ حَسَبُهُ وَيُرْدَرَى مَنْصِبُهُ ، فيكون ذلك منفراً عنه وموحشاً منه ، فشبه عليه الصلاة والسلام ذلك بذروة البعير

(١) قرطس : أصاب القرطاس ، وهو ما ينصب للرماية عليه ، وهو الغرض أيضا .

(٢) يقال ما يريم المكان أو من المكان بمعنى لا يبرحه إلى غيره .

(٣) السريحه : الشقة من الثوب فهي قطعة منه مجاورة لأجزائه وقسيمة لها ، فالمعطف عليها في كلام المؤلف للترادف .

وهي سَنَامه ، أو ذروة الجبل ، وهي رأسه ، ويقولون : فلان في الغوارب من قومه ، كما يقولون في الذُرَى من قومه ، فالغارب هاهنا كالذروة هناك . ويقولون أيضاً : هو في عُليا قَصْر قومه^(١) ، وفي رواية : عليا قومه إذا أرادوا هذا المعنى ، وذلك في أشعارهم وكلامهم أكثر من أن يستقصى ، وفي شعر يروى لأمير المؤمنين علي عليه السلام :

كانوا الذَّوَابَةَ من فِهْرٍ وَأَكْرَمَهَا حَيْثُ الْأُلُوفُ وَحَيْثُ الْفَرْعُ وَالْعَدَدُ
٢٣٣ — ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام : « لِكُلِّ شَيْءٍ

سَنَاءٌ وَسَنَامٌ الْقُرْآنِ سُورَةُ الْبَقَرَةِ ، وَمِنْهَا آيَةٌ هِيَ سَيِّدَةُ آيِ الْقُرْآنِ لَا تُقْرَأُ فِي بَيْتٍ فِيهِ الشَّيْطَانُ إِلَّا خَرَجَ مِنْهُ ، وَهِيَ آيَةُ الْكُرْسِيِّ » ، وفي رواية أخرى : « البقرة سَنَامُ الْقُرْآنِ وَذِرْوَتُهُ ، وَيَاسِينَ قَلْبُ الْقُرْآنِ » وفي هذا الكلام استعارات ثلاث : أولاهنَّ قوله عليه الصلاة والسلام : « وَسَنَامُ الْقُرْآنِ سُورَةُ الْبَقَرَةِ » . والمراد أنها أعلى القرآن وأشرفه كما أن أعلى ما في البعير سَنَامه وذِرْوَتُهُ . والكلام في هذا المعنى كالكلام على الخبر المذكور أمام^(٢) هذا الخبر ، لأن المراد بهما واحد ، والاستعارة

(١) القصر : البيت المبنى الحجر ، والمراد به العالي فهو يقول إنه في الحجرة العليا من ذلك البناء ، والكلام على سبيل المجاز ، شبه فيه مجد القوم بالقصر لما في كل من التوطد والتأمل . ولأن البيت يمنع سكانه ويحميهم ، وكذلك المجد يصون كرامتهم .

(٢) يريد الحديث السابق (فما بعث الله نبيا إلا في ذروة من قومه ولعله كان في

الثانية قوله عليه الصلاة والسلام : « ومنها آية هي سَيِّدَةُ آيِ الْقُرْآنِ » .
والمراد أنها تتقدم القرآن وتفضله ، كما أن السيد يتقدم على عشيرته ،
ويفضل أهل طبقة ، والاستعارة الثالثة قوله عليه الصلاة والسلام :
« يَاسِينَ قَلْبُ الْقُرْآنِ » . والمراد أنها خالصة ولُبابه كما أن قلب الشيء ،
صميمه ومصاصه ، ويقولون : فلان قلب بني فلان ، إذا كان في مقرِّ
صميمهم ، وفي مصحح أدبهم .

٣٣٤ - ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام في كلام
طويل : « أَيُّهَا النَّاسُ : مَا يَحْمِلُكُمْ عَلَى أَنْ تَتَتَابَعُوا فِي الْكَذِبِ كَمَا
يَتَتَابَعُ الْفَرَّاشُ فِي النَّارِ » وهذا القول مجاز ، والمراد يتسارعون إلى
قول الكذب تنهافاً فيه ومنازعة إليه ، فيكونون كالفراش المتساقط
في النار لأنه يلوذ بها وينازع إليها ، والتتابع : التواقع في الشيء المكروه^(١)
فلما كان الكذب كالمهواة والمزلة من حيث أدّى إلى المخرّاة والمذلة حسن
لذلك أن يجعل المتسرع إليه كالواقع فيهما والمرتكس في قعرهما ، وقد يجوز
أيضاً أن يكون المراد أن الكذب لما كان مفضياً إلى دخول النار جعل
المتسرع إليه كالمتهافت في النار . ويؤكد هذا الوجه تشبيه المتتابع في

صحف المؤلف في الصفحة المقابلة للصفحة التي فيها هذا الحديث ، قال
عنه إنه أمامه .

(١) التتابع (بياض مثناة بعد الألف) : الإسراع في الشر . هذا بعض معانيه في
القاموس المحيط ، وهو كما شرّحه المؤلف ، وقد وردت الكلمة في أصل الحديث
وفي كلام المؤلف بالباء الموحدة في النسخة الأصلية ، وذلك خطأ ظاهراً .

الكذب بالفراش المتساقط في النار ، ولذلك نظائر قد تقدم الكلام عليها في هذا الكتاب

٣٣٥ — ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام وقد ذكر عنه رجال من أصحابه يجتهدون في العبادة اجتهاداً شديداً ، فقال عليه الصلاة والسلام : « تِلْكَ ضَرَاوَةُ الْإِسْلَامِ وَلِكُلِّ شَيْءٍ ضَرَاوَةٌ وَشِرَّةٌ ، وَلِكُلِّ شِرَّةٍ فَتْرَةٌ ، فَمَنْ كَانَتْ فَتْرَتُهُ إِلَى الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ فَسَلِمَ مَا هُوَ ، وَمَنْ كَانَتْ فَتْرَتُهُ إِلَى مَعَاصِي اللَّهِ فَذَلِكَ الْهَالِكُ » ، فقوله عليه الصلاة والسلام : « تِلْكَ ضَرَاوَةُ الْإِسْلَامِ وَشِرَّتُهُ » استعارة ، والمراد بذلك شدة الورع وإفراطه وغلوّه واشتطاطه ، تشبيهاً له بالضراوة على الشيء المأكول أو المشروب ، وهي شدة الاعتياد له ، وفرط المنازعة إليه . وذلك مأخوذ من قولهم : سَبُعٌ ضَارٍ ، وإذا دَرَبَ بَأْكُلِ اللَّحْمِ فَكُثِرَ طَلَبُهُ لَهُ وَكُوبَتُهُ^(١) عليه ، ويقولون : عِرْقٌ ضَارٍ إِذَا فَارَدَمَهُ فَلَمْ يَقِفْ ، وتواتر فلم ينقطع . وقال الْأَخْطَلُ يَصِفُ دَنَّ الْحُمْرِ عِنْدَ بَزْلِهِ^(٢) :

(١) اللوب (بافتح والضم) : العطش ، فاللوبة واحدة منه ، والأصل أن يمدى عطش بـ إلى يقال عطش إليه ولكنه هنا مضمن معنى حرص . ولو أننا تسرع في تغيير ما تعرض فيه الشبهة من عبارات الكتاب لجعلنا العبارة ولوعته عليه . ولكننا لانبجأ إلى ذلك إلا مضطرين .

(٢) البزل : تقب الدن لتخرج منه الحمر

لَمَّا أَتَوْهَا بِمِصْبَاحٍ وَمِيزَانٍ سَارَتْ إِلَيْهِمْ سُورُ الْأَنْجَلِ الضَّارِي
والأنجل : واحد الأنجل ، وهي العروق ، ومعنى سارت : أى فارت
ونصحت^(١) مأخوذ من سورة الشىء ، وهي حركته وطموحه ومما فى
هذا المعنى الخبر المروى عن بعض الصحابة : « اتقوا هذه المجازر فإن لها
ضراوة كضراوة الحجر » ، فأراد أن ضرر الإدمان على أكل اللحم كضرر
الإدمان على شرب الحجر ، إلا أن المستكثر من اللحم يؤثر ضرره فى بدنه ،
والشارب للخمر يؤثر ضررها فى دينه .

٣٢٦ — ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام : « لَعَنَ اللَّهُ
الَّذِينَ يُشَقِّقُونَ الْكَلَامَ تَشْقِيقَ الشَّعْرِ » ، وهذا القول مجاز ، والمراد
الذين يتصرفون فى الكلام فيدققون فيه ويتعمقون فى معانيه وشبهه
عليه الصلاة والسلام فعلهم ذلك بتشقيق الشعر ، لأن طاقات الشعر
مستدقة فى نفوسها ، وإذا تعاطى الإنسان تشقيقتها انتهت من الدقة إلى
غاية لا زيادة وراءها ، وهذا اللعن فى الخبر إنما يتناول من بلغ فى تدقيق
الكلام إلى ذلك الحد لِيَشْتَبِهَ الْبَاطِلُ بِالْحَقِّ . وَيَجُوزُ الْعِنَى بِالرَّشْدِ كَمَا
قُلْنَا فى تأويل قوله عليه الصلاة والسلام : « أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِأَبْغَضِكُمْ إِلَىَّ
وَأَبْغَضِكُمْ مِنِّي مَجْلِسًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ؟ الثَّرَثَارُونَ الْمُتَفِقُّهُونَ » .

(١) نصح الفيت الأرض : سقاها حتى اتصل نباتها ، والمراد أنه هطل فيها بشدة .
فمطف هذا الفعل فى عبارة المؤلف على فارت مرادف وتفسير .

٣٣٧ — ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام : « لِيَدْخُلَنَّ هذا الدِّينُ عَلَى مَا دَخَلَ عَلَيْهِ اللَّيْلُ » ، وهذا القول مجاز . والمراد انتشار الإسلام في الشرق والغرب واشتماله على البر والبحر ، فجعله عليه الصلاة والسلام من هذا الوجه بمنزلة الداخل دخول الليل في الإطلال^(١) والإطباق وتجليل البلاد والآفاق . ومن ذلك ما روى في حديث عن بعض الصحابة ، وهو قوله : « وَكَانَ ذَلِكَ حِينَ دَجَا^(٢) الْإِسْلَامُ » أى ألبس كل شيء ، ودخل على كل شيء تشبهاً بالليل في تغطية البلاد وشموله النجاء والوهاد . ومما يقوى هذا المعنى ما روى عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال لفاطمة عليها السلام وقد رأت قميصه مخروقا ، وبطنه خميصا ، فبكت عند ذلك ، فقال لها صلى الله عليه وآله : « أَمَا يُرْضِيكَ يَا فَاطِمَةُ أَلَّا يَبْقَى عَلَى ظَهْرِ الْأَرْضِ بَيْتٌ مَدْرٍ وَلَا وَبَرٍ إِلَّا دَخَلَهُ عِزٌّ أَوْ ذُلٌّ بِأَبْيَكِ » .

٣٣٨ — ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام لمعاذ بن جبل : « أَلَا أُخْبِرُكَ بِرَأْسِ الْأَمْرِ وَعَمُودِهِ وَذِرْوَةِ سَنَامِهِ ؟ قال : بلى يَا رَسُولَ اللَّهِ ، قال : رَأْسُ الْأَمْرِ الْإِسْلَامُ ، وَعَمُودُهُ الصَّلَاةُ ، وَذِرْوَةُ سَنَامِهِ الْجِهَادُ » وهذه الألفاظ كلها مستعارة ، كأنه عليه الصلاة والسلام رأس دين الله المتقدم ورئيسه المعظم ، وجعل الصلاة عموده الذى به قوامه وعليه

(١) الإطلال على الشيء : الإشراف عليه .

(٢) مادة دجا تدل على السر والشمول ، فنها دجا شعر الماعزة : ألبس بعضه بعضا ولم يفتش ، ودجا الثوب : سبغ وطال .

قيامه . وجعل الجهاد ذروة سنامه . لأنه يعد الرأس أعلى مشارفه ، وأرفع مراتبه ، وبه يشاد بناؤه ، ويقام لواؤه ، ويُقَمَّع أعداؤه .

٣٣٩ — ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام : « حُجُّوا قَبْلَ أَلَّا تَحُجُّوا . حُجُّوا قَبْلَ أَنْ يَمْنَعَ الْبِرُّ جَانِبَهُ » . وفي هذا القول مجاز والمراد حجوا قبل أن يَمْنَعَ سُلُوكُ الْبِرِّ الْقَاطِعُونَ لِسَبِيلِهِ ، وَالْعَائِثُونَ فِي طَرِيقِهِ ، وَالْحَائِلُونَ بَيْنَ النَّاسِ وَبَيْنَ دُخُولِهِ . فلما جعل عليه الصلاة والسلام البر ممنوعاً بمن أشرنا إلى ذكره حَسُنَ على طريق المجاز أن يجعله كالمانع لجانبه ، وَالْخَوْفُ لِسَالِكِهِ لِأَنَّ الْمَحْجُوبَ كَرَّهَا كَالْمَحْتَجَبِ ، وَالْمَمْنُوعَ قَسْرًا كَالْمَمْتَنَعِ .

٣٤٠ — ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام : « الْحُمَّى كَبِيرُ حَهْمَمٍ » ، وهذا القول مجاز . والمراد المبالغة في وصف حرارة الحمى واتقادها ، وشدة أوارها واضطرابها ، فُسِّبَهَا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ : بِكَبِيرِ يَسْتَمِدُّ مِنْ نَارِ جَهَنَّمَ ، وَهِيَ أَعْظَمُ النَّيْرَانِ وَقُوداً^(١) ، وَأَبْعَدُهَا خُمُوداً . وقال المفسرون في قوله تعالى وهو يريد نار الدنيا : « نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكَرَةً وَنَذَارَةً لِّلْمُتَّقِينَ » قالوا تذكرة يستذكر بها الناس نار الآخرة ، فيكون ذلك أزجر لهم عن المعاصي ، وأصرف عن المضالِّ والمغاوى ، لِأَنَّ نَارَ الدُّنْيَا إِذَا كَانَتْ عَلَى مَا هِيَ عَلَيْهِ مِنْ قُوَّةِ الْإِحْرَاقِ . وشدة الإبرماض

(١) الوقود (بالضم وبالفتح) الاتقاد .

والإفلاق ، وهى مع ذلك دون نار الآخرة فى الطبقة ، وجزء من أجزائها فى الإيلام والنكاية ، فما ظننا بتلك النار^(١) إذا باشرت الأجسام ، وخالطت اللحوم والعظام ، نعوذ بالله منها ، ونسأله التوفيق لما باعد عنها . وقيل فى القَوَيْن قولان . أحدهما : أن يكونوا المرءامين من الزاد . والفاقدين للطعام ، يقال : أقوى فلان من زاده إذا لم يبق عنده شىء منه ، وذلك مأخوذ من الأرض القَوَاء^(٢) التى لا شىء فيها ، فكأنه صار كهذه الأرض فى الخلو من البلغ التى يُتَبَلَّغُ بها ، والمُسَكَّ التى يترمقها ، والقول الآخر أن يكون القَوَوْن هاهنا السائرین فى القَوَى ، وهى الأرض التى قدّمنا ذكرها ، والنار للمسافر أرفق^(٣) منها للحاضر

٣٤١ — ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام فى دعاء دعا به لميت : « اللَّهُمَّ إِنَّ فُلَانًا بَنَ فُلَانٍ فِي ذِمَّتِكَ وَحَبْلٍ جَوَارِكَ ، فَتَقِهِ فِتْنَةَ الْقَبْرِ وَعَذَابَ النَّارِ^(٤) » ، فقوله عليه الصلاة والسلام « وحبل جوارك » استعارة . والمراد أنه لجى إلى ظلك ، ومفطر إلى فضلك ، فأخرج قوله « فى ذمتك ، وحبل جوارك » على عادة كلام العرب ، لأنهم يقولون : قد عقد فلان لفلان حَبْلًا ، وأخذ فلان من فلان حَبْلًا إذا أعطاه

(١) أى نار الآخرة .

(٢) القَوَاء (بافتح مع التصير واند) : الأرض القفرة .

(٣) أرفق : أنعم .

(٤) رواية النهاية « اللهم إن فلان .. » وقد أثبتناها بدل ما كان واردا فى الأصل وهو

« الآن فلان .. » ولم نجد ما يؤيد هذه الرواية كما لم نرها مناسبة لأن التصريح

بكون الميت فى ذمة الله الآن فقط غير مناسب .

ذمًا ، أو عقده جوارًا ، وقد سموا اليهود : حبلا على هذا المعنى ، وفي التنزيل : « لَا يَحْبِلُ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلٌ مِنَ النَّاسِ » : أى بعهد من الله ، وعهد من الناس ، والأصل فى ذلك أن يشبهوا ما يعقد من الذمام بما يعقد من الحبال لأنها تقرّب بين البعيدين ، وتجمع بين القويين ، وتصل الأبيات بالأبيات ، وتربط الأطناب بالأطناب .

٣٤٢ — ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام لأصحابه وقد ذكر وقوع الفتن : « ثُمَّ تَعُودُونَ فِيهَا أَسَاوِدَ صُبًّا يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ ^(١) » ، وهذا القول مجاز . وأراد عليه الصلاة والسلام أنكم تكونون فى هذه الفتنة كالحيات التى تنصب على مُناهشها ، وتسرع إلى مُلابسها غير متذممة من مُحَرَّم ، ولا متورعة عن مُعْظَم .

٣٤٣ — ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام : « كُتِّكُمُ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ شَرَدَ عَلَى اللَّهِ شِرَادَ الْبَعِيرِ » . فقوله عليه الصلاة والسلام « إلا من شرد على الله » مجاز . والمراد إلا من عند عن أمر الله ^(٢)

(١) الأساود : الحيات ، جمع أسود ، وهو أخبث الحيات ، وأعظمها وهو من الصفة الغالبة حتى استعمل استعمال الأسماء وجمع جمعها .

والصب : جمع صبوب على أن أصله صبب (كرسل) ثم خفف كما خفف رسل بتسكين السين ثم أدغم . قالوا : إن الأسود إذ أراد أن ينهش ارتفع ثم انصب على اللدوغ . وقد روى لفظ صبا على وزن حبلى (صي) فيكون جمع صاب (كغاز وغزى) وهم الذين يصبون إلى الفتنة أى يميلون .

(٢) أصل هذه العبارة هكذا : إلا عن أمر من عند الله ، وهى غير مفهومة . ويظهر أن التقديم والتأخير فيها كان من عمل الطابع كما جرت العادة بذلك .

سبحانه وتعالى ، وبعد عن رضاه وطاعته ، وذهب في غير جهة مشيئته وإرادته ، فكان كالبعير الشارد الذي ندّعن صاحبه ، وبعد عن معاطنه .

٣٤٤ — ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام لأسماء بنت أبي بكر : « أَنْفَحِي وَأَنْضَحِي ، وَلَا تُوعِي فَيُوعِيَ اللَّهُ عَلَيْكَ » قوله عليه الصلاة والسلام « أَنْفَحِي وَأَنْضَحِي » استعارة . والمراد أنفح ملكك في سبيل الله ، وأبذليه في طاعة الله ، وأصيبي به مواضعه بإسراع وبِدَارٍ كما تنفح الريح هبوبها ، وتنضح السحابة شؤبوبها . والمراد بقوله عليه الصلاة والسلام هاهنا « وَلَا تُوعِي فَيُوعِيَ اللَّهُ عَلَيْكَ » أى لا تمسكى فيمسك الله عليك لأن من أوعى شيئاً وحفظه ، فقد أمسكه ومنعه .

٣٤٥ — ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام : « إِنْ قُرِئَ أَهْلُ صِدْقٍ وَأَمَانَةٍ ، فَمِنْ بَغَاهُمْ الْعَوَاتِرُ كَبَّهُ اللَّهُ لَوَجْهِهِ » ، وهذا القول مجاز . والمراد فمن بغاهم المعثرات ، وهى الأمور التى تعثرهم ، وتضع شرفهم ، فقال عليه الصلاة والسلام «العواتر» لأنها وإن أعثرتهم . فكأنها عائرة بهم ، أو واقعة عليهم ، ومن قولهم : عَثَرَ الدهر بآل فلان : إذا نقص أعدادهم ، وغير أحوالهم ، وبلغ المبالغ منهم ، وسوءت آثاره فيهم .

٣٤٦ — ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام : « الْمُسْلِمَانِ إِذَا تَحَلَّ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا عَلَى صَاحِبِهِ السَّلَاحَ فَمَا عَلَى جُرْفِ جَهَنَّمَ ، فَإِذَا قَتَلَ أَحَدُهُمَا صَاحِبَهُ دَخَلَاهَا جَمِيعًا » ، وهذا القول مجاز . والمراد بذلك

المسلمان اللذان يتقاتلان في غير طاعة الله سبحانه ، فهما بنفس القتال وتظاهرها بحمل السلاح عاصيان لله سبحانه مستحقان لعقابه مُقَدِّمان على شِقَاقِهِ ، فإذا قَتَلَ أحدهما صاحبه دخلاً جميعاً النار إلا أن المقتول يستحقها بتعرضه للقتال المحذور عليه ، والقاتل يستحقها بمثل ذلك ، ويتفرّد بعقاب القتل الذي وقع منه ، فيكون أشدهما نكالاً ، وأعظمهما وبالاً . وموضع المجاز ، قوله عليه الصلاة والسلام « فهما على جرف جهنم » والمراد أنهما على طريق استحقاق نار جهنم بإقدامهما على الفعل المحذور ، والأمر المكروه ، فشبه عليه الصلاة والسلام كونهما قرييين من استحقاق دخول النار بمن أشرف على جُرْفِهَا^(١) ، وقام على حرفها ، في شدة القرب منها ، والإشفاء على الوقوع فيها . ومثل ذلك قوله تعالى : « وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا » . وقد لخصنا الكلام على ذلك في كتاب مجازات القرآن .

٣٤٧ — ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام وقد رأى بغيراً في بعض حيطان^(٢) المدينة فحنّ إليه كالشاكى ، فقال عليه الصلاة والسلام لصاحبه : « إِنَّ بَعِيرَكَ يَشْكُوكَ وَيَزْعُمُ أَنَّكَ أَكَلْتَ شَبَابَهُ حَتَّى إِذَا كَبِرَ تُرِيدُ أَنْ تَنْحَرَهُ » ، وهذا القول مجاز ، والمراد بقوله عليه الصلاة والسلام « أَكَلْتَ شَبَابَهُ » استعماله في حال شبابه وقوّته ، وأجمعت نحرة في

(١) الجرف (بالضم وبضمّتين) : ما أكلته السيول من الأرض .

(٢) الحيطان : جمع حائط ، وهو هنا البستان لأنه يحاط بسور يمنع عنه الناس .

حال ضعفه وكبره ، فجعل استعماله طول أيام شبابه كالآكل شبابه لأنه استنفاد له وذهاب به .

٣٤٨ — ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام : في حديث طويل نهى فيه عن الذبح بالسِّنِّ والظْفَرِ : « أَمَّا السِّنُّ فَعَظْمٌ ، وَأَمَّا الظَّفَرُ فَمُدَى الْحَبْشَةِ » ، وهذه استعارة ، والمُدَى السكاكين ، فكأنه عليه الصلاة والسلام قال : والأظفار سكاكين الحبشة لأنهم يذبحون بحدها ويقيمونها مقام المُدَى في التذكية بها ، والظفر هاهنا اسم للجنس كالدينار والدرهم في قولهم : أَهْلَكَ النَّاسَ الدِّينَارُ وَالدِّرْهَمُ : أى الدنانير والدرهم . ولذلك صح أن يقول : مدى الحبشة ، والمُدَى جمع لأن الواحدة مديدة .

٣٤٩ — ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام : « كَفَى بِالسَّلَامَةِ دَاءً » . وهذا القول مجاز ، لأن السلامة على الحقيقة ليست بداء في نفسها ، وإنما المراد أنها تفضي إلى الأدوية القاتلة والأعراض المهلكة ، لأن طولها يؤدي إلى موت الشهوات وانقطاع اللذات وحوالي الهرم وعوادي السقم . فحسن من هذا الوجه أن تسمى داء ، إذ كانت موقعة فيه ومؤدية إليه . وقد أكرت الشعراء نظم هذا المعنى في أشعارهم إلا أن كلمة النبي عليه الصلاة والسلام أبهى من جميع ما قالوه مطلقاً ، وأبعد منزعاً ، وأوجز في تمام ، وأكثر مع قلة كلام . فمما جاء في هذا المعنى قول حميد بن ثور :

أَرَى بَصَرِي قَدْ رَأَى بَنِي بَعْدَ صِحَّةٍ وَحَسْبُكَ دَاءٌ أَنْ تَصِحَّ وَتَسْلَمَا

وقول لبيد بن ربيعة :

وَدَعَوْتُ رَبِّي بِالسَّلَامَةِ جَهْدًا لِيُصِحِّحَنِي فَإِذَا السَّلَامَةُ دَاءٌ

وقول النمر بن تولب :

يَوَدُّ الْفَتَى طُولَ السَّلَامَةِ وَالْغِنَى فَكَيْفَ يَرَى طُولَ السَّلَامَةِ يَفْعَلُ

وإني لأستحسن كثيرا، الأبيات التي من جملتها هذا البيت وهي قوله :

تَغَيَّرَ مِنِّي كُلُّ شَيْءٍ وَرَأَيْتُ مَعَ الذَّهْرِ أَبْدَالِي الَّتِي أَتَبَدَّلُ
فَدَوَّلُ أَرَاهَا فِي أُدْيِمِي بَعْدَ مَا يَكُونُ كِفَافَ الْجِسْمِ أَوْ هُوَ أَجْمَلُ
كَأَنَّ مِحْطًا فِي يَدَيَّ حَارِثِيَّةً صَنَاعَ عَلَتْ مِنِّي بِهِ الْجِلْدُ مِنْ عَلٍ^(١)
يَرُدُّ الْفَتَى بَعْدَ اعْتِدَالٍ وَصَحَّةٍ يَنُوءُ إِذَا رَامَ الْقِيَامَ وَيُحْمَلُ
تَذَارِكُ مَا قَبْلَ الشَّبَابِ وَبَعْدَهُ حَوَادِثُ أَيَّامٍ تَمُرُّ وَأَغْفَلُ
يَوَدُّ الْفَتَى طُولَ السَّلَامَةِ وَالْغِنَى فَكَيْفَ يَرَى طُولَ السَّلَامَةِ يَفْعَلُ

٣٥٠ - ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام وقد ذكر

صلاة العصر : « وَلَا صَلَاةَ بَعْدَهَا حَتَّى يُرَى الشَّاهِدُ » ، وهذه استعارة والمراد ، بالشاهد هاهنا النجم ، والعرب يسمون الكوكب شاهد الليل كأنه يشهد بإدبار النهار وإقبال الظلام . وكلُّ شيء يدل على شيء

(١) المحط والمحلة : حديدة أو خشبة يصقل بها الجلد لين ويبرق ، والمراد أن

الكبر الآن جلده ، وإذا لان الجلد اتسع فهو يقول إن في جلده فضولا

عن جسمه .

فهو يجرى مجرى الشاهد به والمخبر عنه ؛ إذ ليس كلُّ دالِّ بإنسان، ولا كلُّ دليلٍ من جهة اللسان :

٣٥١ — ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام : « وَأَيُّ دَاءٍ أَدْوَى مِنَ الْبُخْلِ » ، وهذا القول مجاز لأن البخل على الحقيقة ليس بداء ، ولكنه لما كان عادة مكرهة وخليقة مذمومة أجرى مجرى الداء الذى يغير الصحة ، ويفسد الجبلة إلا أنه داء يمكن الانتقال عن صحبته وتحمل النفس على مفارقه لأنه لو لم يكن كذلك لما حسن الدم عليه والتعير به ، كما لا يحسن الدم على سائر الأمراض التى تغير الأحوال وتفسد الأجسام . والبخل على الحقيقة هو منع الواجب وكل من منع الواجب يوصف بالبخل ومن منع التفضل لا يوصف بذلك إلا على سبيل المجاز ، وكل ما فى القرآن من ذكر البخل فإنما يراد به منع الواجب كما أن كل ما فيه من الأمر بالإتفاق إنما يراد به إخراج المال فى الواجب . فأما تسمية العرب من لا يَقْرِى النازل ولا يُعْطَى السائل بالبخل فلاهم اعتقدوا وجوب ذلك عليه فوصفوه بالبخل لامتناعه منه ، وأساميتهم تتبع اعتقاداتهم

٣٥٢ — ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام : وقد سأله رجل من جُهَيْنَةَ متى يصلى العشاء الآخرة فقال : « إِذَا مَلَأَ اللَّيْلُ بَطْنَ كُلِّ وَادٍ » ، وهذا مجاز لأن الليل على الحقيقة لا تملأ به بطون الأودية كما

تتلى بطون الأوعية . وإنما المراد إذا شمل ظل الليل البلاد وطبق النجاد والوهاد فصار كأنه سداد لكل شعب وصمام لكل تقب .

٣٥٣ - ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام وقد طلعت بين أصابعه حرّة^(١) فوضع يده عليها وقال : « اللَّهُمَّ مُطْفِئُ الْكَبِيرِ وَمُكَبِّرُ الصَّغِيرِ أَطْفِئْهَا عَنِّي بِرَحْمَتِكَ » ، وهذه استعارة : كأنه عليه الصلاة والسلام أقام ذلك الداء مقام النار التي قد أخذت في الاضطرام ، وبدأت بالاحتدام ، وأقام الشفاء المطلوب من الله سبحانه مقام الإطفاء لها ونضح الماء عليها . في أن ذلك يفنى وقودها ويسرع خمودها . وهذا من التشبيهات الصادقة ، والتمثيلات الواقعة . وروى أنه عليه الصلاة والسلام كان يَقلُقُ القَلَقَ الشديد لما يظهر في جسمه من الداء اليسير ، فقليل له : في ذلك ، فقال : إن الله إذا أراد أن يعظم صغيراً عظّمه .

٣٥٤ - ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام : « مَنْ قَعَدَ فِي مُصَلَّاهُ حِينَ يُصَلِّي الصُّبْحَ حَتَّى يَسِيحَ الضُّحَا . فِي حَدِيثٍ طَوِيلٍ » ، وهذه استعارة كأنه عليه الصلاة والسلام جعل الضحا ، وهو شباب النهار وزيادته بمنزلة الماء السائح من الغدير : السائح في التمثيل من وجهين : أحدهما أن بياض الضحا كبياض الماء ، والآخر أن انتشار النهار بضيائه كانسياح الغدير بمائه ، ومثل تسميتهم الشمس عند أول طلوعها بالغزالة

(١) الحرّة : البثرة الصغيرة .

وليس ذلك باسم لها في جميع الأحوال كما يظنه بعض الجهال ، وإنما هو اسم لها في هذا الوقت المخصوص ، ومن الشاهد على ذلك قول ذى الرمة :
 وَأَشْرَفْتُ الْغَزَالََةَ رَأْسَ حَزْوَى . لِأَنْظُرَهُمْ وَمَا أَغْنَى قِبَالًا^(١)
 كأنه قال : وأشرفت ذلك الموضع أول طلوع الشمس ، وأبين من هذا قول الآخر وأنشدناه شيخنا أبو الفتح النحوى رحمه الله :

قَالَتْ لَهُ وَأَزْتَفَعْتُ أَلَا فَتَى يَسُوقُ بِالْقَوْمِ غَزَالَاتِ الضُّحَا
 كأنها قالت يسوق بهم أوائل النهار ، وعند ابتداء الشمس في الانتشار ،
 وغزالات الضحا أول شروقها وإنضاضها^(٢) ، والضحا وقت إشراقها
 وارتفاعها

٣٥٥ — ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام ، وقد مرّ على قوم
 وقوف على ظهور دوابهم ، ورواحلهم يتنازعون الأحاديث ، فقال عليه
 الصلاة والسلام : « لَا تَتَّخِذُوهَا كَرَاسِيٍّ لِأَحَادِيثِكُمْ فِي الطَّرِيقِ وَالْأَسْوَاقِ
 قُرْبَ مَرَكُوبٍ خَيْرٌ مِنْ رَاكِبٍ » ، وهذه استعارة كأنه عليه الصلاة

(١) يعنى الأطلعان . ونصب الغزالة على الظرف . وقال ابن خالويه : الغزالة فى بيت
 ذى الرمة الشمس . وتقديره عنده فأشرفت وقت طلوع الغزالة . ورأس
 حزوى مفعول أشرفت على معنى علوت رأس حزوى طلوع الشمس . وقوله :
 وما أغنى قبالا ، أى وما نفعنى ذلك شيئا ، يقال : ما أنت لهم فى قبالة ولا ديار ،
 أى لا يكثرئون لك .

(٢) يقال نض الماء بمعنى سال قليلا قليلا ، وقد استعمل منه المؤلف أنضت الشمس
 بمعنى أرسلت شعاعها قليلا قليلا .

والسلام شبه الدواب والرواحل في حالة إطالة الوقوف على ظهورها بالكراسى التى يجلس عليها لأنها تثبت في مواضعها ، ولا تزول إلا بمزبل لها ، فنهى عليه الصلاة والسلام أن يجعل الحيوان المتصرف بمنزلة الجماد الثابت والشئىء النابت .

٣٥٦ - ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام : « إن الإسلام بدأ جذعاً ، ثم ثنيّاً ، ثم رباعياً ، ثم سدسياً ، ثم بازلاً^(١) ، وما بعد البزول إلا النقصان » وهذا الكلام كله مستعار ، والمراد تمثيل الإسلام في تنقل أحواله ، وتغاير أوصافه بولد الناقة ينتقل في أسنانه ، فيكون أول أمره جذعاً ، ثم ثنيّاً ، ثم رباعياً ، ثم سدسياً ، ثم بازلاً ، وهى سنّ التمام ، وما بعدها إلى النقصان ، ومدار المعنى على أن الإسلام بدأ في غاية الصغر ، ثم انتهى إلى غاية الكبر على تدرّج ما بين البازل والجذع ، وأنه عليه الصلاة والسلام يخشى عليه تقيصة التمام ، وعكيسة الكمال كما يخشى على اليقين^(٢) بعد انحنائه ، والبازل بعد انتهائه .

٣٥٧ - ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام : « إنّما هذا المال من الصدقة أو سآخ أيدى الناس » ، وفي رواية أخرى « غسالات أيدى الناس » وذ كر ابن سعد في كتاب الطبقات أنه عليه الصلاة والسلام

(١) الجذع : الجمل في الخامسة من عمره ، والثنى في السادسة ، والرباع في السابعة

والسدس في الثامنة ، والبازل في التاسعة ، وليس بعد التاسعة سنّ تسمى .

(٢) اليقين (بالتحريك) : الشيخ القانى (المهرم) .

قال للعباس بن عبد المطلب رحمه الله وقد سأله أن يستعمله على الصدقة :
ما كنت لأستعملك على غُسلَةِ ذُنُوبِ النَّاسِ ، وهذا القول مجاز ، والمراد
تشبيه ما يخرج به الناس من صدقاتهم بالأوساخ التي يُمِيطونها عن أيديهم .
والتشبيه بذلك من وجهين : أحدهما أن تكون أموال الصدقات لما كان
إخراجها مطهرًا لما وراءها من سائر الأموال جرت مجرى المياه التي تغسل
بها الأدران ، وتزال بها الأنجاس في انتقال تلك الأدران إليها ، وحصول
تلك الأدناس والأنجاس فيها . والوجه الآخر أن يكون المراد أن أموال
الصدقات في الأكثر لا تكون إلا أسافل الأموال دون أخايرها ومفارقاتها^(١)
دون كِرايها ، ولذلك أمر عليه الصلاة والسلام في الصدقة بالأخذ من
حواشي الأموال دون حَرَزَاتِها ، وهي خيارها ، وإنما نسب عليه الصلاة
والسلام تلك الأوساخ إلى الأيدي لأن الأموال المعطاة في الأكثر إنما
تكون بها وتمر عليها وقد مضى الكلام على مثل هذا المعنى فيما تقدم .

— ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام في تعديد أقوام
ذَمَّهم : « وَرَجُلٌ يَنْزِعُ اللَّهُ رِدَاءَهُ فَإِنَّ الْكِبْرِيَاءَ وَإِزَارَهُ
الْعَظْمَةُ » ، وهذا القول مجاز . والمراد بذلك أن الكبرياء والعظمة رداؤه
تعالى وإزاره اللذان يكسوهما خليقته ، ويلبسهما بريته ، ولا يقدر غيره
على أن ينزع منهما ما ألبسه ، أو يلبس منهما ما نزع . والمراد بذلك

(١) لعله يريد بالمفارقات التي هانت على أصحابها فقرطوا فيها فهي تفارقهم ، بخلاف
الكريمة عليهم فإنهم يحرسون عليها فلا تفارقهم .

العظمة والكبرياء على حقيقتيهما دون ما يعتقده الجهال أنه عظمة وكبرياء ،
وليس بهما ، وذلك مثل ما نشأ من تعظم الجبارين . وتكبر المتعكبين ،
فإن ذلك ليس بتعظيم من الله سبحانه لهم ، ولا بإفاضة من ملابس
كبريائه عليهم . وإنما العظمة والكبرياء في الحقيقة هما الكرامة التي
يلقيها الله سبحانه على رسله وأنبيائه ، والقائمين بالقسط من عباده ،
فيعظمون بها في العيون . ويحجلون في الصدور والقلوب ، وإن كانت
هيئاتهم ذميمة ، وظواهرهم ورقابهم خاضعة ، وبطونهم جائعة ، فإذا ثبت
ما قلنا بأن تسمية الكبرياء والعظمة رداء الله وإزاره ليس لأنه يكتسبهما
ولكن لأنه يكسوهما ، وذلك كما يقول القائل ، وقد رأى على بعض الناس
ثوبا أفاضه عليه عظيم من العظماء ، أو كريم من الكرماء : هذا ثوب فلان
ولم يرد أنه ملبسه ، فأضافه إليه من حيث كساه لامن حيث اكتساه
ويجري هذا مجرى قولنا : بيت الله ، وليس بساكنه ، وعرش الله ، وليس
براكبه ، ونظير ذلك قولهم : لَعَمْرُ الله ما فعلت كذا ، وَلَعَمْرُ الله لقد فعلت
كذا ، وَالْعَمْرُ هو الْعَمْرُ ، يقال : عَمَرْتُ وَعَمَرْتُ بمعنى واحد . قال الشاعر :
بَانَ الشَّبَابُ وَأَخْلَقَ الْعَمْرُ وَتَغَيَّرَ الْإِخْوَانُ وَالْذَّهْرُ
أراد الْعَمْرُ على أحد التفسيرين ، والتفسير الآخر أن يريد به واحد عَمُور^(١)
الأسنان وإخلاقه تغيره من الكبر إلا أن الْعَمْرُ في قولهم : لَعَمْرُ الله ، يراد
به الحياة ، وهذا المراد بقول القائل لَعَمْرِي ، وَلَعَمْرُ أُنَى ، وَلَعَمْرُ فلان كأنه
قال : وحياتي وحياة أبي وحياة فلان ، وجاء عن ابن عباس رحمة الله عليه أنه

(١) عَمُور الأسنان : جمع عمر (بالفتح) وهو اللحم الذي بينها .

قال من كرامات الله سبحانه لنبينا عليه الصلاة والسلام أنه أقسم في القرآن بحياته ولم يفعل ذلك بنبي غيره قال تعالى : « لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ » ، وكأنه سبحانه قال : وحياتك إنهم كذلك وإذا صح ما قلناه صار القائل لعمر الله كأنما حلف بحياة يُحْيِي الله بها لا حياة يحياها لأنه سبحانه يتعالى عن أن يحيا بحياة أو يتكلم بأداة أو يفعل بآلات .

٣٥٩ - ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام : « قَدْ تَرَكْتُكُمْ عَلَى الْبَيْضَاءِ لَيْلَهَا كُنْهَارُهَا لَا يَزِيغُ عَنْهَا بَعْدِي إِلَّا هَالِكٌ » ، وهذا القول مجاز . والمراد بالبيضاء هاهنا محبة الدين ومدرجة الطريق المستقيم ، وصفتها بالبياض : عبارة عن وضوح نهجها وبيان سننها ، وكل أبيض في كلامهم واضح ، يقولون وجه واضح إذا كان أبيض المَحْيَا ، وجبين واضح ، وجيدٌ واضح على هذا المعنى . وقوله عليه الصلاة والسلام « ليلها كنهارها » مقول ما فسرناه من المراد بالبياض كأنه عليه الصلاة والسلام أشار إلى أن الليل لا يغطي وضوح هذه المحبة بسواده ولا يستر أعلامها بظلامه ، ولا محبة هناك على الحقيقة ، وإنما المراد صفة الدين بوضوح المعالم وبيان المواسم وإنارة المداخل ، وظهور الحجج والدلائل

٣٦٠ - ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام : « مَا مَلَأَ آدَمِيٌّ وَعَاءَ شَرٍّ مِنْ بَطْنِهِ . » في حديث طويل ، وهذا القول مجاز ، إنما جعل عليه الصلاة والسلام البطن بمنزلة الوعاء ، لأنه قرار للطعام والشراب ، وما يستحيلان إليه من القُرُوث والأخبثات ، وكان المأكل والمشرب إيعاء^(١)

(١) إيعاء : وضع وتخزين وحفظ .

فيه ، وكأن العدد والتبرز تفرغ له ، ونظير هذا الخبر الخبر المروى عنه ، عليه الصلاة والسلام وهو قوله «القلوب أوعية بعضها أوعى من بعض» وقد تقدم الكلام عليه لأنه عليه الصلاة والسلام إنما جعل القلوب كالأوعية لأنها موضع إبداع السرائر والضمائر ، وحفظ الأدلة والعلوم ، ومستقر الآراء والعزوم . إلا أن القلوب أوعية للأعراض من الإرادات والاعتقادات ، والبطون : أوعية للأجسام من المأكولات والمشروبات .

٣٦١ - ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام : « الْحَجَرُ يَمِينُ اللَّهِ فَمَنْ شَاءَ صَافَحَهُ بِهَا » ، وهذا القول مجاز . والمراد أن الحجر جهة من جهات القرب إلى الله تعالى فمن استلمه وبشره قرب من طاعته تعالى فكان كاللاصق بها والمباشر لها ، فأقام عليه الصلاة والسلام اليمين هاهنا مقام الطاعة التي يتقرب بها إلى الله سبحانه على طريق المجاز والاتساع ، لأن من عادة العرب إذا أراد أحدهم التقرب من صاحبه ، وفضل الأنسة بمخالطته أن يصافحه بكفه ، ويعلق يده بيده ، وقد علمنا في القديم تعالى أن الدنو يستحيل على ذاته ، فيجب أن يكون ذلك دُنُوًّا من طاعته ومرضاته ، ولما جاء عليه الصلاة والسلام بذكر اليمين أتبعه بذكر الصِّفاح ليوفى الفصاحة حقها ، ويبلغ بالبلاغة غايتها . ونظير هذا الخبر الحديث الآخر : « إِنَّ الصَّدَقَةَ تَقَعُ فِي يَدِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قَبْلُ يَدِ السَّائِلِ » . أى يتعجل بها منه سبحانه استحقاق ثوبته ومواقفته

وموافقة طاعته ، وأنها لا تهلك ضللاً ، ولا تذهب ضياعاً ، بل تكون كالشيء المحفوظ باليد ، والمذخور للغد .

وهذا أخير انتهائنا إلى الفراغ من كتاب « مجازات الآثار النبوية » على ما تخال عملنا له من قواطع الأشغال ، وبواهب الأثقال وعوادي الأيام والليالي ، وقد خرجنا في صدر هذا الكتاب من عهدة التكفل باستيعاب جميع ماورد عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم من آثاره المملوطة ، والأخبار المنقولة بما شرطناه من كلامنا التي وقع إلينا وقرب من متناولنا دون ما بعد عنا وشذ عن أيدينا ، ولا يبعد أن يكون القدر الذي تكللنا عليه قليلاً من كثير ، وقصيراً من طويل ، إلا أن عذرنا في الاقتصار عليه واضح وجيئناً فيما أديناه ناصح .

ونحن نحمد الله سبحانه على ما منَّ به من التوفيق لاقتناص شوارده وتسهيل موارده ، وإثارة فوائده وعوائده حمداً يكون للنعمة قواماً ، ولنتاجها تماماً ، ولصعبها عقلاً وزماماً ، فإن النعمة تُشَنَّى على قواعد الشكر لها ، وترفع على دعائم المعرفة بقدرها ، وما توفيقنا إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب .

بحمد الله تعالى تم طبع كتاب : « المجازات النبوية » بعد مراجعة تصحيحه بمعرفة

الاستاذ : محمود أفندي مصطفى ، أحمد سعد علي

أحد علماء الأزهر الشريف ورئيس لجنة التصحيح

(القاهرة في يوم الخميس ١١ ذى القعدة سنة ١٣٥٦ هـ / ١٣ يناير سنة ١٩٣٨ م)

ملاحظ المطبعة

مدير المطبعة

محمد أمين عمران

رستم مصطفى الحلبي

فهرس

رقم الحديث	رقم الصفحة	نص الحديث
١	٢٢	هذه مكة قد رمتكم بأفلاذ كبدها
٢	٢٣	هذا جبل يحبنا ونحبه ، في الكلام عن جبل أحد ،
٣	٢٤	المسلمون تنكأوا دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم
٤	٢٦	ظهورها حرز وبطونها كنز ، في شأن الخيل ،
٥	٢٦	في الجنين غرة : عبد أو أمة
٦	٢٧	إذا أراد الله بعبد خيرا عسله
٧	٢٩	ويل لأقاصع القول ، ويل للمصرين
٨	٢٩	أخرجنا ما تصران ، قاله عليه الصلاة والسلام للفضل
		ابن العباس وابن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب ،
٩	٣٠	فان اتبعونا اتبعنا منهم عنق يقطعها الله ، في شأن قريش ،
١٠	٣٢	هذا كتاب من محمد رسول الله لعمار بن كلب وأحلافها
		من ظائرة الاسلام ومن غيرهم
١١	٣٣	لما أنجشة رفقا بالقوارير
١٢	٣٣	فاني أرجو ألا يطلع علينا نقابها ، في شأن الطاعون ،

رقم الحديث	رقم الصفحة	نص الحديث
١٣	٣٤	إن الاسلام بدأ غريباً ، وسيعود غريباً
١٤	٣٥	يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية ... » في شأن الخوارج .
١٥	٣٦	مضر صخرة الله التي لا تنكل
١٦	٣٦	بعثت في نسمة الساعة إن كادت لتسبغني
١٧	٣٧	اليدين العليا خير من اليدين السفلى
١٨	٣٧	إن هذه الأخلاق بيد الله
١٩	٣٨	تقلدها شلوة من جهنم ، في شأن من أخذ جزاء على إقراء القرآن .
٢٠	٣٩	أعبط الناس عندي مؤمن خفيف الحاذ ذو حظ من صلاة .
٢١	٤٠	ذاك رجل لا يتوسد القرآن » في شأن شريح الحضري .
٢٢	٤١	أنتم الشعار والناس الدثار » للأنصار .
٢٣	٤٢	يكون قبل الدجال ستون خداعة
٢٤	٤٣	تخابوا بذكر الله وروحه
٢٥	٤٣	قد أناخت بكم الشرف الجون » في شأن الفتن المتوقعة ،
٢٦	٤٤	الآن حمى الوطيس
٢٧	٤٥	تروون ربكم يوم القيامة كما تروون القمر ليلة البدر ...
٢٨	٤٩	أنزل القرآن على سبعة أحرف لكل آية ظهر وبطن .
٢٩	٤٩	الحليل معقود بنواصيها الخير

رقم الحديث	رقم الصفحة	نص الحديث
٣٠	٥٠	لا تسأل امرأة طلاق أختها لتكتفى ما في إنائها
٣١	٥٠	تتكح المرأة لميسمها
٣٢	٥١	الاسلام يحب ما قبله
٣٣	٥١	وستجدون آخرين للشيطان في رؤوسهم مفاحص
		فاقاموها بالسيوف « في وصية لأمرأء جيش مؤتة »
٣٤	٥٢	أجد نفس ربكم من قبل اليمن
٣٥	٥٣	الحمى رائد الموت ...
٣٦	٥٥	كيف أتم إذا مرج الدين
٣٧	٥٦	لنجنون وتبخلون وتجهلون ..
٣٨	٥٨	لو يعلمون ما يكون في هذه الامة من الجوع الاغبر ...
٣٩	٥٩	أسرعكن لحاقا بي أطولكن يدا « في شأن زوجته عليه الصلاة والسلام »
٤٠	٦١	مات حتف أنفه
٤١	٦١	إياكم وخضراء الدمن
٤٢	٦٣	الأنصار كرشى وعيبي
٤٣	٦٥	يا حكيم إن هذا المال خضرة حلوة « لحكيم بن حزام »
٤٤	٦٦	الصدقة عن ظهر غنى
٤٥	٦٨	اللهم إني أحمدك على العرق الساكن والليل النائم
٤٦	٦٨	من أكل من هاتين البقلتين فلا يقربن مسجدنا ...
		« يعني الكراث والثوم »

نص الحديث	رقم الحديث	رقم الصفحة
المؤمن مرآة أخيه	٤٧	٦٨
اليمين الفاجرة تدع الديار بلاقع	٤٨	٦٩
تصلي في حلاقيم البلاد ، في شأن الجمعة ،	٤٩	٦٩
إني ممسك بحجزكم هلموا عن النار . . .	٥٠	٦٩
أقلمته في غره الاسلام ، الخطاب لمحم بن جثامة اللبني .	٥١	٧١
و يقطع الناس في آثارهم ، حتى بقيت عجز من الناس عظيمة ، في شأن قريش ،	٥٢	٧٢
خصاء أمتي الصيام	٥٣	٧٣
إن لك بيتا ، وإنك لذو قرنيها ، الخطاب لعلي كرم الله وجهه ،	٥٤	٧٣
أخاف عليكم إذا صبت الدنيا عليكم صبا	٥٥	٧٥
كل عين زانية	٥٦	٧٥
لا ياقى الله عبد لم يشرك بالله شيئا . . .	٥٧	٧٦
من فعل كذا وكذا فقد احتظر من النار بحظار	٥٨	٧٧
اغتربوا لاتضروا	٥٩	٧٨
خير المال عين ساهرة لعين نائمة	٦٠	٧٩
كل هوى شاطن في النار	٦١	٧٩
كيف بكم وبزمان يغربل الناس فيه ...	٦٢	٨٠
سئل عليه الصلاة والسلام : أي الأعمال أفضل ...	٦٣	٨٠
إن قوما يضفرون الاسلام ، ثم يلفظونه ...	٦٤	٨١

نص الحديث	رقم الصفحة	الرقم لحديث
يؤمن الله ملأى سمحا ...	٨١	٦٥
ابنوا المساجد واتخذوها جما	٨٢	٦٦
لا يزال العبد خفيفا ، منقيا بذنبه ...	٨٣	٦٧
بلوا أرحامكم ولو بالسلام	٨٤	٦٨
ذاك رجل بال في آذنه الشيطان ، في شأن رجل نام عن الصلاة ،	٨٤	٦٩
تعرض للناس جهنم كأنها سراب ..	٨٥	٧٠
إني لأرجو أن تموت جميعاً . . . ، خطاب لرجل من وفد نجيب ،	٨٦	٧١
أسكنت بأقل الأرض مطرا ، في شأن المدينة ،	٨٦	٧٢
الحياة نظام الايمان	٨٧	٧٣
منبري هذا على ترعة من ترع الجنة	٨٨	٧٤
إن الاسلام ليأرز إلى المدينة ...	٨٩	٧٥
لا يدخل الجنة لحم نبت من سحت	٨٩	٧٦
إنك إذا فعلت ذلك هجمت عيناك . . . ، خطاب لعبد الله بن عمرو بن العاص ،	٩٠	٧٧
لأن يمتلىء جوف أحدكم قيحا	٩٠	٧٨
كل صلاة لا يقرأ فيها بأم الكتاب وهي خداج .	٩١	٧٩
عائد المريض على مخرف الجنة	٩٢	٨٠
لو نظرت إليها فانه أخرى أن يؤدم بينكما ، خطاب للغيرة ابن شعبة ،	٩٣	٨١

نص الحديث	رقم الحديث	رقم الصفحة
إن من البيان لسحرا	٨٢	٩٤
إلا أن يتغمدني منه برحمة .	٨٣	٩٥
اللهم إني أسألك رحمة تلم بها شعثي	٨٤	٩٥
أعوذ بالله من شر عرق نعار	٨٥	٩٦
من كانت الدنيا همه وسدمه . . .	٨٦	٩٦
فجاءت به كله قالب لون ، في صفة شاة ،	٨٧	٩٧
خير الخيل الأدهم	٨٨	٩٨
قف هاهنا فعم علينا بهور النجوم « الخطاب لسراقة ابن مالك »	٨٩	٩٨
وهذه الخطوط إلى جنبه الأعراض تنمشه . . . في وصف أحوال ابن آدم ،	٩٠	٩٩
لا يصل للرجل وهو زنا .	٩١	٩٩
الحجاز قطيفة الإيمان	٩٢	١٠٠
إن هذه المسائل كد يكذبها الرجل وجهه	٩٣	١٠١
لقد غاغت النظر يا عدو الله ..	٩٤	١٠٢
وليس من ملك إلا وله حمى . . .	٩٥	١٠٣
وفت أذنك يا غلام وصدق الله حديثك « خطاب لزيد ابن أرقم .	٩٦	١٠٤
حسان حجاز بين المؤمنين والمنافقين . . .	٩٧	١٠٥
فلم يبق منهم تحت أديم السماء إلا رجل في الحرم .	٩٨	١٠٦

رقم الحديث	رقم الصفحة	نص الحديث
٩٩	١٠٧	أوثق العرى كلمة التقوى
١٠٠	١٠٧	إني على جناح سفر
١٠١	١٠٧	الناس معادن
١٠٢	١٠٨	ألا إن كل شيء من أمر الجاهلية تحت قدمي (موضوع)
١٠٣	١٠٨	واعلموا أن الجنة تحت البارقة ومن وصية خوطب بها أسامة بن زيد،
١٠٤	١٠٩	لا إسلال ولا إغلال... من كتاب صلح الحديبية،
١٠٥	١١٠	هي شجرة من الله... في شأن الرحم،
١٠٦	١١١	الولد للفراش وللعاهر الحجر
١٠٧	١١٣	اللهم إنا نعوذ بك من وعشاء السفر....
١٠٨	١١٤	إنما يجرجر في بطنه نار جهنم في شأن الشارب في آنية الذهب والفضة،
١٠٩	١١٦	هي ليلة إضحيانة.... في وصف ليلة القدر،
١١٠	١١٧	خذ من حواشي أمواتهم... خطاب للضجرك ابن سفيان،
١١١	١١٩	بين يدي الساعة ينطق الرويبضة
١١٢	١١٩	وعطفان أكمة خشناة تنفي الناس عنها ومن وصف لعدة قبائل،
١١٣	١١٩	يجيء يوم القيامة معه لواء الشعراء إلى النار في شأن امرئ القيس،

نص الحديث	رقم الحديث	رقم الصفحة
ما من جرعة يتجرعها الانسان أعظم أجرا ...	١١٤	١٢٠
فوالذى نفسى بيده ما من عبد بات فى جوفه ... « فى شأن الجرجير »	١١٥	١٢١
وهل يكب الناس على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم	١١٦	١٢١
تدور رحا الاسلام لسنة كذا	١١٧	١٢٢
من بايع إماما فأعطاه صفقة يده	١١٨	١٢٤
هود وأخواتها قصفن على الأمم	١١٩	١٢٤
الرحم تتكلم بلسان طلق ...	١٢٠	١٢٥
لا تمشوا على أعقابكم القهقرى .	١٢١	١٢٦
من أباكم وأمركم جمع ...	١٢٢	١٢٦
من لبس فى الدنيا ثوب شهرة ...	١٢٣	١٢٧
اللهم أر بينهما « فى شأن رجل يشكو امرأته »	١٢٤	١٢٨
فوالذى نفسى بيده لكانما ينضحونهم بالنبل « فى شأن هجاء شعراء المسلمين لمشركى قريش »	١٢٥	١٢٨
أخاف أن تصف حجم عظامها « فى شأن قبطية كساها أسامة بن زيد امرأته »	١٢٦	١٢٩
لا تعضية فى ميراث إلا ما حمل القسم	١٢٧	١٢٩
ولا تسلط عليهم عدوا من سوى أنفسهم ...	١٢٨	١٢٩
من كسب مالا من نهاوش أنفقه فى نهار	١٢٩	١٣١
لا يباح ماؤه ولا يعقر مرعاؤه	١٣٠	١٣٢

رقم الحديث	رقم الصفحة	نص الحديث
١٣١	١٣٣	الولاء لجهة كالحمة بالنسب ...
١٣٢	١٣٣	المؤمن موه راقع
١٣٣	١٣٤	من خلع يدا من طاعة ابي الله ولا حجة له
١٣٤	١٣٤	من كانت نيته الآخرة ...
١٣٥	١٣٤	عليكم بسقي وسنة المهديين من بعدى
١٣٦	١٣٥	حبك الشيء يعنى وبهم
١٣٧	١٣٥	تمام عيناى ولا ينال قلبى
١٣٨	١٣٦	إياكم والمشاركة ..
١٣٩	١٣٧	دب إليكم داء الامم من قبلكم ..
١٤٠	١٣٨	قيدوا العلم بالكتاب
١٤١	١٤٠	سيحرصون بعدى على الامارة .
١٤٢	١٤٠	لا تغالوا بمهور النساء .
١٤٣	١٤١	إن الله سبحانه جعل الاسلام دارا .
١٤٤	١٤١	أنا النذير والموت المغير
١٤٥	١٤٢	إنه لبحر « فى وصف فرس جاء سابقا »
١٤٦	١٤٣	ألا أخبركم بأحبكم إلى ..
١٤٧	١٤٤	رأيت أمر الجاهلية لإمام احسنه فى وصية لمعاذ بن جبل
١٤٨	١٤٤	الصوم جنة ...
١٤٩	١٤٦	يا كعب بن عجرة : الناس غاديان ...
١٥٠	١٤٧	إن من أشراط الساعة ...

نص الحديث	رقم الحديث	رقم الصفحة
ولا تكلم اليوم بكلام تعتذر منه ...	١٥١	١٤٨
العلم خليل المؤمن ...	١٥٢	١٤٨
والمهاجرات شح مطاع ..	١٥٣	١٥٠
الكلمة الحكيمة ضالة الحكيم	١٥٤	١٥١
ألا إن الدنيا قد ارتحلت	١٥٥	١٥١
الاحتباء حيطان العرب	١٥٦	١٥٢
المجاهد من جاهد نفسه	١٥٧	١٥٤
النساء حباثل الشيطان	١٥٨	١٥٤
والشباب شعبة من الجنون	١٥٩	١٥٤
ألا إن الغضب جمرة	١٦٠	١٥٥
العلم رائد ...	١٦١	١٥٦
كل واعظ قبلة .	١٦٢	١٥٦
نعم وزير الايمان العلم	١٦٣	١٥٧
زاد المسافر الحدا	١٦٤	١٥٧
من عد غدا من أجله فقد أساء صحة الموت	١٦٥	١٥٧
أنا مدينة العلم وعلى بابها	١٦٦	١٥٨
لكل شيء وجه ...	١٦٧	١٥٨
أطعموا الله يطعمكم	١٦٨	١٥٨
العلم خزانة ..	١٦٩	١٥٨
الموت ريحانة المؤمن	١٧٠	١٥٩
الدعاء سلاح المؤمن ..	١٧١	١٥٩

رقم الحديث	رقم الصفحة	نص الحديث
١٧٢	١٥٩	ومنهن ربيع مربع « في وصف النساء »
١٧٣	١٦٠	إن المسجد لينزوي من النخامة ...
١٧٤	١٦١	من القتل رجل قرف على نفسه من الذنوب ...
١٧٥	١٦٢	اتبعوني تكونوا بيوتاً ..
١٧٦	١٦٣	وأسألكم عن ثقل كيف خلقتوني فيهما ، من كلام له عليه الصلاة والسلام يوم الغدر ،
١٧٧	١٦٦	أحسنى جوار نعم الله ... « من خطاب لبعض زوجاته عليه الصلاة والسلام »
		(ص ١٦٦ الرقم المسلسل للحديث كتب خطأ ١٧٦)
١٧٨	١٦٧	صدقك كل رطب ويا بسى « في شأن مؤذن عند قوله أشهد أن لا إله إلا الله »
		(ص ١٦٧ الرقم المسلسل للحديث كتب خطأ ١٨٧)
١٧٩	١٦٨	الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب
١٨٠	١٦٨	فان هذا القرآن حبل الله المتين ...
١٨١	١٧٠	والعصر إذ كان ظل كل شيء مثله ... « في عهد إلى بعض عمال اليمن »
١٨٢	١٧١	مفاتيح الجنة لا إله إلا الله
١٨٣	١٧٢	وصل الظهر بعدما يتنفس الظل ومن وصية لمعاذ بن جبل
١٨٤	١٧٢	أقبلوا ذوى الهيئات عثراتهم ...
١٨٥	١٧٣	جبرائيل ناموس الله
١٨٦	١٧٤	بلغنى عن فلان كلام تشذرى عن إيعاد

نص الحديث	رقم الحديث	رقم الصفحة
الايمان هبوب	١٨٧	١٧٤
الاستغفار مهدمة للذنوب	١٨٨	١٧٥
ما أذن الله لشيء كاذبه لني يتغنى بالقرآن	١٨٩	١٧٥
لا تسبوا الدهر فان الله هو الدهر	١٩٠	١٧٧
الصوم في الشتاء الغنيمه الباردة	١٩١	١٧٨
اتقوا الله في النساء فانهن في أيديكم عوان	١٩٢	١٧٩
استعبدوا بالله من طمع يهدى إلى طبع	١٩٣	١٨٠
اردد على ابنك ماله . «خطاب لرجل تصرف في مال ابنه بدون اذنه»	١٩٤	١٨٠
الخلق عيال الله	١٩٥	١٨١
الخمر أم الخبائث .	١٩٦	١٨٢
كل أمر ذي بال .	١٩٧	١٨٣
هدنة على دخن	١٩٨	١٨٦
دع داعي اللين : «خطاب لرجل حلب ناقة فاستفرغ جميع ما في ضرعها»	١٩٩	١٨٨
ما نزل من القرآن آية إلا ولها ظهر وبطن	٢٠٠	١٨٨
من أحيأ أرضا ميتة فهي له	٢٠١	١٩١
اللهم المم شعثنا	٢٠٢	١٩٢
قلدوا الخيل ولا تقلدوها الأوتار	٢٠٣	١٩٢
ضالة المؤمن حرق النار	٢٠٤	١٩٤
إن هذا الدين متين	٢٠٥	١٩٥

نص الحديث	رقم الحديث	رقم الصفحة
إذا سافرت في الخصب فأعطوا الركب أسنتها	٢٠٦	١٩٥
أنا بريء من كل مسلم مع مشرك	٢٠٧	١٩٨
إن عم الرجل صنو أبيه	٢٠٨	٢٠١
تمسحوا بالأرض فانها بكم برة	٢٠٩	٢٠١
رب تقبل توبتي واغسل عني حوبتي	١١٠	٢٠٢
من سره أن يذهب كثير من وحر صدره...	٢١١	٢٠٤
أعوذ بالله من الشيطان الرجيم...	٢١٢	٢٠٤
العين وكاء السه...	٢١٣	٢٠٧
كيف ترون قواعد . « في السؤال عن سحابة »	٢١٤	٢٠٨
كلكم بنو آدم طف الصاع .	٢١٥	٢٠٩
اللهم إنا نعوذ بك من الابهمين	٢١٦	٢١١
لا تقوم الساعة حتى يظهر الفحش والبخل	٢١٧	٢١٢
إن لنا الضاحية من البعل . « من كتاب إلى صاحب دومة »	٢١٨	٢١٣
واستذكروا القرآن .	٢١٩	٢١٤
أعنان الشياطين . « في شأن الابل »	٢٢٠	٢١٥
من شر ما أعطى العبد شح .	٢٢١	٢١٧
ما من أمير عشرة إلا وهو يحى .	٢٢٢	٢١٨
وإن ما كان لكم من دين إلى أجل ... « من كتاب لثقيف »	٢٢٣	٢١٨
إن للشيطان نشوقا ولعوقا ودسا ما .	٢٢٤	٢٢٠
أغبطت على الحمى	٢٢٥	٢٢١

نص الحديث	رقم الحديث	رقم الصفحة
خير الناس في آخر الزمان الرجل النومة .	٢٢٦	٢٢٢
من خالف الجماعة فقد خلع ربة الاسلام من عنقه	٢٢٧	٢٢٢
تؤخرون الصلاة إلى شرق الموقى	٢٢٨	٢٢٣
لا ترفع عصاك عن أهلك	٢٢٩	٢٢٣
كيف تصنع في قتن ... «خطاب لبعض الصحابة»	٢٣٠	٢٢٤
«عند ذلك بقي الأرض أفلاذ كبدها» في حديث	٢٣١	٢٢٦
أشراط الساعة .		
من قال كذا وكذا غفر له	٢٣٢	٢٢٦
إن القرآن شافع مشفع .	٢٣٣	٢٢٧
لا يكونوا بغوبات لئلا الله	٢٣٤	٢٢٧
إياكم والمغمضات من الذنوب	٢٣٥	٢٢٨
إنه تشافها « في شأن من حيا رسول الله صلى الله	٢٣٦	٢٢٩
عليه وسلم »		
سيد الأيام يوم الجمعة	٢٣٧	٢٣٠
تزوجوا الشواب فانهن أغرا أحلاقا	٢٣٨	٢٣٠
إنكم قد أخذتم في شعبين بعيدى الغور « إن تذاكروا	٢٣٩	٢٣٠
القضاء والقدر »		
ثم يكون ملك عض ...	٢٤٠	٢٣١
الصوم جنة ما لم يخفها	٢٤١	٢٣٢
إن المسلم إذا توضأ ..	٢٤٢	٢٣٢
أرى عليه سبعة من الشيطان « في شأن رجل منهم	٢٤٣	٢٣٣
في دينه »		

رقم الحديث	رقم الصفحة	نص الحديث
٢٤٤	٢٣٤	خير الناس منزلة ..
٢٤٥	٢٣٥	أعوذ بك من شر الجوع ...
٢٤٦	٢٣٥	نعس عبد الدينار والدرهم ..
٢٤٧	٢٣٧	لا حرج إلا على رجل افترض عرض أخيه بظلم ...
٢٤٨	٢٣٧	إن السقط ليجر أمه إلى الجنة بسرره
٢٤٩	٢٣٨	لا يمنعكم من سحوركم الفجر حتى يستطير
٢٥٠	٢٣٩	يبلغ العرق هناك ما يلحمهم ، في وصف أهل المحشر
٢٥١	٢٤٠	يا معشر الأنصار أوجدتم ... في تقسيم غنائم حنين
٢٥٢	٢٤١	تحفة المؤمن الموت
٢٥٣	٢٤٢	إن الله يغفر لعبده ما لم يقع بالحجاب ..
٢٥٤	٢٤٣	المعروف والمنكر خليفتان ...
٢٥٥	٢٤٤	أمرت بقرية تأكل القرى ...
٢٥٦	٢٤٥	الرحم لها حجنة كحجنة المغزل
٢٥٧	٢٤٦	من قتل تحت راية عمية ...
٢٥٨	٢٤٦	من أراد أهل المدينة يكيدهم ...
٢٥٩	٢٤٧	سلمان ابن الاسلام ... في شأن سلمان الفارسي
٢٦٠	٢٤٨	معتك المنايا بين الستين والسبعين
٢٦١	٢٤٨	لا تسبوا الأبل فانها رقوء الدم
٢٦٢	٢٤٩	إن ذا الوجهين لخليق ألا يكون عند الله وجهيه
٢٦٣	٢٤٩	الإيمان يمان والحكمة يمانية
٢٦٤	٢٥١	ينادي مناد يوم القيامة ...

نص الحديث	رقم الحديث	رقم الصفحة
الرؤيا على الرجل طائر ..	٢٦٥	٢٥١
إن الشيطان ذئب الانسان	٢٦٦	٢٥٣
لينقضن الاسلام عروة عروة	٢٦٧	٢٥٤
ما من آدمى الا وقلبه بين إصبعين من أصابع الله	٢٦٨	٢٥٤
يهرم ابن آدم ويشب معه اثنتان ..	٢٦٩	٢٥٨
من سره أن يقرأ القرآن غضا ...	٢٧٠	٢٥٩
لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر ...	٢٧١	٢٦٠
إن من أربى الربا استطالة المرء في عرض أخيه المسلم	٢٧٢	٢٦٠
يقرءون القرآن يحسبون أنه لهم . وفي صفة الخوارج ،	٢٧٣	٢٦١
والله لا أعطيكم وأدع أهل الصفة «لمخاطبين من أهله	٢٧٤	٢٦٢
عليه الصلاة والسلام ،		
الايمن قيد الفتك	٢٧٥	٢٦٢
الصبر عند الصدمة الأولى	٢٧٦	٢٦٣
والذي نفسي بيده لا يسلم عبد حتى يسلم قلبه ولسانه	٢٧٧	٢٦٤
إن الله سبحانه لم يحرم حرمة ..	٢٧٨	٢٦٤
نهام عداؤهم من المعاصي . « في شأن بني إسرائيل ،	٢٧٩	٢٦٤
الأيدي ثلاث فيد الله العليا ...	٢٨٠	٢٦٥
ليلة الجمعة غراء ويومها أزهر	٢٨١	٢٦٧
ألا إن عمل الجنة حزن بربرة	٢٨٢	٢٦٨
شفاء العي السؤال	٢٨٣	٢٦٩
احفظ الله يحفظك « في نصيحة لعبد الله بن عباس ،	٢٨٤	٢٦٩

رقم الحديث	رقم الصفحة	نص الحديث
٢٨٥	٢٦٩	العين حق تستنزل الخالق
٢٨٦	٢٧١	الاسلام ذلول ...
٢٨٧	٢٧٢	من تقرب إلى الله شبرا
٢٨٨	٢٧٣	ماللهيطان من سلاح أبلغ في الصالحين من النساء
٢٨٩	٢٧٣	مالك ولها . « في شأن ضالة الابل ،
٢٩٠	٢٧٤	فاذا طلع حاجب الشمس فلا تصلوا ..
٢٩١	٢٧٥	المؤمن يأكل في معاء واحد .
٢٩٢	٢٧٦	جيئوا بكبش أقرن ...
٢٩٣	٢٧٧	ليست هذه بالحیضة ... « في شأن امرأة استحیضته ،
٢٩٤	٢٧٧	إن الله ليربى لأحدكم التمرة ...
٢٩٥	٢٧٨	من عاد مريضا لم يزل يخوض ...
٢٩٦	٢٧٨	لا ترسلوا فواشيكم وصبيانكم ...
٢٩٧	٢٧٨	أعطوا الطرق حقه
٢٩٨	٢٧٩	المجالس ثلاثة : سالم وغانم وشاجب
٢٩٩	٢٧٩	إن إبراهيم ابني مات في الثدى .
٣٠٠	٢٨٠	إذا وقعت الحدود وصرفت الطرق فلا شفعة
٣٠١	٢٨٠	وسياتي على الناس زمان « في ذم الناس ،
٣٠٢	٢٨١	ونهيكم عن الشرب في الاوعية
٣٠٣	٢٨٢	حفت الجنة بالمكاره

نصر الحديث	رقم الحديث	رقم الصفحة
لا حتى يكون الآخر قد ذاق من عسيلتها ، في شأن المطابقة ثلاثا ،	٣٠٤	٢٨٢
لا يتطهر الرجل فيحسن طهوره . . .	٣٠٥	٢٨٣
إنه ليغان على قلبي .	٣٠٦	٢٨٤
القلوب أوعية .	٣٠٧	٢٨٤
ما يخرج رجل شيئا من الصدقة .	٣٠٨	٢٨٥
يد الله مع القاضى حين يقضى	٣٠٩	٢٨٥
ألقه على بلال ، في شأن الأذان ،	٣١٠	٢٨٦
من قال حين يصبح	٣١١	٢٨٦
اللهم إني أول من أحيا أمرك .	٣١٢	٢٨٨
كل ذلك لم يكن . في شأن السجدة التى أطلها عليه الصلاة والسلام .	٣١٣	٢٨٨
إن تبرحوا مبتلين . من كلام لبعض الصحابة ،	٣١٤	٢٨٩
لا تعادوا الأيام فتعاديكم	٣١٥	٢٩٠
لقد تحجرت واسعا ، في شأن أعرابي دعا لنفسه وللنبي فقط ،	٣١٦	٢٩٠
من أبطأ به عمله .	٣١٧	٢٩١
رحم الله حميرا . . .	٣١٨	٢٩٢
أكثرنا ذكر هادم اللذات	٣١٩	٢٩٣
خشب بالليل جذر بالنهار . في شأن قوم منافقين ،	٣٢٠	٢٩٣
إن المؤمن إذا أذنب . . .	٣٢١	٢٩٣
ولا يشرب أحدكم الحدود . . .	٣٢٢	٢٩٤

رقم الحديث	رقم الصفحة	نص الحديث
٣٢٣	٢٩٤	هم دعاء يصلى الجنة . و في شأن أطفال المسلمين ،
٣٢٤	٢٩٥	إذا أضيعت الأمانة ..
٣٢٥	٢٩٥	خمس ليس لها كفارة
٣٢٦	٢٩٦	إذا دخل البصر فلا إذن
٣٢٧	٢٩٧	الجرس مزمار الشيطان
٣٢٨	٢٩٧	إن المؤمن لينضى شيطانه
٣٢٩	٢٩٨	لا تقوم الساعة ...
٣٣٠	٢٩٨	إن للمساجد أوتادا
٣٣١	٢٩٩	ورجل تصدق ...
٣٣٢	٢٩٩	فما بعث الله عبدا إلا في ذروة من قومه
٣٣٣	٣٠٠	لكل شيء سنام ...
٣٣٤	٣٠١	أيها الناس ما يحملكم على أن تتنايعوا ..
٣٣٥	٣٠٢	تلك ضراوة الاسلام ، في شأن المجتهدين في العبادة ،
٣٣٦	٣٠٣	لعن الله الذين يشققون الكلام ...
٣٣٧	٣٠٤	ليدخلن هذا الدين على ما دخل عليه الليل
٣٣٨	٣٠٤	ألا أخبرك برأس الأمر . . . و في حديث مع معاذ بن جبل ،
٣٣٩	٣٠٥	حجوا قبل ألا تحجوا
٣٤٠	٣٠٥	الحمي كير جهنم
٣٤١	٣٠٦	اللهم إن فلان ، فلان ... و من دعاء له عليه الصلاة والسلام ،

نص الحديث	رقم الحديث	رقم الصفحة
ثم تعودون فيها أساود ... « في شأن الفتن »	٣٤٢	٣٠٧
كلكم يدخل الجنة ..	٣٤٣	٣٠٧
أنفجى وانضجى ... « من وصية لاسماء بنت أبي بكر »	٣٤٤	٣٠٨
إن قريشاً أهل صدق وأمانة ...	٣٤٥	٣٠٨
المسلمان إذا حمل كل منهما على صاحبه ...	٣٤٦	٣٠٨
إن بعيرك يشكوك ... « من خطاب لصاحب بعير »	٣٤٧	٣٠٩
أما السن فعظم « في النهي عن الذم بالسن والظفر »	٣٤٨	٣١٠
كفى بالسلامة داء	٣٤٩	٣١٠
ولا صلاة بعدها حتى يرى الشاهد « في شأن صلاة العصر »	٣٥٠	٣١١
وإى داء أدوى من البخل	٣٥١	٣١٢
إذا ملأ الليل بطن كل واد « في شأن صلاة العشاء »	٣٥٢	٣١٢
اللهم مطفي الكبير ... في شأن بثرة طلعت بين أصابعه	٣٥٣	٣١٣
عليه الصلاة والسلام		
من قعد في مصلاه	٣٥٤	٣١٣
لا تتخذوها كراسى لأحاديثكم ...	٣٥٥	٣١٤
إن الإسلام بدأ جذعا ...	٣٥٦	٣١٥
إنما هذا المال من الصدقة	٣٥٧	٣١٥
ورجل ينازع الله رداه .. « في ذم قوم »	٣٥٨	٣١٦
وفد تركتكم على البيضاء ...	٣٥٩	٣١٨
ماملأ آدمى وعاء شرا من بطنه	٣٦٠	٣١٨
الحجر يمين الله ...	٣٦١	٣١٩